

سُوتونغ
FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018
حياة أخرى للنساء
وروايتان قصيرتان
另一种妇女生活
الترّجمة عن الصّينية: يارا المَصْري

سُوتونغ

حياة أخرى للنساء

وروايتان قصيرتان

الترّجمة عن الصّينية: يارا المَصْري





الطبعة الأولى 2018

SU TONG

ANOTHER LIFE FOR WOMEN

& 2 OTHER NOVELLAS

TRANSLATED BY YARA EL MASRI



حياة أخرى للنساء

سوتونغ: حياة أخرى للنساء وروايتان قصيرتان
الترجمة عن الصينية: يارا المصري

Another Life for Women & 2 other Novellas
Translated by Yara El Masri

الطبعة الأولى - 2018

ISBN 978-1-988483-72-6



مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution
Ottawa, ON. Canada
info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com



译林出版社



This Arabic edition published in 2018 by Wisdom House

另一种妇女生活
作者：苏童

من الأدب الصيني
رواية: حياة أخرى للنساء
تأليف: سوتونغ

تمت الترجمة بشركة بيت الحكمة للترجمة
Sponsored by B & R Book Program
本书获得国家新闻出版广电总局“丝路书香工程”重点翻译资助项目

تصميم الغلاف: محمد النبهان
Cover Photo: Shutterstock.com

المحتويات

خذهم إلى مكان أفضل:
الطموح الإنساني والموت

تنتهي روايات سوتونغ الثلاث القصيرة هذه «بوقائع موت» أو «الموت» هو الملمح الرئيس منظورًا إليه من المصير الإنساني بتعدد مستوياته، الطموح، الوحدة، الحرب، وحتى هذا «الموت» يأتي كذلك بتعدد المصير الإنساني، الموت نتيجةَ حدثٍ عارض، أو الموت كجريمة قتل، والموت الطبيعي، والموت نتيجةَ الحرب.

لكن كيف يعالج سوتونغ وقائع الموتِ هذه في ارتباطها بالمصير الإنساني؟.. إنه يعالجها بالفرار الدائم نحو أمرٍ ما، نحو الطموح في الرواية الأولى «الربيع في مصنع تعليب اللحوم» ونحو الإقلاع عن حياةٍ رتيبة ونحو مكائد النساء في الرواية الثانية «حياة أخرى للنساء» ونحو البحث عن مركب ضائعٍ في النهر حتى وإن كان يحمل موتى أو قتلى حرب في الرواية الثالثة «القناديل الثلاثة».

وإن طابقنا أحداث الروايات على اختلافها بالطبع، وما يشعره كل إنسانٍ في ذاتِه، فسوف نجد أننا نحمل بشكل أو بآخر، هذا النزوع إلى الفرار كسلوكٍ إنسانيٍّ يتوخى البحث والطمأنينة، وإن كان الوجه الآخر للفرار قد تكون المأساة مرئيةً تمامًا، وفي ذلك يقول سوتونغ:

«يبدو أنَّ الفرارَ واحد من أكثر الأفعال المفضلة لدي،......، وأعتقد أن هذا الفعل أو السلوك أحد أهم المواضيع التي يعالجها الأدب، ومن أهم المحاور الرئيسة التي تجمع وتحوي كل شيء، لأن فرار المرء يحقق الكثير مما يُسمَّى بقيمة الإنسان والتراجيديا في الوقت ذاته».

ربما يمنحنا ذلك ملمحًا بسيطًا عن المحور الرئيس التي تدور حوله الروايات الثلاث القصيرة في هذا الكتاب، سواء أكان الفرار أو الهرب باختيار الشخصيات كما يظهر في رواية «حياة أخرى للنساء» أو في «رواية القناديل الثلاثة» أو أن يكون الفرار الحل الوحيد والأمثل لكن من الصعب تحقيقه كما يظهر في رواية «الربيع في مصنع تعليب اللحوم»، والفرار المقصود ليس قضية أخلاقية مقابل المواجهة مثلًا، إذ تبدو جميع الشخصيات في الروايات الثلاث، كما لو كانت مجبولة من الضعف الإنساني المُحاط بأقدار تكاد تكون وجودية، إذ ما الذي يمكن أن يفعله مُربِّي بط فقير وأُمِّي في مواجهة «حرب» رغم أنه وهذه مفارقة لم يهرب كما سكان القرية الأقوياء كالعمدة.

كما أن الروايات الثلاث مُسندة في أحداثها على أصوات النساء، بدرجة أو بأخرى، وإن كانت هذه الأصوات أشد وضوحًا في رواية «حياة أخرى للنساء» وهو عنوان كأنما يؤجل حياة المرأة كلها إلى «الزواج أو الموت أو الشجار مع نساءٍ أخريات» في نظرة ناقدة لوضع المرأة في المجتمع الصيني، الذي يُرى بشكل أو بآخر في مجتمعاتٍ أخرى في العالم.

ولعل وصول فيلم «ارفعوا المصابيح الحمراء» المقتبس عن روايته «زوجات ومحظيات» إلى قائمة ترشيحات الأوسكار، وكتابته سلسلة من الروايات الأخرى مثل «حياة النساء» و«حياة أخرى للنساء» قد صنفت الكاتب سوتونغ واحدًا من أفضل الكتاب الذين كتبوا عن المرأة، وبرعوا في وصف طبيعتها وتفاصيل حياتها وعالمها الداخلي، إلا أنه لا يهتم لتلك

التصنيفات كما قال في حوار معه:

«في الحقيقة إن وجه كتاباتي هو أنني ألصق جانبًا من وجهي بالجانب الآخر، فأنا أرتدي قناعًا في الأصل، وليس لدي تصنيف بإمكانه أن يفسر معنى كلماتي تفسيرًا كاملًا، لذلك لا أدري إلى أي تيار أنتمي، ولا أعير اهتمامًا لذلك الأمر أيضًا، لكني أظن أنني أكتب وفقًا لحدسي وتصنيفي أنا».

ولد سوتونغ في شهر يناير عام 1963، في مقاطعة جيانغسو في جنوب الصين. وفي عام 1980 التحق بقسم اللغة الصينية - جامعة المعلمين في بكين ودرس هناك. وبدأ الكتابة عام 1983. ويعمل الآن كاتبًا في رابطة الكتاب الصينين التابعة لمقاطعة جيانغسو، حيث إنه متفرغ تمامًا للكتابة والـتأليف. وقد حازت أعمال سوتونغ على جوائز عديدة، منها جائزة البوكر الآسيوية في دورتها الثالثة عام 2009 عن روايته الطويلة «قارب الخلاص» وأُدرجت روايته «زوجات ومحظيات» ضمن أفضل مائة رواية صينية في القرن العشرين. وحَصُل أيضًا على جائزة لوشون الأدبية في دورتها الخامسة عام 2010، وهي واحدة من أرفع وأكبر الجوائز الأدبية في الصين، كما حاز على جائزة يو دافو الأدبية عام 2012.

الحياة العادية الرتيبة كابوس الشباب. ربما يكون هذا مغزى الرواية الأولى «الربيع في مصنع اللحوم» والتي تحكي عن طموحات شاب أُحبطت في مواجهة وتغيرات المجتمع. حيث وُزِّعَ جين تشياو للعمل في مصنع لتعليب اللحوم بعد فشله في كلية الشؤون الخارجية، وتكشف الرواية عن حبه ورغبته في العمل كدبلوماسي، إلى حد السقوط في أحلام اليقظة، لكنه ينتهي مجمَّدًا وميتًا في ثلاجة لحفظ اللحوم.

في رواية «حياة أخرى للنساء» تنتهي امرأة إلى الزواج وأخرى إلى الموت قتلًا وثالثة إلى ارتكاب جريمة، وبين طابق علوي تعيش فيه امرأتان

وحيدتان وطابق أرضي حيث يقع دكان لبيع المخللات، تعمل فيه ثلاث نساء، تدور أحداث الرواية، وكأن الحيز الضيق هذا، هو ما يمكن أن يُتاح للمرأة، فتوسعه بالنميمة والمكائد والقتل والرغبة في الفرار بالزواج.

«خذهم إلى مكان أفضل، إلى مكان ليس فيه حرب!» يقول بيان جين مخاطبًا المركب الذي يحمل ثلاثة جثث ويمضي سابحًا مع تيار النهر في رواية «القناديل الثلاثة» التي تمنحنا مفهومًا جديدًا للحرب والوحدة. وتدور أحداث الرواية في إحدى القرى التي نزح أهلها بسبب الحرب، بعضهم أخذ حاجياته ومواشيه، وآخرون تركوا كل شيء وهربوا، ولم يبق غير بيان جين مُربِّي البط وأحمق القرية كما يسميه الناس وحيدًا باحثًا عن بطَّاته، ومتفاديًا رصاصات وأعيرة نارية تُطلق هنا وهناك. إلى أن يقابل الفتاة شياو وان ذات الوشاح الأخضر وتتغير حياته في مواجهة الموت بالذات.

يارا المصري

القاهرة 12 مارس 2017

الربيع في مصنع تعليب اللحوم

كان الناسُ يُسمُّون المصنعَ الذي كان يعملُ فيه جين تشياو بالمسلخ كنوعٍ من الكسل الرائج عن وصفِ الأشياء بمسمَّياتِها الصحيحة، والناتج عن المحافظة على بعض العادات الجامدة للغة. وإذ أحكي قصة جين تشياو هنا، يجب عليَّ أولًا أن أوضح أمرًا ما نيابة عنه: أنه لم يكن يعمل في المسلخ، بل كان عاملًا في إحدى ورش المسلخ في مصنع دونغ فينغ لتعليب اللحوم. وفي الحقيقة، لم تكن له علاقة بذبح الخنازير، وكونه كان يقضي اليوم كاملًا مع الخنازير لا يعني أنه كان يذبحها، وإضافةً إلى ذلك، فمنذ اليوم الأول الذي عمل فيه جين تشياو كان يعد الأيام ليترك ذلك المكان القميء الباعث على الغثيان.

كانت شمسُ الربيع تلقي أشعتها على ورش المصنع وأحواض الغسيل المكشوفة المخضبة بالدم. كان موسم جمع الخنازير قد حل، وأصوات ماكينات تقطيع اللحم تنبعث من كل ورشة، وظهرت عاملات الثلاجات مرتدياتٍ سترات مُقطَّنة منتفخة فجأة من وراء جين تشياو، وانحنين على أحواض الغسيل وسحبن الكمامات، وانطلقت من أفواههن شتائم نابية. كنَّ يشتمن شخصًا مَّا: رأس الخنزير، أحشاء الخنزير، بول، وكنَّ يستخدمن مفرداتٍ متخصصة في سبِّ أحدٍ ما. شعر جين تشياو أن الأمر ممتع، ولم يكن يعلم مَن يشتمن أولئك النساء، ولم يكنَّ يشتمنه هو على كل حال. وضع جين تشياو الفرشاة جانبًا، وأغلق صنبور المياه، وتوقف عن تنظيف بقعة الدم عن ملابسه، ثم التفت وابتسم لهن قائلًا: «مَن تشتمن؟»

«مَن؟ مَن سننشتم غير رأس الخنزير هذا؟» لوحت إحداهن بالكمامة في يدها، وبدت لهجتها في البداية حانقة، ولكن حين انتبهت إلى أن جين تشياو شخصٌ غريب، رجعت خطوةً إلى الوراء، واستندت إلى حوض الغسيل مرة أخرى قائلة: «هل أنت عامل جديد؟» تفحصته جيدًا، ثم انفجرت ضاحكة وأضافت: «ماذا تنظف بهذه الفرشاة؟ ملابس العمل؟ ما الداعي لتنظيفها؟ ستنظفها اليوم وستتسخ غدًا، ثم إن كنت تحب النظافة إلى هذا الحد فلا تعمل في مصنع لحوم».

قال جين تشياو: «تلطَّخ قميصي بالدم، لم أدرِ أن دمَ الخنزير من الصعب تنظيفه».

سألته العاملة: «لستَ جاسوسًا أليس كذلك؟ لن تشي بنا؟»

«أَشي إلى مَن؟» سأل جين تشياو.

«رأس الخنزير!» في تلك اللحظة اقتربت العاملة منه بدلال وزرَّت عينيها، ثم قالت: «إن تجرأت ووشيتَ بنا، سنجرُّك ونرميك في الثلاجات إلى أن تتجمَّد مع اللحوم».

أصابه الذهول، وحين هَمَّ بسؤالها عن أمرٍ ما، حلَّ الصمت فجأة بين العاملات، وتركزَّت نظراتهن على الطريق بين ورش المسلخ والحمَّامات. كان أحدهم قادمًا يحمل حقيبة ويرتدي قبعة. شتمت العاملات: «رأس الخنزير، أحشاء الحيوان، بول» أطلقن شتائمهن ثم تفرقن على عجل. راقب جين تشياو ظهورهن وهي تختفي وراء الستارة القطنية للثلاجات، وراوده شعور أن الناس في مصنع اللحوم غريبو الأطوار بعض الشيء.

أمسك الفرشاة وبدأ التنظيف في الجهة اليسرى من سترته، والتقى طرف عينه بالرجل الذي يرتدي القبعة وقد بدا في مشيته رجلًا ذا خبرة حاذقًا حتى

وإن كان يحمل حقيبة، وانتبه إلى وجهه المتورد النحيل. «هذا هو رأس الخنزير» فكر جين تشياو في السبب وراء سبِّه بهذا اللقب، فقد اعتاد الناس حيث كبر وترعرع في شمال المدينة، وصف الشخص القبيح أو ذي السلوك البذيء برأس الخنزير، كان الوصفُ نوعًا من الإهانة، أمَّا هذا الشخصُ حاملُ الحقيبة فيبدو كدبلوماسي نبيل جزل اللسان ومثقف. ولما اقترب أكثر بعوده الهزيل وحقيبته الجلدية، ظلَّ جين تشياو مشدوهًا، فلو لم يكن يحمل تلك الحقيبة الملطخة، ويرتدي بذلة تقليدية لونها أزرق داكن، ويزيِّن جيبها بقلم، فإن جين تشياو كان سيعتقد أنه رأى طيف دبلوماسي راحل.

«رأس الخنزير؟» تذكر جين تشياو أصوات العاملات الخبيثة، كان هو الشخص الذي يسبونه، فراودته رغبة فجأة في الاعتذار منه عوضًا عن الآخرين، واحمر وجهه بشكل غريب. أود هنا أن أنبه المهتمين بقصة جين تشياو إلى هذه التفاصيل؛ المرة الأولى التي التقى فيها جين تشياو وشيوي كي شيانغ عند أحواض الغسيل في مصنع تصنيع اللحوم، كان جين تشياو يدعك قميصه آخر دعكة للتخلص من بقعة الدم تلك، ثم عدّل شعره وياقة قميصه وحزامه على عجل، وكأنه نبتة ذابلة غمرها فجأة ضوء الشمس الدافئ والماء، فانتصبت باستقامة، الأمر الأكثر أهمية بالطبع، أن جين تشياو كان منتبهًا تمامًا لنظرة شيوي كي شيانغ، فما عدا بعض الحرج والارتباك غير الضروريَّين، كانت عيناه تحملان هيبةً ووقارًا عميقين كمَن يكن احترامًا لشخصية عظيمة.

«أنت جين تشياو؟» تعرّفه شيوي كي شيانغ بنظرة واحدة، وضع الحقيبة الجلدية، واتجه ناحيته ليصافحه وقال: «أول يوم لك في العمل، كيف الحال؟ اعتدت الوضع؟»

«نعم، لا، لم أعتد» تلعثم جين تشياو في الحديث مُتفحصًا شيوي كي شيانغ وقال: «نظارة، نظارة إطارها أبيض، ألا ترتدي نظارة إطارها أبيض؟»

ردَّ شيوي كي شيانغ: «لا أرتدي نظارات، اسمي شيوي كي شيانغ، نادني بالعم شيوي، هكذا يناديني كل العمال في المصنع، لا تنادني بالمدير، ولا السكرتير، العم شيوي فقط».

«أيها العم شيوي، أنا، لدي إحساس أنك تشبه شخصًا ما».

«أشبه العمال؟ هيه، أنا عاملٌ في الأصل» ثم ضحك فجأة، وأصبحت ملامحه أكثر مرحًا وتابع حديثه: «هكذا يقول الناس، من الطيب أن أشبه العمال، فلو لم أكن أشبه عاملًا وكنت أشبه موظفًا في يوم من الأيام...». حينها اختفت ابتسامته ولوح بيده اليمنى تجاه كتفه وقال: «إذن سأكون بيروقراطيًا، ولن تدعوني بالعم شيوي، بل شيوي البيروقراطي».

دهش جين تشياو مرة أخرى من حركة شيوي كي شيانغ، فقد كان الدبلوماسي الراحل يلوح بيده اليمنى تجاه كتفه حين يود التأكيد على كلامه، ليس بإمكان أحد أن يقلد تلك الحركة بهذه السهولة. حدق جين تشياو إلى يده اليمنى، وخطر بباله أن تلك اليد يجب أن تكون على خصره، ولا يدري ماذا الذي أدى إلى تلك الواقعة السحرية، فقد كانت يد شيوي كي شيانغ تمسك خصره بخفة.

«لِمَ أنت متكلف وحذر هكذا؟» كان شيوي كي شيانغ يضع يدًا على خصره، ويربت بيده الأخرى برقة على كتف جين تشياو، ثم تابع حديثه: «لا تخف مني يا جين تشياو، أنت لا تعرف من أنا، ومع ذلك فأنا أناديك باسمك، وقرأت ملفك، وأتذكره كاملًا، إنني لا أملك كل مقومات القائد الجيد، ولكن ذاكرتي قوية جدًا، أتذكر كل شيء».

غمغم جين تشياو «ذاكرة فوتوغرافية، هكذا هم الدبلوماسيون جميعًا. كلكم متشابهون، متشابهون تمامًا».

في تلك اللحظة تحول انتباه شيوي كي شيانغ مرة أخرى إلى الحقيبة الجلدية عند قدمه، واكتست ملامحه بالصرامة، وارتفع حاجباه وقال: «جين تشياو، تعال، يجب أن نعيد هذه الحقيبة إلى الثلاجة»، أمسك طرف الحقيبة، وأخذ نفسًا وأكمل: «لا يمكن أن يستمر هذا الوضع كثيرًا، يجب علينا أن نوقف تلك الأعمال الشريرة»

«أي أعمال شريرة؟ وماذا في الحقيبة؟»

قال شيوي كي شيانغ: «رؤوس خنازير وأمعاء وغيرها، هناك مَن يحفر حفرة في زاوية المصنع ويأخذ الحقيبة خلسة إلى طرف الجدار، ثم يبيعها، فاشتكى أحد الأشخاص، واحتجزوني أكثر من مرة. أليست رؤوس الخنازير والأمعاء من منتجات الدولة؟ كيف نسرقها؟ لا يمكن أن يستمر هذا الوضع طويلًا، لا بد أن نوقف تلك الأعمال الشريرة».

ساعده جين شياو في حمل الحقيبة إلى الثلاجات، ووسخت بقع الدماء والقذارة يديه اللتين كانتا نظيفتين منذ قليل، وأصابته رائحة أمعاء الخنزير الزنخة المنبعثة من الحقيبة بالغثيان، وحاول جاهدًا أن يمنع نفسه من التقيؤ، وكان يتبع خطوات شيوي كي شيانغ حتى وصلا إلى الثلاجات، حينها لم يستطع منع نفسه فترك الحقيبة، وتقيأ بشدة.

«لم تعتد العمل في المصنع بعد، ستتوقف عن التقيؤ حالما تعتاد الوضع، ستكون بخير» قال شيوي كي شيانغ.

«لا أطيق رائحة الخنزير الزنخة» قال جين تشياو وهو يتقيأ: «اعتقدت أنني سأعمل في التعليب، كنتُ مخطئًا. يا للقذارة، في كل مكان دماء ورائحة زنخة، لن أستطيع العمل هنا».

«أين تريد العمل إذن؟» سأله شيوي كي شيانغ.

«أي مكان أفضل من هنا» أخرج جين تشياو الفرشاة من جيبه، وشرع في فرك الأوساخ التي علقت بقميصه من جديد، وبالطبع كان مراوغًا في إجابته. وسمع ضحكة الاستهزاء التي أطلقها شيوي كي شيانغ خلفه، والتفت جين تشياو ليرى تلك الضحكة، ويقال إن ذلك الدبلوماسي الراحل يضحك هكذا حين يتناقش مع خصومه، واكتسبت ضحكته شهرة بأنها ضحكة استهزاء جامدة كالحديد. ولكن جين تشياو لم ير إلا ظل شيوي كي شيانغ المتين الطويل الذي سحب الحقيبة بمفرده إلى بوابة الثلاجات.

كان جين تشياو يقف أمام بوابة الثلاجات الضخمة والمنخفضة درجة عن الأرض، وكان بإمكانه الآن أن يستكشف المصنع بشكل أفضل، ففي المرج المقفر القريب حيث تصطف ورش المصنع ذات الطوب الأحمر أو الرمادي التي لا ينبعث منها الدخان، تكون السماء زرقاء، وتتخللها أشعة الشمس بانتظام كأنها تنبعث من مروحة، وتنشر لُطفَ الربيع ممتزجًا برائحة لحم الخنزير الزنخة. وشاهد جين تشياو سحابة طافية في أعالي المساء، وما أثار دهشته أن هذه السحابة كانت على شكل خنزير صغير نائم.

بث جين تشياو منذ اليوم الأول شكواه إلى العديد من الناس، وكان شخصًا يولي اهتماما كبيرًا للمظاهر، وقد فشل ثلاث مرات في امتحانات كلية الشؤون الخارجية، فاضطر إلى تقديم تنازلات لتجاوز الأمر، ولكن لم يخطر بباله أنه سيقضي يومًا بعد يوم في رفقة الخنازير، وإن لم يستطع أن يدخل قاعة الأمم المتحدة البيضاوية، فهل يعني هذا أنه لا بد أن يوضح للخنازير في مصنع تعليب اللحوم وجهات نظره حول السلام العالمي؟ كان لهجته مفعمة بالكثير من الحزن وبخس نفسه حقها، ولاحظ أصدقاؤه فقاعة لعاب على طرف فمه، وانتظروا أن يكمل جين تشياو توقعاته بشأن الوضع الدولي، ولكنه أبى أن يكمل حديثه وقال: «الخنزير، لحم الخنزير، كبده، أحشاؤه،

تبًا، إنني أقضي كل يوم مع الأشياء الملعونة!» فقال أحد أصدقائه، على الأرجح بقصد مواساته: «إن العمل في مصانع تعليب اللحوم ليس سيئًا، فكل شهر يحصل العامل على ثلاثة جين من اللحم، ولا يضطر إلى شرائه». ولكن صديقه انتبه بسرعة إلى كلامه، وأدرك أنه أفلت بما لم يكن يجدر به قوله، ورأى نظرات جين تشياو التي تبعث الخوف، نظرات بائسة، غاضبة وحزينة، نظرات لم يرها أصدقاؤه من قبل.

كان الجو في العلِّية حيث يقطن جين تشياو كئيبًا؛ مجموعة من الشباب تجلس كيفما اتفق على الأرض وكراسي صغيرة، نظراتهم الشفوقة المتعاطفة تتركز على جين تشياو وفقاعة اللعاب على طرف فمه. وكان راديو الجيب على حافة النافذة المطلة على النهر لا يزال يذيع النشرة الإخبارية. كانت الأخبار عن مجاعة أفريقيا، وانبعث صوت مذيع صادق يخبر المدينة الصغيرة، أنه في منطقة صحراوية بعيدة عن هنا، يموت الكثير من النساء والأطفال بسبب الجفاف والجوع.

وبهدوء مد أحدهم يده وأطفأ الراديو.

«لا تلمسه» رفع جين تشياو رأسه فجأة وقال: «افتح المذياع، هذه آخر أخبار الساعة».

استمع أصدقاؤه إلى الأخبار معه، إلا أن نظراتهم بدأت تتشتت داخل تلك العلِّية الصغيرة، وكانت المساكن القريبة من النهر والعلِّية المشيدة من الحجارة تبدو دائمًا معتمة كئيبة، وخاصة حينما يكون الضيوف صامتين. في تلك المرة التي تجمع فيها الأصدقاء في الربيع عنده، كانت صور هؤلاء الأشخاص الملونة وبالأبيض والأسود تبدو نابضة بالحياة، كانوا دبلوماسيين يقدرهم جين تشياو، كانت ضحكاتهم وحركاتهم هي ما يبعث الحيوية في العلِّية.

يذكر أصدقاؤه أنه في المرة التي تجمعوا فيها في فصل الربيع ذاك، كان لا يزال يرتدي قميصه الأبيض المفضل، وربطة عنق مقلمة بالأسود والأحمر، وبدا مظهره وكأنه في زيارة لأحد الدبلوماسيين المعلقين على الحائط. ويذكرون أنه بعد خلوده إلى صمت طويل انفجر ضاحكًا فجأة، وأشار إلى صورة على الحائط قائلًا: «يوجد شخص يشبهه في المصنع تمامًا، لن تتصوروا كيف يشبه لاو جياو».

لا جياو هو اللقب الذي يطلقه جين تشياو على هذا الدبلوماسي. ويظهر في الصورة متحدثًا إلى أحد الأشخاص، ملوحًا بيده اليمنى في اتجاه كتفه بوقار، لتترك حركة يده فراغًا ساطعًا حوله. كانت معلومات أصدقائه حول لاو جياو محدودة، وسمعوا جين تشياو يقول إنه كان دبلوماسيًا فطنًا حكيمًا مات قبل سنوات عديدة متهمًا مظلومًا.

كانت فقاعة اللعاب على طرف فمه تترك انطباعًا عميقًا لدى المرء، وبالطبع، لا يستطيع أصدقاؤه المقربون أن يُرجِعوا سببها بكل بساطة إلى جفاف الجو، فعلى الرغم من أن الطقس ربيعي جاف، فإن جين تشياو لم يكن شاحبًا بسبب الطقس، تلك الفقاعة التي تفسد مظهره كانت بلا شك تعود إلى مزاجه المُتعكِّر.

ميدان محطة القطار كان المكان الذي يتواعد فيه جين تشياو ومي جون.

كانت مي جون تجلس قرب النافورة، وكالعادة، تضع إلى جانبها حقيبة منسوجة من منسوجات قومية مياو هدية عيد ميلادها التي أهداها لها جين تشياو. كانت فردتا حذائها الأحمر تحتك كلتاهما بالأخرى، وتصدران صوتًا خفيفًا ثم قويًا، ثم بطيئًا وسريعًا، كأنها تعزف مقطوعة موسيقية. ثم أخرجت من الحقيبة علبة عصير برتقال، ومضت ترتشفه بصوت عال وعينيها تحدقان بحدة وغضب إلى المارة.

وصل جين تشياو أخيرًا، فاعتدلت في جلستها، وما إن ظهر بعوده المتين الطويل حتى رمت علبة العصير، وأخرجت من حقيبتها كتاب (الجناح الغربي)[1] ووضعته على ركبتها، الكتاب الذي كان جين تشياو وبلا شك أهداه لها كذلك.

«هل الآنسة ذاهبة إلى باريس؟ سيتحرك القطار المتجه إلى باريس في السادسة والربع، يجب أن تصعدي» قال لها جين تشياو وانحنى أمامها انحناءةً خفيفة.

«لست ذاهبة إلى باريس. هه، باريس!»، قالت مي جون.

«فليكن، هل الآنسة ذاهبة إلى الصومال لتواسي ضحايا المجاعة؟ يجب أن تتجهي إلى ياوندي أو القاهرة أولًا، ثم تصعدي الطائرة المتجهة إلى مدغشقر».

«لن أذهب إلى أي مكان» أغلقت مي جون الكتاب فجأة، وحدَّقت إليه بتهكمٍ واستهزاء وقالت: «أريد الذهاب إلى المسلخ، دلني على الطريق».

دُهِشَ جين تشياو برهة، وببطء جلس إلى جانبها وقال: «ماذا بكِ اليوم؟ لستِ في مزاج للدعابات، أنسيت الفوائد السحرية العشر للدعابة؟».

«لماذا تأخرتَ؟» بدا صوتها وكأنها تصرخ.

«كنت أستحم، كنت أغسل شعري لأكن محدَدًا». أمسك خصلة من شعره وأراها لمي جون ثم تابع كلامه: «لكي أقابلك كان لا بد أن أتخلص من قاذورات لحم الخنزير ورائحته العالقة في شعري، لا تعرفين كم هو صعبٌ التخلص من هذه الأشياء، ما كنت لأجعلك تشمين رائحة مصنع اللحوم، لا تغضبي، إنَّ تأخري هو تعبيري عن احترام النساء».

---

1. كتاب يشرح أحداث وشخصيات مسلسل (The West Wing) الذي عُرض من سنة 1999 إلى سنة 2006، وكانت أحداثه عن المطبخ السياسي الأمريكي في البيت الأبيض.

«يا لعذوبة لسانك» اقتربت مي جون بهدوء منه بجسدها الضئيل الممتلئ، وحدّقت إلى شعره الرطب وقالت: «ألديكَ وقت لعذوبة اللسان هذه؟ وأي شعر هذا الذي تغسله؟ كم الساعة الآن؟»

«السادسة والربع، ماذا بكِ؟» أجابها جين تشياو.

«إنك تثير غضبي». ابتعدت مي جون عنه بغضب مرة أخرى، وكان وجهها يتضرج بحمرة شديدة حين نهضت، لن أهتم بشؤونك بعد اليوم، سأكون حمقاء إن اهتممت بشؤونك مرة أخرى. وأمسكت بتلك الحقيبة وألقتها بقوة ناحيته، وابتعدت بضع خطوات، ثم التفتت وصرخت: «جين تشياو، لا يصلح لك إلا العمل في مسلخ!».

حاول جين تشياو أن يمسك بتنورتها لكنه لم يفلح في ذلك، وفي تلك اللحظة تذكر موعده مع مي جون، حيث كانا متفقين على مقابلة موظفٍ يُدعى قو في السادسة والنصف مساء، وتذكر أن ذاك المدعو قو قريب بعيد لها، والأهم من ذلك تذكر جين تشياو أنه يعمل في وزارة العمل، وقالت مي جون إن بإمكانه مساعدة جين تشياو في سحبِ ملفه من مصنع اللحوم إلى وزارة العمل.

«عودي» هتف جين تشياو ناحية ظلها المبتعد، لنذهب إلى وزراة العمل، لا، بل لنذهب إلى منزل قريبك. تبعها جين تشياو بضع خطوات لكنه توقف بسرعة، لأن الناس في ميدان محطة القطار كانت ترمقه بنظراتٍ قوية سبّبت له قلقًا وتوترًا شديدين، ومهما كان الأمر كبيرًا، فإنه من المُحال أن يرتكب جين تشياو مثل هذه التصرفات المشينة، وبالطبع بالنسبة للناس فملاحقة الصديقة لا بد له من سبب، المشكلة أن رباط حذائه انفك، ومن المحتمل جدًا أن يفقد الفردة اليسرى أثناء ركضه. ولن يجازف بالركض في الميدان مهما كانت أهمية المسألة.

اختفى ظل مي جون وسط الزحام والعربات، وشعر جين تشياو بأن هذا ظل فتاة جُرِح قلبها. كيف نسيت أمرًا بتلك الأهمية؟ ورأى أنه سخيف في الحقيقة، فكل يوم يفكر أن يودّع مصنع اللحوم، وينسى أول خطة سينفّذها. وقد كان موعدُ السادسة والنصف في ذاكرتِه قبل دخوله إلى الاستحمام، لكنه لا يعلم كيف نسي الأمر بعد انتهائه، فما أن ألقى بزي العمل في صندوق المعدات وارتدى قميصه الأبيض، متجهًا ناحية صديقته بمشية مفعمة بالثقة، حتى تبخرت تلك الخطط البسيطة العملية، ويَذكرُ أنه قبل أن تغادر مي جون غاضبة، كان ذهنه ممتلئًا بتلك الكلمات البديعة والبعيدة، داوننغ ستريت، حزب العمال، حزب المحافظين والاتحاديين، فرانسوا ميتيران، قصر الإليزيه، اليونسكو، وعلمٍ عجيبٍ بأربعة ألوان أحمر وأصفر أزرق وأبيض.

هذا خطأي. ضغط صدغه بإصبعه، فعلى أي حال هو ليس في مقر الأمم المتحدة في لاهاي، ولا حتى في مقر وزارة الخارجية في بكين، فيجب أن يضغط على هذا الجزء من أفكاره، حتى ينبثق الجزء الآخر الذي يحمل الأفكار العملية.

كان كتاب (الجناح الغربي) متروكًا إلى جانب النافورة، ولم يعرف هل تركته مي جون عن عمد أم لا. أمسك الكتاب ورأى قطرات من عصير البرتقال على غلافه، فمسحها بإصبعه، وتحول ذلك المبنى الأبيض إلى لون برتقالي، ومهما مسحته فلا يمكن أن تعيد له بياضه السابق. وأحس فورًا بالحزن، إنك إن أتلفت كتابًا فكأنك آذيت صاحبه، وأقسم جين تشياو أنه لن يعير كتبًا إلى أي شخص، مهما كان.

كانت النافورة متوقفة منذ فترة طويلة، ولم يتبقَ إلا بركة ماء مليئة بالقاذورات من مخلفات أوراق، وعلب وقشور برتقال، وأدرك جين تشياو فجأة أنه يجلس في مكان غير نظيف، فهمَّ بالمغادرة، ولكن في اللحظة التي

التفت فيها سَمِع صوتًا عاليًا وحادًا: «تظن أن هذا المكان قذر، أَهو أقذر من مسلخ مصنع اللحوم؟» تلفَّت جين تشياو حوله وقد بدا عليه الارتباك والحيرة، وكانت تلك الأصوات العجيبة تباغته مؤخرًا، أو أنها ليست أصواتًا مُتَخَيلة، بل صوت فؤاده يحاوره. ويراوده إحساس بأن هذه الأصوات ترافقه كظله بوقاحة يومًا بعد يوم، ساعيةً إلى السخرية منه، والاستهزاء به حتى إهانته، وساعيةً بشراسة إلى تدمير ثقته بنفسه واحترامه لذاتِه لأقصى درجة، وقد بث هذا الرعبَ في نفسه. «اذهب، لا تبق في هذه الأماكن القذرة، اذهب إلى الأماكن الجميلة النظيفة التي يجب أن تذهب إليها».

بدأت أذنه تمتلئ بتلك الأصوات المزعجة، وفي الوقت ذاته وقع نظره على سربٍ من الذباب يطير من نافذة قاعة انتظار القطار، بقع سوداء تحلق بشكل عشوائي، كمثل المسافرين المندفعين في الميدان. وتعجب من قدرته على تمييز الذباب في نور الغروب الخافت، لعل هذا مرجعه إلى عمله عدة أيام في المصنع واعتيادِهِ لحم الخنزير والذباب. «أَهذا الذباب الأزرق؟» تذكر فجأة ما أخبره به العمال الكبار في المسلخ عن أن هذا الذباب يتغذى فقط على جثث الحيوانات النافقة، ولا يقترب من الحَمَّامات، ولا يحوم حول القمامة، لا يتغذى إلا على اللحوم. «أَهذا الذباب الأزرق؟» كان جين تشياو يهمهم محدقًا إلى الذباب، وبدت ابتسامته لعوبًا للغاية.

عبر الذباب ناحية النافورة المقابلة وكاد يلامس خديه، وأدرك جين تشياو أن هذا المكان قذر حقًّا، ما دام الذباب قد بلغَه، فلا بد له من الرحيل. وكان قد ابتعد بضع خطوات بالفعل، ولكنه التفت بوجهه، واكتشف فجأة أن سرب الذباب هذا يطيرُ من حقيبة جلدية. وكانت تلك الحقيبة غارقة في أوساخ وقاذورات تشبه الحقيبة التي سحبها شيوي كي شيانغ في ذاك اليوم. وخَمَّن أن شخصًا ما طائشًا مسرعًا نسيها هنا، قطب جين تشياو حاجبيه وحدّث نفسه: «الذباب الأزرق بالفعل»، وهو يمقت هذه الحقيبة وهذا

الذباب، ولكن ولا ندري لماذا دفعته رغبة ملحة في التأكد من أن الحقيبة بها لحم خنزير أم لا. وبعد مرور عدة ثوانٍ من التردد اتجه ناحية الحقيبة وفتحها، ليجد كومة من أمعاء خنزير ورأسًا، قفز جين تشياو صارخًا، وتأكد تمامًا في تلك اللحظة من أن هذه الحقيبة قادمة من المصنع، لا، هذه الحقيبة التي كان يسحبها شيوي كي شيانغ. رأس خنزير، كومة أمعاء وأشياء أخرى، الرب يعلم لماذا تبعته إلى محطة القطار!

ذلك الشخص الذي كان يبدو موظفًا كان بالفعل موظفًا.

طلبت منه مي جون أن يناديه العم قو كما تناديه، وبدأت في إعطائه النصائح: «حين تقابله لا تتحدث كثيرًا، ولا تثرثر متصنعًا الخبرة والدراية، ولا تتفاخر بثقافتك» ونصحته أيضًا: «تظاهر بحسن السلوك والصدق، فهم يحبون الأشخاص الصادقين المهذبين» عقَّب جين تشياو قائلًا: «هيه، ألا يعاني الأشخاص الصادقون؟ مضحك جدًا هذه المنطق» وأراد أن يضيف شيئًا ما، ولكن نظرة إلى تعابير وجهها جعلته يلوذ بالصمت. ولم تكن لديه الجرأة على تثبيط حماستها لمساعدته، وقد أعطته مي جون إنذرًا أخيرًا، إن لم يطعها، فلن تهتم لشؤونه بعد ذلك.

وكان جليًا أن العم قو يستلطف مي جون، وحينما كان يسألها عن أحوالها بمحبة ولطف، كان جين تشياو يتفرج بلا اهتمام على هذا المنزل الضخم الذي يملكه، حيث كانت الأرضية، والأثاث، وحتى القبعة والمعطف المعلقان على المشجب توحي بمظاهر التحفظ والعملية، وكان دهان الحائط الأزرق الفاتح عتيقًا قديمًا كصاحب المنزل، وانتبه جين تشياو بسرعة إلى خارطة قديمة معلقة على الحائط، خارطة تعود إلى عام 1973، اتجه ناحيتها وهتف: «كشمير، أين موقعها؟» كانت إصبعه تتحرك على ورق الخارطة الهش وقال: «إن الخط المرسوم خاطئ».

اتجهت مي جون ناحيته لترى الخارطة، ولكن في الحقيقة لتدوس على قدمه، وكانت نظرتها وقدمها تعبِّر عن استنكار لإهمال جين تشياو. عاد جين تشياو بخجل إلى كرسيه، وجلس باعتدال، وعدل رأسه في اتجاه العم قو بزاوية 30 درجة، كانت هذه أنسب جلسة مهذبة للمحادثات، ولكنه تذكر نصائح مي جون، يجب أن تبدي التواضعَ أمامَه، ولهذا انكمش عنقه وقال: «العم قو، حضرتك...». وكان يشعر بأن العم قو ينتظر باهتمام أن يتحدث، واقترب رأسه الأشيب منه، فشم جين تشياو رائحة ثوم تنبعث من أنفاسه القوية. «العم قو، حضرتك...». كان يود القول إن حضرتك تحب أكل الثوم، الثوم مفيد، يقي من الأمراض والسرطان، ولكنه أحس بنظرات جون مي الحادة، وهو ما سبب له ضغطًا، كانت تجبره على اختيار كلمات منمقة لبدء حديثه.

«العم قو، حضرتك، تشبه كاكويه تاناكا كثيرًا» فجأة أصبح ذهنه فارغًا، ووسط هذا الفراغ كانت الفكرة الوحيدة هي هذا الاسم.

«كاكويه مَن؟ تقول أشبه مَن؟» سأل العم قو مبتسمًا.

أجاب جين تشياو: «كاكويه تاناكا رئيس وزراء زار الصين عام 1972، إنه أحد السياسيين الذين أحبهم».

«ما جنسيته؟» ثم نهض العم قو، وبدا كأنه تذكر أمرًا ما، فمضى يجول بنظره، ويقول بصيغة اعتذارية: «لقد كبرت في السن، ولم يعد ذهني نشطًا، أنسى الكثير من الأشياء».

«إنه رئيس وزراء» نظر جين تشياو باندهاش إلى مي جون، واكتشف أن نظراتها تحمل تحذيرًا وتوبيخًا قاسيًا، ولكنه لم يتمالك نفسه وأكمل بطريقة تقليدية فرضها نوع من الابتذال اللغوي: «لولا كوكاكيه تاناكا، لما كان هناك وجود للعلاقات الصينية اليابانية».

«هو ياباني؟ أنتم الشباب لا تعرفون شيئًا، إن أيدي اليابانيين ملوثة بدماء ملايين الصينيين» قال العم قو.

داست مي جون مرة أخرى بحذائها الأحمر على قدمه، وكأنها تريد أن تؤذيه عن عمد. أوشكت صرخة أن تفلت من جين تشياو، وكان يحدق إليها باستياء، ولكنها لم تنظر إليه، فقد كانت نظراتها مصوبة نحو رأس الشيخ المترنحة وقالت: «عمَّ تبحث أيها العم قو؟ هل تبحث عن دواء؟ استرح، سأساعدك في البحث عنه»

«ليس دواء، إنها معدتي تؤلمني بعض الشيء، دخلت الحمام عدة مرات اليوم، لِمَ أشعر بأنني أريد الدخول مرة أخرى؟»

ذهب إلى الحمام متعثرًا في خطواته وهو يقول: «اللحم، اللحم، حتى لحوم الخنزير أصبحت ملوثة هي الأخرى، كلها جراثيم، ما إن يتناولها المرء حتى تجن معدته».

لم يبق إلا جين تشياو ومي جون يجلس كل منهما قبالة الآخر، قشرت مي جو برتقالة، وأكلتها دفعة واحدة وقالت: «أحذرك يا جين تشياو، إذا واصلت ثرثرتك وتبجحك، وإذا أفسدت الأمر بنفسك، فلا تشكُ من أنني لم أساعدك». ألقت مي جون قشر البرتقال بقوة في السلة، وقالت: «تذكَّر، حين يعود ادخل في الموضوع على الفور، إنه رجل قديم في مصلحتِكم، إذا التقى بأصحاب المصنع، فلن يجرؤوا على إبقائِك، على الأقل سيطلب منهم تغيير وظيفتك، لتعمل في الدعاية أو اتحاد العمال أو شيء من هذا القبيل».

«أي عمل إلا البقاء مع الخنازير طوال اليوم» قال جين تشياو.

«مَن هُم مثلك لا يليق بهم غير قضاءِ وقتهم مع الخنازير» قالت مي جون.

انبعث صوتُ الماء من الحمام، وشعر جين تشياو بالقلق، ونظر إليها نظرة استجداء وقال: «كيف قُطِع حبل أفكاري؟ كيف أبدأ الحديث؟»

«إنها ليست مشكلة اللحوم» قال العم قو وهو يدخل: «بل مشكلة عدم وضعها تحت المراقبة الصحية، مصانع تعليب اللحوم الآن لا تهتم بالجودة بل بالكمية، وخاصة الأكياس الصغيرة، شكاوى الناس كثيرة، ويجب أن نحل هذه المشكلة. نظر العم قو إلى جين تشياو، ولمعت عينيه فجأة: «لقد ذكرت منذ قليل تقطيع اللحوم، بالنسبة لهذه النقطة، هل يمكن أن ننظر في أمر كفاءة التعقيم أثناء تقطيع اللحم؟»

«لا أعرف» أراد جين تشياو الضحك، ولكنه كتم ضحكته غير المناسبة بيده وأكمل قائلًا: «ليس لي علاقة بمصنع اللحوم» تململ في جلسته بغير ارتياح، ولمح مين جون تغمز له بأن يدخل في لب الموضوع مباشرة. «لا أحب مصنع اللحوم، لا، بل الأنسب أن أقول إنني أكرهه» بلع ريقه بصعوبة، ورأى مي جون ترفع رأسها متنهدة، وهذا يعني أنها تعارض طريقته في فتح الموضوع. ولكن مشهد الدماء الوردية في ورشة المسلخ كان قد لاح أمامه بوضوح، حتى إنه شم الرائحة الزنخة الحارة التي تنبعث من الخنازير ومن أمعائها، بل وأحس بطعم الدهن ولطخات الدماء تسد حلقه، في تلك اللحظة نسي جين تشياو قواعد اللياقة والحديث كلها، وتحشرجت أنفاسه، ثم بصق في السلة. «أريد أن أتقيأ كل ما نزل في جوفي من لحم خنزير، أكرهه!» نظر جين تشياو بألم إلى العم قو وقال: «أكره مصنع اللحوم، أرجوك ساعدني على مغادرته».

«هذا الرفيق...». سأل العم قو موجهًا نظراته إلى مين جون: «ما له هذا الرفيق مندفع هكذا؟».

ضغطت مي جون على وجهها وكأن ألم أسنان اشتد بها، وتفادت

نظرات العم قو اليقظة المتنبهة ثم قالت: «إن مزاجه سيء اليوم» وتطلعت مي جون حولها بضجر وتابعت: «إنه شخص ذو كفاءة» وبدأ صوتها يزداد ثقة شيئًا فشيئًا: «أيها العم قو أنت لن تهمل شخصًا ذا كفاءة، أليس كذلك؟ لا يجب أن يذبح الخنازير، ساعده، لا تهدر موهبته في مسلخ المصنع».

«لا تريد أن تعمل في المسلخ؟». أدار رأسه ناحية جين تشياو مرة أخرى وأكمل: «تخاف القذارة؟ تخاف التعب؟ تخاف أن تفقد ماء وجهك؟».

وبلا وعي أومأ برأسه موافقًا، ثم أدرك في الحال أن هذا خطأ، فهز رأسه بالنفي، أراد أن يواجه ما حدث بتفسير مقنع، ولكنه رفع عينيه ليرى فخذ خنزير مقددة معلقة خارج النافذة، لونه عبر النافذة يعطي المرء إحساسًا بالفخامة والوفرة، وتركز انتباهه خارج النافذة، فلحم الخنزير ومنتجاته منتشر في كل مكان، ويا لها من عملية شاقة ومضجرة ليتحول خنزير عادي شاحب اللون إلى فخذ مغموس في الصلصة غالي الثمن، يهدر الكثير من الناس حياتهم في هذه العملية المبتذلة، ويشعرون بالرضا تجاهها. اندفع الكلام من فمه: «إنه إهدار حقًّا، وابتذال حقًّا».

«ماذا؟ هل تقصد أن العمل في المسلخ عمل مبتذل؟». تغيرت في التو تعابير وجه العم قو الحنونة إلى نظرات غضب واحتقار وقال: «أيها الرفيق، لا أوافقك على رأيك. دعني أسألك أيها الرفيق هل تأكل لحم الخنزير؟ تأكله؟ إذن جيد، إذا كان تصنيع لحوم الخنزير عملًا مبتذلًا، فهل أكلها أمرٌ راقٍ؟ ثمة عطب ما في تفكيرك أيها الرفيق، إذا فكر الناس مثلك، فلن نجد في سِلال الناس لحمًا».

تلعثم جين تشياو قائلًا: «لم أقصد ذلك». وأدرك أنه لا يقصد هذا بالفعل، وحاول توضيح وجهة نظره من زوايا مختلفة، ولكنه حين يود الحديث كان يُواجَه بحُججه الضعيفة فيلزم الصمت.

«لم يقصد ذلك». في هذه اللحظة شرحت مي جون ما يقصده جين تشياو، وضغطت على ذراعه كأنما خطرت ببالها فكرة لإنقاذ الموقف وتابعت: «إن بشرته حساسة، ما إن يرى الدم حتى يصيب البشرة طفح جلدي». ثم وجهت مي جون كلامها له قائلة: «ارفع كم قمصيك ودع العم قو يرى تلك البثور على ذراعك».

لا يذكر جين تشياو أنه يعاني من طفح جلدي، وارتبك بشدة حينما رفع كم قميصه، وفي الوقت ذاته شك فيما إذا كانت حيلة مي جون لها معنى أم لا. ولحسن حظه لم ينظر العم قو إلى ذراعه، وإلا لشعر جين تشياو بالإهانة.

بعد أن خرجا من منزل العم قو، انخرط الاثنان في مناقشة حامية حول إيجابيات وسلبيات التظاهر بالمرض. هبط الغسق على هذه المدينة وهذا الشارع المحاذيين للماء، واختلط الهواء برائحة عادم السيارات والبطاطا المشوية ورائحة مخلفات المصانع، وانبعث نسيم من النهر، كان نسيم ليلة ربيعية، غمر برومانسية شعر مي جون الطويل ومعطف جين تشياو البيج. وقرب البوابة الشمالية لجسر هوي وِنْ رأى أحدهم الحبيبين يسيران متخبطين بين مشاعر الحب والكراهية، تتشابك أيديهما أحيانًا، ويتهامسان، ولكن فجأة يعلو صوتيهما ويتحدثان بحدة، وتزيح يدٌ يدَ الآخر بقوة.

«أفضل أن أرافق الخنازير كل يوم على أن تلوثي سمعتي، أو تدَّعي أن جسدي ملئ بالبثور ليشفق الناس علي!». وطئ جين تشياو سور الجسر بقدمه، ولوح بيده التي أزاحتها مي جون بعيدًا ناحية النهر وقال: «إن ما أنشده ليس حساسية الجلد، وبالتأكيد ليس البثور، هل تفهمين ما هو حق الحصانة؟ اعتذري لما حدث، وما أريده الآن هو حق حصانة».

«ولأي سبب أمنحك حق حصانة؟ إن لم تصب بالحساسية فكيف سأعفي عنك؟». كانت مي جون تستند على الجهة الأخرى للجسر وتراقب

الماء، ثم ضحكت باستهزاء فجأة وقالت: «ما الفائدة من ثرثرتك المستمرة عن السوق الأوروبية المشتركة والأمم المتحدة؟ ما الفائدة؟ إنك شخص أبله في الحقيقة، كل الأمور التي يعرفها الناس لا تفقه عنها شيئًا، والأمور التي لا يهتم الناس بمعرفتها تصبح خبيرًا فيها».

«حق الحصانة». تجاهل جين تشياو سخريتها، وسار بضع خطوات على الجسر مغمغمًا بشيء ما، ثم فجأة أمسك بها قائلًا: «هيا بنا، لنفكر كيف يمكننا الحصول على حق الحصانة». طوقها بين ذراعيه بشدة، ونزلت من على الجسر بصعوبة، وكان تعنفه بحدة قائلة: «دع عنك هذه النظريات، أقول لك، فيما عدا حساسية الجلد، لا حجة أخرى ستنقذك من العودة إلى المسلخ».

كان نسيم شهر إبريل الليلي يحمل مسحة برودة، ويمكن رؤية العشاق الشباب وتمييزهم من بين أصوات ساكني منطقة البوابة الشمالية وأضواء المصابيح، لكن لم يكن هناك عاشقان أكثر رومانسية من جين تشياو ومي جون، كان الناس دائمًا يُشبِّهون معطفه البيج بمظلة تختبئ تحتها مي جون وتوبخه بشدة، أما جين تشياو فظل كما هو، يده تفتح معطفه، حتى تختبئ مي جون وتتحدث بحريتها وتنفِّس عما تريده، وحتى يمنع نظرات الناس الفضولية التي تفتقر إلى الكياسة.

المشهد الأكثر صخبًا وحيوية في الصباح الباكر هو قبل أن يذهب العمال إلى أعمالهم؛ حيث تأتي شاحنات دونغ فينغ محملة بالخنازير السمينة من القرية المجاورة. ويصل إلى المصنع يوميًا عدد كاف من الخنازير، وينصرف العاملون بهدوء إلى عمليات الذبح، والغسيل، والتقطيع والتقسيم، وفيما عدا القليل من الشحوم والذيول التي تُلقى على الأرض بعد أن تستخدمها العاملات كسلاح ويرمينها على الرجال، فإن ثلاثين بالمئة من اللحم يقطع إلى شرائح وشرائط رقيقة وقطع صغيرة ثم تعبأ في أكياس وتجمَّد، وتسمَّى

أكياس اللحم المغلَّفة. كما توجد ثلاثون بالمئة من اللحم المجمد عبارة عن أفخاذ خنازير وأضلاع كاملة وغيرها، يحب السكان المحليون أن يطلقوا عليها اللحم البارد، أما أربعون في المئة من اللحم فتراه على طاولة الجزار بعد الظهر دافئًا، وهذا أكثر ما تحبه رباتُ البيوت.

أمَّا من النافذة البيضاوية لورشة المسلخ الثانية فيمكنك أن ترى خط إنتاج تصنيع وتعليب لحم الخنزير، وأن ترى مياه قذرة بلون أحمر تغمر الأرضية، وكثيرًا من الأحذية المطاطية السوداء تخوض تلك المياه القذرة بعشوائية، وبالطبع يمكننا رؤية جين تشياو يُنزل فخذ خنزير من خطاف، ويضعه ليختمه بختم أزرق تك...تك، آلة ما أعلى رأسه تصدر هذا الصوت، ويطبع الختم على أفخاذ الخنازير تبعًا لإيقاع هذه الآلة. كان هذا عملًا بسيطًا من الصعب التكهن بصعوبته. نرى العامل جين تشياو يضع كمامة وكاب العمال الأزرق، ولا يظهر منه إلا عينين مضطربتين، وخلفه مروحة ضخمة غير متقنة الصنع تدور مصدرة أزيزًا، لم تنفش شعره النظيف المصفَّف إلى الخلف، لكنها بالتأكيد عكّرت مزاجه الصافي في الربيع.

وأثناء استراحة الغداء عثر جين تشياو على شيوي كي شيانغ أمام مدخل الثلاجات، وما إن رآه جين تشياو حتى تذكر لاو جياو، تذكر صورة رآها له من قبل، كانت عيناه تلمعان وهو يسير صاعدًا درجات سلم تاج محل على ما يبدو. وفكر جين تشياو في ضرورة الحد من هذه التخيلات التي اعتادها، ولا بد أن يفصل شيوي كي شيانغ عن صورة ذلك السياسي الراحل، وإلا فإن الحوار الذي فكَّر فيه الليلة الفائتة سيغدو مستحيلًا.

«سمعت أنك تبحث عني؟». حيَّاه شيوي كي شيانغ أولًا، وتفحصه بنظرة سريعة، ثم مد يده وعدل «كاب» جين تشياو وأكمل قائلًا: «لقد أردت أن تتحدث معي، عظيم». ابتسم شيوي كي شيانغ، ورفع حاجبيه

الكثَّين وحثَّه قائلًا: «فليكن، فيم تود الحديث؟».

«أود الحديث عن عملي، لا، في الحقيقة أود الحديث عن وضعي».

ردّ شيوي كي شيانغ: «الحديث عن العمل أمر عظيم، والحديث عن وضعك أمر حسن كذلك. إن العمال يخشونني بعض الشيء، ولا يحبون تبادل الآراء معي، ويشتمونني سرًا برأس الخنزير». ربت شيوي كي شيانغ فجأة على كتف جين تشياو وأكمل: «هل سمعت تلك الشتيمة؟ في الحقيقة أنا لا أهتم مطلقًا، ولا أهتم أيضًا إن شتموني في وجهي، فأنا على كل حال مدير المصنع، وأنا رأس الخنزير». رفع رأسه وابتسم، ثم اختفت ابتسامته وقال: «ومع ذلك فأنا لا أحب أن يكونوا مُرائين، بل أن يشتموني في وجهي بكل وضوح ويمكنني أن أقول رأيي، الجندي يحب الصراحة والوضوح، أكثر ما يكرهه مَن يُظهر عكس ما يبطن».

«الموافقة جهرًا والمعارضة سرًا الطريقة المعروفة بين الدول الضعيفة والدول العظمى. لا، لا أريد الحديث عن هذه الطرق». هز جين تشياو رأسه، وسمع صوتًا يحذره قائلًا: «لا تجبره على الرحيل». والثرثرة الفارغة ما هي إلا طريقته للتهرب وعدم رغبته في التحدث بالدخول في صلب الموضوع. وأدرك جين تشياو أنه لن يستطيع أن يجري محادثات مائدة مستديرة كما خطط الليلة الفائتة، يجب أن يدخل في صلب الموضوع، ولهذا رفع صوته قائلًا: «أيها العم شيوي، لن أعمل في المسلخ».

«أي طريقة تعني؟ أخبرني، أثق أن رأيك مشوق. ماذا تعني بالضعيفة والعظمى؟ هل تعني كوادر العاملين في المصنع؟».

«لا أيها العم شيوي، قلت إني لستُ راغبًا في العمل في مسلخ المصنع».

«لماذا؟». سكت شيوي كي شيانغ لبضع ثوان، ثم تبدلت ملامحه إلى صرامة جادة كما تخيلها جين تشياو وسأله: «ما أسبابك؟».

ردّ جين تشياو: «إن مجيئي إلى مصنع اللحوم خطأ، وتكليفك لي بالعمل في المسلخ خطأ أكبر. أكره لحم الخنزير، وأكره ذبحها أكثر. لا أحد يحب بيئة العمل في مصنع اللحوم».

فردّ الآخر: «كل عمل يجب أن ينجزه شخصٌ ما، إن لم تعمل أنت، وإن لم أعمل أنا، فمن الأفضل أن نأكل لحم خنزير غير صحي. أليس كذلك يا جين تشياو؟ أخبرني إن كان سببك مقنعًا أم لا؟».

«ربما يوجد سبب محدد». داعبت ذهنه بسرعة خاطفة بضع كلمات منمقة، وفكر أنه لا بد أن يستخدم تلك الكلمات لحماية نفسه، وقال: «إن هذا في الحقيقة له علاقة بحق سيادتي، مثل الدولة تمامًا، كل شخص له حق السيادة». كانت يداه تتحركان أمام شيوي كي شيانغ، وأكمل قائلًا: «ما أحب عمله وما لا أحبه مثل سياسة الدولة الداخلية، من المحظور على دولة أخرى التدخل فيها، وبالإضافةِ إلى ذلك، أنا شخص أحب النظافة بطبيعتي، لا أستطيع العمل في بيئة قذرة كهذه، وما أوده بالفعل هو حق حصانة، أيها العم شيوي، من فضلك امنحنى حق حصانة».

«يقولون إنك مولع بالدبلوماسيين، وأنت جديرٌ بهذه الشهرة». انفجر شيوي كي شيانغ ضاحكًا، ويده تقرص بمرح كتف جين تشياو، ثم توقف فجأة عن الضحك، وسحب اليد وهرش ذقنه، ولوّح بها بقوة ناحية كتفه قائلًا: «إنك شخص ذو موهبة، لكن مصنع اللحم الصغير لا يوجد فيه مكتب للعلاقات الخارجية، فكيف أهيئ لك عملًا؟».

قال جين تشياو: «أيها العم شيوي، من فضلك لا تسخر مني، هذه محادثة رسمية روتينة، يمكن للمحادثات غير الرسمية أن تكون على قدر من البساطة والمرح، لكننا نناقش الأمور في المحادثات الرسمية بجدية وصرامة».

«إنني جادٌ للغاية». تأمله شيوي كي شيانغ بنظرة غريبة، ثم مد يده ناحيته مرة أخرى ليطوي ياقة قميصه وأكمل: «جين تشياو، في الحقيقة نحن شخصان متوافقان»، بدت نبرة صوته صادقة وصائبة، «كنت في شبابي راغبًا في العمل في وزراة الخارجية، هل تعلم من أكثر دبلوماسي أقدِّره؟ إنه لا جياو».

نطقا الاسم تقريبًا في الآن ذاته، فغر جين تشياو فمه مذهولًا غير مصدق لما سمعه، ولم يصدق أيضًا أن السياسي الذي يحبه شيوي كي شيانغ هو لاو جياو. «لا عجب أنك تشبهه تمامًا». قال جين تشياو ضاحكًا، وأحس فجأة بالاسترخاء والراحة، وبخفة، رقص رقصة فالس قصيرة. ولكنه تنبَّه سريعًا إلى أن مزاج شيوي كي شيانغ غير منسجم مع مزاجه، وبدت ابتسامة شيوي كي شيانغ كنجوم تأفل وتتلاشى، وعيناه تلمعان وتحدقان إلى جين تشياو بصرامة، لم يشعر جين تشياو باللطف والتقدير في تلك النظرة، بل على العكس، شعر أنها نظرة احتقار، استخفاف، ونوعٌ من الحقد لا يمكن وصفه.

«تريد أن تترك المسلخ؟».

«نعم، هل أنت موافق؟».

«هل تود ترك المصنع؟».

«نعم». تردد جين تشياو برهة ثم هز رأسه بقوة، وشعر بالتوتر مرة أخرى وقال: «نعم، أود حقًّا أن أترك العمل هنا» أمسك خصلة شعر متهدلة على جبينه وقال: «أخمِّن أنك ستدعني أرحل».

«لا، لن أدعك ترحل». كانت تعابير وجهه تتغير وتتبدل باستمرار كذلك الدبلوماسي الراحل، إذ كانت ابتسامة مشرقة تظهر على طرف شفته حين يواجه خصومه. في ذلك اليوم ابتسم شيوي كي شيانغ مثل هذه الابتسامة قائلًا: «هل نسيت ماذا كان يعمل لاو جياو في شبابه؟ تدرب في صيدلية مدة

خمس سنوات، كان بإمكانه بيع الدواء، فلِمَ لا يمكنك ذبح الخنازير؟ لهذا عد الآن إلى المسلخ» نظر شيوي كي شيانغ إلى ساعة يده، ثم لوّح باليد مرة أخرى ناحية كتفه وقال: «عد إلى عملك، جين تشياو، عد إلى خط الإنتاج!».

تخيَّل أننا جئنا إلى العلِّية التي يسكنها جين تشياو ليلًا، تخيَّل أن صاحبته مي جون ليست موجودة أو قد رحلت عنه، وأن مذاق الحب الذي خلقه العاشقان بدده نسيم الليل، وأن باستطاعتنا رؤية جين تشياو يراقب الراديو، نراه مستندًا إلى الجدار نائمًا، نائمًا ولكن شفتيه لا تزالا يقظتَيْن، تكملان الصمت الذي تبع انتهاء البرنامج الإذاعي. وأقسم بعض أصدقائه للآخرين أنه يذيع نشرة أخبار اليوم أثناء نومه.

ثمة شائعة ما تدور حوله، بما فيها القصص الخيالية التي ستأتي فيما بعد والتي تترك المرء في حالة ارتباك بين تصديق وتكذيب، ولكني في الحقيقة سمعت بأذني عن شيء من معاناته.

«أشعر بخيبة الأمل من نفسي. لا تعرفون كم ألقي الكلمة في الحلم بجزالة وفصاحة، اسألوا مي جون إن لم تصدقوني، سمعتني في الحلم أخوض مناقشة حادة وأفحمهم، أمر مذهل، وصفَّقت لي حتى احمرت كفاها. ولكن، ولكن العمل في مصنع اللحوم غيرُ مُرْضٍ». تنهد جين تشياو بحسرة وأكمل: «في المصنع ينقطع حبل أفكاري دائمًا وأتلعثم في الكلام، بمجرَّد أن أتكلم حتى أبدو كأحمق يثير السخرية. في إحدى المرات أُفحمتُ من إحدى عاملات النظافة، كانت تدفع المياه القذرة تجاهي بالممسحة، قلت إلى أين ستدفعين الماء؟ فقالت سأمسح هنا ثم إلى الخارج، فقلت لِمَ تدفعين الماء تجاهي، قالت ولِمَ تقف هنا؟ ألا تستطيع الوقوف هناك؟ هه، في تلك اللحظة ارتبكت، لم أستطع الرد ولزمت الصمت. أشعر حقًّا بخيبة الأمل في نفسي، أكون في مصنع اللحوم كبلادٍ مستعمرة، أكون كحكومات ظل،

لا موقف لي، ولا وجهة نظر، وأشعر في بعض الأحيان أن يدًا تدفعني إلى الثلاجات، ربما تريد أن تحولني إلى قطعة لحم مجمدة؟».

تخيَّله وقد تحول إلى قطعة لحم مجمَّدة، هل سيستطيع أن يذيع نشرة أخبار اليوم ممدًا على طاولة الجزار - لا، لا يطيق أحد هذا التخيل، لا يمكنك إلا أن تتبع عادة جين تشياو وتتخيَّل، تخيَّله حوض نهر الجانج المحاصر بالفيضانات، تخيَّله حرب كمبوديا الأهلية، ثم حسب اللهجة الدولية السائدة، تمنى له أمنية ربيعية طيبة.

كانت عاطفة مي جون كزهرة نجمة الصباح تدفع بجين تشياو خارج أسوار المصنع، وكانت مصرة على إنقاذه من أكوام لحم الخنزير، ولهذا تحول حب هذين العاشقين الربيعي فجأة إلى عُجالة متواصلة وإقناع، حيث رافقته جون مي لمقابلة العديد من الشخصيات المبجلة الثرية أو الشخصيات النافذة، ممسكة يده بيدها الصغيرة الرطبة، إلى أن خرجا في المطر ووصلا في النهاية إلى مدخل فرقة الأكروبات، رأى جين تشياو شعرها الأسود وقد تبلل بماء المطر؛ وتجمعت على وجهها قطراته، فألقى بالمظلة بكل رقة ليبحث عن منديل ويمسح وجهها، لكن جيب بدلته ليس به منديل، فاحتضنها بشدة، ومسح وجهها بربطة عنقه.

«كفَّ عن هذا!». مدت رأسها وجالت بعينيها في قاعة الاستقبال وهي تبعد ربطة عنقه، وقالت: «هذا ليس وقت العواطف، ابحث أولًا عن العمة مياو واطلب مقابلتها لأمر عاجل، ولا تنسَ أن تأخذ مظلتك!».

غمرته الكآبة فجأة، وتبع مي جون عبر الممر ممسكًا مظلته، وأحس حقيقةً أن علاقته ومي جون أصبحت كزهرة نجمة الصباح توَّاقة إلى تسلق أي سياج. «هل يجب مراعاة الوقت عند التصرف بعاطفة؟». تأمل جين تشياو ظهرها وهي تسير أمامه في رواق فرقة الأكروبات وهتف: «يا نجمة

الصباح، يا نجمة الصباح، سيري على مهل». ولكن مي جون دون أن تبطئ مشيتها قالت له بتبرم: «لستُ في مزاج لدعاباتك، فكِّر ماذا ستقول للعمة مياو، إن لم تتعاون معي، فلن أهتم بشؤونك مجددًا!».

كانت العمة مياو ممثلة ذائعة الصيت في فرقة الأكروبات، ويذكر جين تشياو أنه رأى في صغره عرض شقلبة الجرة بالقدمين الذي أدته، ويذكر أن تلك الممثلة كان لها وجه حسن بيضاوي تتجمع عليه حبات العرق، ويذكر على وجه التحديد هاتين القدمين في الحذاء المطرز الأحمر، وبسبب براعتها وإتقانها وتحكمها في الإمساك بالجرة والسجادة وحتى المظلة، كانت تعطي المرء انطباعًا خادعًا عن حركة اليدين والقدمين. ويذكر جين تشياو بشكل مبهم أنها صافحت أحد رؤساء فيتنام الذين زاروا الصين من قبل، أو ربما رئيس لاوس أو كمبوديا؟ لا يذكر جين تشياو كم كان عمره حينها، لكنه يذكر أن الضيف بعد مصافحته لـ مياو، ملأه الإعجاب وقرفص ولمس قدميها البارعتين. وفكَّر جين تشياو أنه يجب عليه أن يشيد بمهارة وبراعة قدميها أولًا قبل أن يحدثها في أي شيء.

كانت مجموعة من الشباب والشابات أوشكت على الانتهاء من البروفات على حركة العجلة في قاعة التدريب، وكانت العمة مياو تهتف بالإشارة الأخيرة وتتجه ناحية الباب، وبنظرة واحدة أدرك جين تشياو أن هيئتها والصورة المرسومة في خياله عن تلك الممثلة ليس بينهما أدنى علاقة؛ امرأة متوسطة العمر بدينة، تلف خصرها بحزام جلدي عريض، ترتدي بنطلونًا أبيض واسعًا يجرجر على الأرض، وبدت في هيبة وجلال، من ثم وبلا شعور حدق جين تشياو إلى قدميها حيث كانت ترتدي حذاء أسود بسيطًا حافته الخلفية مطوية.

«أهذا أنت؟». كانت العمة مياو بلا شك امرأة مرحة صادقة في كلامها،

وكانت نظراتها تتفحص هيئة جين تشياو، ثم قالت: «إنك تشبه شياو سونغ»، ثم ضحكت وأكملت: «حتى لو تمرنت فلا أضمن لك أن تلتحق بفصله».

«نعم هذا هو». شدت مي جون على يدها بحرارة، وغمزت لجين تشياو وقالت: «هذا هو جين تشياو، يحب الأكروبات من صغره، اختبريه كما تشائين أيتها العمة». «اختبريني كما تريدين، أجيد الشقلبة، والشقلبة الجانبية باليد، وبعض حركات السحر». نظر جين تشياو بارتباك إلى مجموعة الشباب والشابات في قاعة التمرين، وقال وهو يخلع جاكيت البدلة الرطب ويكمل شرحه: «لن أكون بمهارة هؤلاء، لكن على كل حال، سأؤدي أمامك حركة شقلبة».

«لا داعي للشقلبة». أوقفته العمة مياو وقالت: «أخبرتني مي جون أنك تجيد فن الكلام من البطن[1]، سأدع شخصًا يبحث عن ميكروفون ودعني أرى مهارتك».

«فن الكلام من البطن؟ أي فن كلام؟». نظر جين تشياو ببرود إلى مي جون، ولم يدرِ لماذا رشحته للعمة مياو.

«ما لك مرتبك؟ ألا تجيد تقليد أصوات الطيور والقطار؟». استدارت مي جون ناحية العمة مياو وأكملت: «إن جين تشياو شخص استثنائي وماهر، ويجيد تقليد الآخرين، أليس تقليد البشر أصعب من تقليد أصوات الحيوانات والقطار وغيرها؟».

«أنا أقلد طريقة الدبلوماسيين في الحديث وإلقاء التحية، ليس أمرًا خارقًا للعادة»، قال جين تشياو.

---

1. هو العمل أو العرض المسرحي الذي يقوم فيه الشخص (المتكلم من بطنه) بتغيير صوته بحيث يبدو أنه صوت قادم من مكان آخر، كما هو الحال مع صوت الأراجوز الذي يحرك دمية وكأنها تتحدث.

«هذا تقليد، وليس فن الكلام البطني»، قالت العمة مياو.

«كله كلام، هل تقليد أصوات الأشخاص أكثر متعة من تقليد أصوات الحيوانات؟» قالت مي جون.

«لا، لا يجب أن يتعلم تقليد أصوات الأشخاص، بل أصوات الطيور، والدجاج، والكلاب، وليس طيرًا واحدًا أو دجاجة أو كلبًا، بل سرب طيور وسرب دجاجات وقطيع كلاب، هذا ما يسمى بفن الكلام من البطن. إن ممثل فرقتنا شياو سونغ في إجازة مرضية، ونبحثُ عن شخصٍ يؤدي العرضَ بدلًا منه». أنهت العمة مياو حديثها بسرعة، ثم نادت أحد الممثلين في قاعة التمرين: «شياو وانغ، جهز الميكروفون».

«من فضلك انتظري قليلًا». أشار لها جين تشياو بأن تتمهل بعض الشيء ولا تستعجل، وقال لها محاولًا أن يبدو هادئًا: «أعلم أن فن الكلام من البطن يعتمد بشكل كبير على الميكروفون، ولكن لا أفهم لماذا علي أن أقلد أصوات الحيوانات والقطار والبواخر؟».

«بالطبع يمكنك أن تتعلم غناء الاستعراض العسكري أو اجتماعًا نقديًا، ولكن هذا عالي المستوى، وأخمن أنك لا تجيده، لذلك لا يجب عليك إلا أن تقلد صوت حيوان واحد، ثم صوت صفارة قطار يدخل المحطة، ودعني أسمع صوتك ومهارتك». تردد جين تشياو برهة، ثم اعتمد على خياله وقلَّد صوت قطار يصل المحطة، صوت الصفارة، صوت الفرامل، وانطلاق البخار من فوَّهة العادم، لكنه شعر بأن لسانه وحنجرته أصابهما التشنج من فرط استخدامهما، وانتظر رد فعل المستمعين، ولكن العمة مياو ومي جون لم تبدُيا أي ردة فعل. وسمع العمة مياو تسعل ثم قالت: «يبدو أنني لم أسمع صوت وصول القطار إلى المحطة».

«هناك الحيوانات أيضًا». كانت مي جون تذكره: «جين تشياو قلد سرب عصافير تغرد فوق الشجرة، أنا واثقة بأنك ستقلدها تمامًا».

«لن أقلد العصافير»، قال جين تشياو بكآبة وهو يدلك حلقه.

«قلد صياح الديك إذن، قلد الديوك التي تتناحر في القرية، صياحها الذي يعلو وينخفض».

«لن أقلد الديوك»، أشاح بيده قائلًا.

«ماذا تريد أن تقلد إذن؟». رفعت مي جون حاجبيها الجميلين بغضب وقالت: «قلد نباح الكلب إذن، إنك تتقنه تمامًا».

التفت جين تشياو فجأة ونظر إليها بغضب، وكانت وجنتاه المشتعلتان وابتسامته الساخرة دليلًا على تعرضه للإساءة البالغة. وبعد فترة صمت مربكة، استعاد جين تشياو أسلوبه الخاص، وأعاد الميكروفون للعمة مياو وقال: «هذا سوء فهم. لكن كان لي شرف مقابلتك، لقد تركت قدماك لدي انطباعًا مدهشًا ورائعًا».

خرج جين تشياو بمفرده من باب فرقة الأكروبات، وكان المطر قد توقف في الخارج، وبدا الربيع في شارع بوشي أكثر انتعاشًا ورطبًا، فتح جين تشياو فمه واسعًا وعبَّ رائحة الجو بعد المطر، وكان لا يزال يفكر في العلاقة بين فن الكلام من البطن ونباح الكلب وكرامة المرء، أو أن مي جون تعتقد أن تقليد نباح الكلب ما هو إلا غاية لتغيير عمله؟ بالضبط كهؤلاء الأشخاص الطيبين المتحمسين الذين يسعون إلى إثبات كفاءتهم، متجاهلين ببساطة احترامهم لذواتهم وسط هذا. ما هو الأهم من احترام النفس؟ كان جين تشياو راضيًا عن تصرفه، ودار بحذر حول بركة ماء صغيرة، ورأى ظله المنعكس وقد بدا وسيمًا مهندمًا، وفكر جين تشياو أن كل هذا من

أجل أن يحمي احترامه لذاته، أي شخص نبيل ذو كبرياء، يبدو ظله أكثر متانة وأصلب عودًا، وأي شخص بائس حقير المظهر، يبدو ظله كفأر يعبر الطريق. وأخمِّنُ أن هذه الكلمات الحكيمة من مذكرات لاو جياو.

سار جين تشياو بضع خطوات، ثم شعر فجأة أنه نسي شيئًا ما. «المظلة؟ لا ليست المظلة، بل مي جون، يد مي جون الصغيرة الدافئة. كيف تركتها وغادرت بمفردي؟ هذه فظاظة ووقاحة» خبط جين تشياو على جبينه مؤنبًا نفسه. وحين التفت عائدًا رأى مي جون مندفعة من باب فرقة الأكروبات، موجهة المظلة ناحيته، وتصرخ قائلة: «جين تشياو، يا لك من أبله، لا تبحث عني أبدًا، لا مكان لك سوى مصنع اللحوم، لا تبحث عني، لا مكان لك سوى وسط الخنازير!».

بدا مَن فقد حبيبه في الربيع حين تغرد الطيور ويصبح الهواءُ مفعمًا برائحة الزهور خاملًا بائسًا، حتى جين تشياو لم يفلت من هذا الإحساس. في شهر إبريل جاءت إلى مدينتنا فرقة باليه لتؤدي عرضًا، وتهافت متذوقو الفن الرفيع على حضور العرض. في فترة الراحة بعد عرض (كسارة البندق)، رأيتُ جين تشياو بمفرده مطرقًا رأسه يخرج من المسرح، حينها لم أكن أعلم أمر انفصاله عن مي جون، سألته لِمَ لم تأتِ مي جون، فرفع كتفه مثل الأجانب، وأراني التذكرتين في يده، واحدة مقطوعة، والثانية كاملة، كانت هذه إجابته. قلت: «العرض رائع، لِمَ خرجت في منتصفه؟». ابتسم بمرارة ومد أصابعه الخمسة أمام عينيه ومضى يؤرجحها، لا أفهم هذه الحركة، قلتُ: «ماذا بك بالضبط؟». بدا عليه الإحراج وقال: «لست في مزاجٍ جيد، ترادوني تخيلات حين أرى أي شيء. هؤلاء الممثلون لا يجب أن يرتدوا تلك البناطيل الضيقة الشفافة، كما أنهم يؤدون دائمًا الدروان بقدم واحدة، يذكرونني بورشة المسلخ، وأفخاذ الخنزير المرصوصة على خط الإنتاج».

وأصبح جين تشياو كظل يلاحق شيوي كي شيانغ.

كثير من الناس كانوا يلاحقون شيوي كي شيانغ كالظل في مصنع دونغ فينغ، عاملة سمينة تتبعه من حجرة المكتب وطوال الطريق معترضة على أن مرتبها ينقص عن بقية العاملين بعشرة يوان، عامل مسلخ شابت سوالفه في يده رزمة من فواتير المستشفى، يمسك بطرف ملابس شيوي كي شيانغ قائلًا: «هذه ليست أغذية، بل دواء، دواء! لم توافق على إعطائي أي تعويض، ولعلك تريد أن أذهب إلى الطبيب على حسابي؟». كان جين تشياو يراقب عن كثب طريق شيوي كي شيانغ في حل تلك الأمور، واكتشف أنه مرن في حل المشاكل، ملوحًا بيده اليمنى بقوة ناحية كتفه: «اذهب إلى العم جاو، اذهب إلى العيادة». وخطر ببال جين تشياو أن هذه إحدى طرق لعب كرة القدم، إحدى طرق الإدارة، حتى في الشؤون الدولية، تتقاذف الدول العظمى الدول الصغيرة الفقيرة كالكرة حين تود تنفيذ مهام مساعدتها.

لا يريد جين تشياو أن يتقاذفه شيوي كي شيانغ كالكرة. وكان ينتظر الفرصة السانحة لكي يواجهه بالأمر، ويتمنى لو يختار مكانًا هادئًا موقعًا للمواجهة، ولكن من الصعب أن يجد بيئة كهذه في مصنع اللحوم. وفي مغيب أحد الأيام حيث تتراكم السحب كجمرات في الأفق البعيد، عثر جين تشياو على زقاق صغير خارج المصنع واحتجز دراجة شيوي كي شيانغ. وفي الزقاق مخلفات أجزاء معدات مصنع قريب من مصنع تعليب اللحوم، ورماد فحم ومخلفات بناء، لم يَرُقه أن يتحدث معه في هذا المكان، ولكن مشهد شمس الغروب الغارقة ألهمه فجأة، وفكَّر أن من الأفضل أن يحل المشكلة حلًا حاسمًا، أفضل من أن يضيِّعَ وقته في المصنع كل يوم، أَحتجزه، وأُخبره، أنه لا بد أن يتركني وشأني.

«يجب أن تتركني وشأني». وقف جين تشياو أمام دراجة شيوي كي

شيانغ، وبخفة مد يده تحت المقعد وأوصد الدراجة. «يجب أن تتركني وشأني». كان يؤرجح المفاتيح أمامه ولهجته بها نوع من استعراض القوة: «إن لم تتركني وشأني، لن أتركك وشأنك».

ذُهل شيوي كي شيانغ، ولكن بعد ثوانٍ معدودة انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة: «هل تستولي على المفاتيح؟ وكأنني أرى بلطجيًا. جين تشياو، هذه ليست أخلاقك، هذا لا يناسب الأصول الدبلوماسية».

«لا، حين يتعدى أحدهم على حق غيره، يجب أن يعطيه الطرف الآخر تحذيرًا، وإشارة إلى قيامه بهجوم معاكس».

«تحذيرًا بماذا؟ وإشارة لماذا؟ كيف تريد أن ترد الهجوم؟».

«ليس لديك الحق في إبقائي في مصنع اللحوم. لقد قدمت لك استقالتي، يمكنك أن تعتمدها، أو يمكنك ألا تعتمدها، لكن ليس لديك الحق أن تضعها في الدرج وتتغاضى عنها».

«طيب، سأخبرك، أنا لم أعتمدها، ودعني أخبرك كذلك، أنا شيوي كي شيانغ لا أخاف التحذيرات، ولا أعير الإشارات والتلميحات أدنى اهتمام» كانت الصرامة الشديدة تبدو على ملامحه، ثم مد يده فجأة باتجاه جين تشياو وقال: «لقد حصلتَ على إجابة واضحة، الآن أعطني المفتاح».

«لا، لم تعطني سبب عدم اعتمادك استقالتي». تجنب جين تشياو نظرات الاستهجان والاحتقار في عيني شيوي كي شيانغ، وتفادى يده التي تحاول أخذ المفتاح، وشعر فجأة أنه هوجم هجمة وضعته في أدنى موقف سلبي، وهذا أثار في نفسه الألم الشديد. أراد أن يدفع بالخلاف إلى ذورته، وكان لا بد أن يتشبث بموقفه، ولهذا تحمل الخزي الذي يشعر به، وهز المفاتيح أمام شيوي كي شيانغ: «ها ما السبب؟» قال جين تشياو، «ليس توضيح موقفك

الشخصي ما أود سماعه، بل أسبابك أنت».

«كان لدي العديد من الأسباب، ولكن الآن لم يبقَ إلا سببٌ واحد» كانت نظراته مصوبة ناحية جين تشياو وتابع قائلًا: « طَمَوحٌ بما يتجاوز الحد، ذو كلام منمق ومتحذلق، اللذة والمتعة غاية قصوى، تخشى الكد والقذارة، هذه مشكلة جيلكم» نظَّف شيوي كي شيانغ حنجرته وأكمل: «أما أنت يا جين تشياو، فتزيد عنهم بعادة سيئة، تستولي على المفاتيح؟ تتصرف بطيش؟ هذه حيل البلطجية الخسيسين، في وسعي مسامحتك، ولكني لن أتنازل وأقبل التسوية، هل تفهمني؟ لن أقبل التسوية مع بلطجي خسيس».

سوء استخدام السلطة. خطرت في باله تلك الكلمة للتو. أراد جين تشياو أن يوضح له أن سببه نابع من سوء استخدام السلطة، ولكن نظراته كانت مصوبة على مفاتيح الدراجة، تلك المفاتيح التي أتاحت الفرصة لشيوي كي شيانغ لأن تكون له السطوة، إلى أن أفاق جين تشياو وأدرك أن استحواذه على مفاتيح شيوي كي شيانغ سيؤدي به إلى نتيجة مدمرة، فرمى المفاتيح وكأنه تعرض إلى لسع ماء ساخن، ورآها تسقط أمام قدمي شيوي كي شيانغ، فخفض الأخير رأسه، لكنه لم يلتقط المفاتيح، بل أطلق شخرة.

لم يلتقط شيوي كي شيانغ مفاتيح دراجته، وهو ما ذكّر جين تشياو بالدبلوماسي الراحل لاو جياو حين كان في جنيف ذات سنة، ورفض أن يصافح ممثل إحدى الدول المعادية. شعر جين تشياو بوطأة الأمر. «هذا الشخص بالتأكيد يتمتع بأسلوب لا جياو». ثم شاهد شيوي كي شيانغ يسير بخطوات وئيدة إلى نهاية الزقاق، أراد أن يناديه، ولكن صوتًا ما خاطبه: «جين تشياو، لقد خسرت، لِمَ أخذت مفاتيح دراجته؟».

أصبح ذلك الزقاق الصغير فيما بعد منطقة خطر كامنة في ذاكرة جين تشياو، وكان قد جهز محادثات جادة للمواجهة ذلك اليوم، أراد أن يجد

مفتاحًا ليدخل قلب شيوي كي شيانغ، ولم يكن ذلك مفتاح دراجته بالطبع. كان جين تشياو تجول وقت المغيب ذهابًا وإيابًا ممسكًا بالمفتاح كمجرم يحمل دليل اتهامه.

رآه العديد من الناس يحمل هذا المفتاح، مفتاح من النحاس ومفتاحان من الألومينيوم، المفتاح الأول للدراجة، وبدا من شكل المفتاحين الآخرين أنهما لصندوق معدات. رآه العديد من الناس يحمل المفتاح ويبحث عن شيوي كي شيانغ، ومن ثم سأل أحدهم: «هل رأى أحدكم العم شيوي؟ لقد فقد هذا المفتاح»، فردّ بلهجة العارف: «هل ضاع منه أم أخذته أنت؟». وتمنى جين تشياو لو تنشق الأرض وتبتلعه ليخفي عاره. وفي نهاية الأمر، عثر عليه في غرفة الاجتماعات حيث كان يعقد اجتماعًا مع الكوادر متوسطة المستوى، شقّ طريقه بين الجمع حتى وصل أمامه، وهز المفاتيح أمامه قائلًا: «أعتذر عما بدر مني بالأمس، دراجتك في موقف العربات».

لم يتوقع جين تشياو الابتسامة العريضة على وجه شيوي كي شيانغ الذي ربت بحرارة على كتفه وقال: «لدي مفتاح آخر، احتفظ بهذه المفاتيح كتذكار».

«لا، لا أريد» ردّ جين تشياو على الفور.

«لماذا؟ ألا تذكر الهدية التي قدمها لاو جياو لوزيرة الخارجية الأمريكية؟ ألم تكن مجموعة مفاتيح؟ احتفظ بها، الهدية الفريدة لها معنى خاص»، ردَّ شيوي كي شيانغ.

أدرك جين تشياو حينها أن هذه الهدية تضمر نية سيئة، أراد أن يرفضها، لكن الآذان كثيرة في غرفة الاجتماعات، ولم يكن راغبًا في أن يتجادل معه، والأمر الأهم أن جين تشياو اعتبر هذه الهدية تحديًا، واختبارًا، وإن رفضها

سيكون تصرفه دليلًا على ضعفه. يريد شيوي كي شيانغ أن أتحمل نتيجة أفعالي. فيما بعد، أخبر جين تشياو أصدقاءه: «لا يهم، أنا قادر على مواجهة أخطائي. لكن إن ظن شيوي كاي شيانغ أنه سيهزمني، فهو مخطئ تمامًا، أترون، إن منافستنا تزداد إثارةً يومًا بعد يوم». ونصحه أحد أصدقائه متخذًا دور المصلح: «هل لا بد لك أن تنافس ثعلبًا ماكرًا عجوزًا؟ لقد قدّمت استقالتك، إن اعتمدها ارحل، وإن لم يعتمدها يمكنك الرحيل أيضًا». قطع جين تشياو حديث صاحبه قائلًا: «أنا أعرف أن باستطاعتي الرحيل، لكن هل سيكون رحيلي معبرًا عن الحفاظ على كرامتي أم لا، هل سأكون سعيدًا أم لا، هذا له علاقة باحترامي لنفسي، كما أنني أعتبر هذا الأمر حربًا، هل تفهمون ما هي الحرب؟ الحرب ليست هروبًا، بل مواجهة مستمرة، ويجب أن يكون هناك منتصر وخاسر، أما أنا، فأريد أن أكون الفائز الأول».

أريد أن أخبر جميع المهتمين بقصة جين تشياو، أنه ليس شخصًا عصبيًا قنوطًا، ترى وجهه الشاحب مفعمًا بالحكمة حين يسترسل في كلامه عن فكرة ما، وحتى إن لم تفهم ما هو معنى الانتصار الذي يتحدث عنه، لكن لا بد أن تثق بأنه ليس إمَّعة.

يكون إنتاج وتعليب لحم الخنازير في ذورته في شهر مايو: تك تك، تضع ذراع الآلة نصف خنزير طازج ونظيف، تك تك تك، تمسك ذراع الآلة نصف خنزير طازج ونظيف مختوم بختم أزرق. وكان سربٌ من الذباب الأزرق يدور داخل المسلخ، وحين تتفحص ذلك الذباب المرح بتركيز، ستلاحظ أن لديه بطنًا منتفخًا سمينًا وجناحين ملونين.

غفا جين تشياو أثناء مراقبته الذباب، معاناته مع الأرق لعدة أيام جعلته مُتعبًا شاردًا، صوت الذباب يطن في أذنه، يعلم أنه ذباب، لكن ذلك الطنين لم يمنع تخيله لطائرة ترايندت تعبر قارتي أوروبا وآسيا، وتتجه إلى جنيف،

بروكسل، وأمستردام. نام جين تشياو، وحلم أنه يجلس بين وجوه مألوفة بعض الشيء، قادة من أمريكا، بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، واليابان وغيرها من الدول، حتى إنه كان هناك رئيس دولة صغيرة مخلوع، فكر جين تشياو كيف لكل هؤلاء الناس أن يجلسوا مجتمعين في طائرة واحدة، لا بد أن لكل منهم طائرة خاصة، رغب جين تشياو في أن يشاركهم الحديث، ولكن كان مع كلٍّ منهم رفيق، فلم يستطع مشاركتهم ولو بكلمة. سمع الشخص الجالس إلى جانبه يبدي رأيه عن الوضع في الجولان، ورغب بشدة أن يبدي رأيه هو الآخر، ولكن على ارتفاع ثمانية آلاف متر اختفى صوته بسببٍ ما يصعبُ تعليله، وفي ذروة انفعاله رفع ذراعه اليمنى راغبًا في إبداء رأيه، فجاءت مضيفة شقراء ذات عينين زرقاوين وسألته: «بِمَ أساعدك أيها السيد؟ قهوة أم شاي أحمر؟». وأخطأت المضيفة فهمه بلا شك. فردّ: «أريد أن أبدي رأيي»، ولوح بيده اليمنى ناحية كتفه بغضب، ظنًا منه أن المضيفة ستفهم حركة يده، ثم رآها آتية بطبق بسرعة ناحيته، يبدو الشيء في الطبق من بعيد كالجبنة، لكنه في الحقيقة مجموعة أوراق سميكة، أمسك جين تشياو الطبق ليكتشف بذهول أنه خطة موسكو لهذه السنة لنزع السلاح.

استيقظ جين تشياو وعلى وجهه ابتسامة غامضة، لكنه اكتشف أن شخصًا أيقظه، ولم يكن كوعه مستندًا على أوراق غامضة، بل على لحم خنزير مدهن دافئ.

أيقظه شاعر هاو يعمل في المسلخ، كان يصرخ في أذنه بشراسة: «لا تنم، رأس الخنزير قادم». فرك جين تشياو عينيه والتفت ورأى شيوي كي شيانغ يعبر بسرعة ويختفي.

«لِمَ لمْ يدخل؟». تساءل جين تشياو.

«لا يدخل مطلقًا، يريد أن يرينا أنه في المصنع فقط، عبوره بشكل خاطف

كافٍ. رأس الخنزير، أكره رأس الخنزير»، قال الشاعر الهاوي.

«هل يمقته جميع العاملين في المصنع؟».

«ليس إلى حد المقت، بل لا أوده فقط، فهو يراقبك طوال اليوم، يراقبك حتى لا تستطيع أن تأخذ أنفاسك».

«يبدو أنكم تخافونه بعض الشيء؟».

«ليس لدرجة الخوف، إن طبعه جيد جدًا في الحقيقة، في إحدى المرات أشرت إلى أنفه وشتمته برأس الخنزير، خمّن ماذا فعل؟ ضحك وقال أنا رأس خنزير بالفعل».

«هذا انبطاع خاطئ. القائد الحكيم يمكنه دائمًا تحمل الإهانات في سبيل إنجاز مَهَامه»، قال جين تشياو وهو مستغرق في التفكير، ثم أردف: «هذا الشخص رأيه ثابت لا يتزعزع، يجيد استعمال الجزرة والعصا معًا، قوي للغاية، إذا لم تعطه فرصة الهجوم على بيرل هاربر، فلن تستطيع الإنزال في نورماندي».

«ما هذا الذي تقوله؟».

«أفكر كيف يمكنني هزيمته».

في ذلك اليوم بعد الانتهاء من العمل ذهب جين تشياو والشاعر الهاوي معًا إلى مصطبة الثلاجات، المصطبة ضخمة جدًا ومكدسٌ عليها الكثير من الكراسي والطاولات التالفة، جلس الاثنان على كرسي عالي الظهر يتأملان شمس شهر مايو الغاربة على مهل من مصنع اللحم، ويتأملا آخر عربة شحن قادمة من بعيد، عربة مفرغة من حمولتها، لم يبقَ فيها غير بقع من الدم على أرضية العربة الخشبية تبدو من بعيد كهالات من العقيق، والمشمع الذي يهتز خفيفًا.

كان الشاعر الهاوي في مزاج لإلقاء الشعر، فألقى على مسامعه قصائد عن الغروب والحب والزهور، ولكن جين تشياو لم يتأثر، بل كان يتصاعد في أذنه شيئًا فشيئًا صوتُ تلك الطائرة المميز، كل من أقدرهم، وأنتقدهم وأحتقرهم على متن هذه الرحلة، أما أنا فمنبوذ على مصطبة ثلاجات مصنع تعليب اللحوم.

فجأة غطى جين تشياو وجهه بيده وصرخ قائلًا: «هلَّا توقفت عن إلقاء هذا الشعر الفارغ الخادع، أخبرني كيف يمكننا أن نرحل عن هذا المكان اللعين؟».

قال الشاعر الهاوي: «الكل يستطيع الرحيل عن هذا المكان، يمكنك أن تتغيب عن العمل، ستفصل إن غبت مدة شهر، أو اذهب إلى المستشفى واطلب إجازة طويلة براتب، يمكنك أن ترحل بطرق كثيرة، لِمَ يزعجك هذا الأمر؟».

«لم يزعجني هذا الأمر؟ أنا شخصيًا حائر». سخر جين تشياو من نفسه ثم تابع حديثه قائلًا: «أعلم أن بإمكاني الرحيل، لكني أود أن يتركني شيوي كي شيانغ وشأني بإرادته، لا أريد أن أحقِّر من نفسي، ولا أريد أن تحل الخسة محل احترامي لذاتي، أريد أن أرحل، لكن لا أود أن أترك أي وصمة تنقص من قدري».

في تلك اللحظة انفجر الشاعر ضاحكًا، وألقى بالكراسي كرسيًا كرسيًا، وركل بقدمه كرسيًا آخر وقال: «مغفل، غبي، أبله، مرتاب، حالم!» كان الشاعر يركل الكراسي ويشتم، وفي كل ركلة يُوخز قلبَ جين تشياو ألمٌ حاد. في النهاية وقف الشاعر إلى جانبه وقال: «إن كان الشعر كلامًا فارغًا ومخادعًا، فهل احترامك لذاتك وكرامتك أمر حقيقي؟» حدق الشاعر في جين تشياو بنظرات يملؤها الوعيد، ثم انفجر قائلًا: «أي احترام للذات، وأي كرامة،

إن هذا كله ليس إلا بول خنازير، إن كان غزيرًا يخاف المرء، وإن لم يكن ثمة بول لن تغدو أنتَ غير قِربة كريهة[1]. ما رأيك؟».

«جين تشياو، ما رأيك؟».

«لا، ليس صحيحًا». كاد جين تشياو يصرخ. أراد أن يمسك يد الشاعر، ولكن الأخير واجهه بنظرات ملؤها الاحتقار، وأوقع عدة كراسي أثناء سيرهما، ثم صعد على السلم المعلَّق، وصرخ في جين تشياو: «جين تشياو، دعني أخبرك كيف ترحل عن هذا المكان، اقتل شيوي كي شيانغ، ثم اقتل نفسك».

ثم هبت رياح، رياح قوية من النادر أن تهب في فصل الربيع، وشعر أنها ستسقطه من على السلم لشدة قوتها، ثم سمع صوت المفاتيح المعلَّقة في حزامه؛ هذا الصوت الموحش والحاد أيقظه من غفلته، نظر إلى المفاتيح الثلاثة، مفاتيح شيوي كي شيانغ، مفتاح من النحاس ومفتاحين من الألومينيوم، إلا أنه كان يعلِّق السلسلة في حزامه وكأن جنيًّا أوحي له بذلك.

يقول الجميع إن مي جون شابة استثنائية طيبة وتراعي شعور الآخرين، حتى بعد انفصالها رسميًا عن جين تشياو في ذلك اليوم، كانت لا تزال تسعى في مصلحته. في المرة الآخيرة التي تقابلا فيها في ميدان محطة القطار كانت قد قصت شعرها للتو، واختار لها مصفف الشعر قصة شعر قصيرة وجميلة جعلها تبدو أكثر حيوية وجاذبية حسبما قال لها الآخرون، وظنت مي جون أن جين تشياو سيعجب بقصة شعرها الجديدة، ولم تتوقع أن يكون رده فجًا ويشير إلى أنها تقلد تسريحة الأميرة ديانا، قال جين تشياو: «يجب ألا نقلد الناس بسهولة، طباع ذوي البشرة الصفراء مختلفة عن ذوي البشرة البيضاء،

1. عبارة بوذية تعني جسد الإنسان

وشكل الوجه والجسم مختلف كذلك، إن أبقت هي على شعرها قصيرًا فليس بالضرورة أن يناسبك، لم يكن عليكِ أن تقصي شعرك، إنما أن تصففيه مثل تشين شيانغ مي، له سحر شرقي».

أخبرتكم من قبل أن مي جون شابة حليمة متسامحة، أحزنتها صراحة جين تشياو، ولكن لم تمر أكثر من دقائق حتى اقتنعت بالعلاقة بين تسريحة الشعر القصيرة وتصفيف الشعر على هيئة كعكة: «نعم، كعكة الشعر لها طلة مميزة، لِمَ لم تخبرني من قبل؟». عاتبته جون مي بعد فوات الأوان، ولكنها واست نفسها: «شعري يطول بسرعة على كل حال، سأنتظر حتى يطول وأصففه على هيئة كعكة».

لم تكن نافورة محطة القطار تعمل، وكانت سماء شهر مايو الزرقاء وظل العاشقين ينعكسان على صفحة المياه الخضراء الراكدة، بالطبع، تتدفق مياه النافورة بفرح في الأعياد، وتكون السماء في شهري يونيو ويوليو أكثر صفاء وزرقة، وبالنسبة لحب العاشقين فقد ذهب مع النسيم، ولم يبقَ غير ورقة أخيرة.

قالت مي جون: «اذهب لزيارة العم قو مرة أخرى. اذهب مرة أخرى وقيم الأمر. لا داعي لأن تقدم هدية، العم قو شخص نزيه وشريف، ولكنه يحب الشاي، اشترِ له أوراق شاي جيدة، إهداء الشاي لا يعتبر هدية، تعرف ذلك».

«أنا لا أفهم، كيف بإمكاني أن أتخطى شيوي كي شيانغ؟ إذا لم يوافق أن أرحل كيف يمكنني الرحيل؟ هذا لا يتوافق والأصول المتبعة»، ردّ جين تشياو.

«من أين لي أن أعرف؟ على كل حال يقولون إن هذا يُسمَّى سحب

الملف، يسحبون ملفك من مصنع تعليب اللحوم وتنتهي علاقتك بهم، ولا داعي أن تذهب وتهدر طاقتك في الحديث مع شيوي كي شيانغ».

«كمثل الطرود التي يعيدها البريد هنا وهناك». هز جين تشياو رأسه وأردف: «لا، لا أوافق أن أكون طردًا يتقاذفه الناس هنا وهناك».

«لا بأس، لا تكن طردًا، كن جزار خنازير محترف» انفجرت مي جون غاضبة، وحين تغضب يكون كلامها حادًا، قالت: «لا ترغب أن تكون طردًا، إذا لم أكن موظفة علاقاتك العامة، وأترجى الناس بكل وقاحة؟ أهذا كل ما أعيش من أجله، إذا مضيت هكذا، أكون، أكون خنزيرة!».

«اهدأي قليلًا، ولا تحقِّري من نفسكِ هكذا، لا أفهم لِمَ يحب الناس مقارنة أنفسهم بالحيوانات» ضغط جين تشياو بيد على كتفها وكأنها يحاول أن يهدئ من غضبها ثم قال: «لا ترفعي صوتك في الشارع، سينظر إليك الناس، إن التصرفات غير المتحضرة تثير نظرات وقحة. اسمعي، لقد وصل القطار رقم 14، لعل رئيس مدغشقر في إحدى عربات النوم، فهو يعود اليوم من شانغهاي إلى بكين، بالتأكيد هو في إحدى عربات هذا القطار».

«إن اهتممت بك مرة أخرى، أكون خنزيرة!» أخرجت منديلًا من حقيبتها المطرزة وغطت فمها، ولم يكن من الصعب ملاحظة أن غضبها تحول إلى شعور بالمهانة وحزن، فالتفتت وانخرطت في نشيج حاد.

أصابه الارتباك والذعر وقال: «لا تبكِي، لا تبكِي» كان يدور حولها، وقد أدت مواساته إلى نتائج عكس المرجوة بسبب ارتباكه: «طيب، سأسمع كلامك، لا يهم إن كنت طردًا مرة واحدة». ربت جين تشياو بحنان على كتفها حتى يهدئ من بكائها وقال: «سأسمع كلامك، وسأذهب إلى منزل العم قو، وأشتري جينًا واحدًا من شاي (بي لوه تشون)، سأذهب حالًا اتفقنا؟».

توقفت مي جون عن البكاء، ورفعت رأسها، ثم شدت المنديل الذي تجعَّد من قبضتها وقالت: «إن اهتممت بشؤونك مرة أخرى، أكون خنزيرة». لم تتوقف عن جذب المنديل، واستعاد صوتها نبرته الهادئة، وعلى الرغم من أنها كانت تكرر الكلام، فإن جين تشياو أحس بشيء من الرفض في حديثها. قالت مي جون: «اسمعني يا جين تشياو، إن اهتممت بشخص مثلك، أكون خنزيرة».

في اللقاء الأخير كانت مشاعرها تجاهه قد تحولت إلى رماد، حتى إنها رمت له بالحقيبة المطرزة. وحين رحلت عنه مي جون بسرعة شاقَّة طريقها عبر سيل الناس في المحطة، أدرك جين تشياو أن قصة الحب الجميلة قد رحلت معها، ولكن سؤالًا واحدًا داهمه وسط شعوره بالألم:

«يمكن للناس أن تسب وتلعن، ولكن لماذا يشبهون أنفسهم بالخنازير؟».

يحب العاملون في المسلخ المقالب، وهم أشخاص اعتادوا القذارة والشحوم، ويستعينون دائمًا بأمعاء الخنازير أو أرجلها في مقالبهم ودعاباتهم، لذلك حين ترى شخصًا ما يُخرج سيجارة من جيبه، فإنه يُخرج معها جزءًا من أمعاء خنزير، أو أذنًا. وكان لدى البعض أفكار مبتكرة أيضًا، مثل الشاعر الهاوي، كان يحب أن يكتب الشعر على ظهور الخنازير حين يأتيه الإلهام، بالطبع كانت أعماله ضعيفة المعنى تفتقر إلى الحس الشعري، ولا سبيلَ لنشرها في الصحف والمجلات. في البداية كان جين تشياو يذهب ويقرأ بعضًا من قصائده، وينقدها، بعدها أصبح يتراخى عن الذهاب، فهو لا يحب هذا النوع من الألعاب، وقد نصح الشاعر من قبل، لا تكتب الشعر على ظهور الخنازير، فأنت تنتهك حرمته.

ومع ذلك، كانت الكلمات تظهر على خنازير المصنع. في أحد الأيام استقبل جين تشياو على خط الإنتاج نصف خنزير مكتوب على ظهره برموز

واضحة جميلة ثلاث كلمات: شيوي كي شيانغ. فمسح الاسم دون تفكير. لكنه لم يتوقع أن الخنزير القادم مكتوب على ظهره اسم شيوي كي شيانغ أيضًا، كانت بلا شك حركة مدبرة. «مَن كتب هذا؟». كرر جين تشياو سؤاله عدة مرات بأعلى صوت، لم يجب أحد، وإن كان كل منهم يحمل على وجهه ابتسامة غامضة، ربما الجميع مشتركون في هذا المقلب الكبير، وجه جين تشياو سؤاله إلى الشاعر: «أنت مَن كتبت هذا؟». تجهم وجه الأخير وقال: «إياك أن تُلفّق لي تهمة، لا أكتب غير الشعر». سمع جين تشياو حوله بعض الضحكات الهامسة، وتساءل عن السبب الذي يجعلهم مستمتعين بمثل هذه الألعاب الدنيئة. ثم أضاف الشاعر: «لم يكتب أحد اسمك، فلم أنت مهتم؟ لتخرج الخنازير من المصنع، وتُعلَّق عند الجزار، ألا تكره شيوي كي شيانغ؟»، فرد جين تشياو بغضب: «هناك أمران، الأول أنني أكره الاعتداء على الناس، والثاني أنني أكره جميع الأساليب الدنيئة الخسيسة».

في ذلك اليوم مسح جين تشياو اسم شيوي كي شيانغ عن لحم الخنازير وهو يغصُّ بالقرف والشعور بالغثيان، ونحن على ثقة بأن جين تشياو فعل ذلك من منطلق طبيعته النبيلة، ولكن عمال المسلخ أساؤوا فهمه، وظنوا أنه يلعق حذاء شيوي كي شيانغ، وهم يكرهون كل من يفعل ذلك، ويعتبرونه شخصًا منبوذًا. ولهذا في اليوم التالي على خط الإنتاج ظهر خنزير كبير الحجم، مكتوب على ظهره اسم جين تشياو وشيوي كي شيانغ، وهو ما أوقعه في دهشة بالغة.

أخبرني شخص أن جين تشياو شحب وجهه حينها، وارتعش جسده أمام إيقاع خط الإنتاج المرح، وأمسك السكين كأنما جُنَّ وقطع قطعة اللحم المكتوب عليها اسمه، ثم هرول إلى خارج المسلخ كالمجنون. بالطبع لم يذهب ليشتكي لشيوي كي شيانغ، كان كمثل حصان مذعور يعدو بجنون إلى خارج المصنع.

الوقت الذي قضاه جين تشياو في منزله كان في الواقع قصيرًا للغاية، ربما لأنه كان يحاول أن يصرف عن نفسه الكآبة، أو ربما لأنه يشعر بها، نزل إلى شارع تشينغ تشو وأجرى عدة اتصالات من الهاتف العمومي، وأخبر أصدقاءه أن يأتوا إلى منزله للعشاء. وأكد عليهم في المكالمة، أن باستطاعتهم جلب طعامٍ معهم، على أن من الأفضل ألا يجلبوا معلبات لحم الخنزير.

لم يأت أحد بمعلبات لحم الخنزير، واحترم أصدقاؤه قواعد زيارتهم له تلك المرة: ممنوع الحديث عن مي جون، ممنوع الحديث عن لحم الخنزير. ولكن على الرغم من ذلك بدت على وجهه وحدة عميقة، وبالكاد تناول شيئًا، ولم يتوقف عن الحديث، وحين ذُكِرَ ما حدث في المسلخ، حل الغضب محل الهدوء، وقال جين تشياو: «لماذا وضعوا اسمي إلى جانبه؟ هل يعتقدون أنني أتعاون معه ولا أتعاون معهم، وفي كلتا الحالتين، كم ينم المقلب عن حماقة وجهالة وضيق أفق، لا يفهمون معنى الحياد، ولا يفهمون مَن أنا، مَن أنا؟ أنا دولة عدم انحياز!»

رأى أصدقاؤه اليأسَ الذي باغت جين تشياو بسبب عمله في المصنع، فسأله أحدهم: «ألستَ تجهز نفسك للرحيل؟». قال جين تشياو: «يجب أن أذهب مرة أخرى على الأقل، لا أحب الطرق السلبية، لقد جلست في المنزل هذه الأيام حتى أهدأ وأعيد تنظيم أفكاري، أريد أن أحادث شيوي كي شيانغ وأن أحصل على نهاية مكتملة».

ولم يكن أحد يتوقع أن تتغير الأمور فجأة إلى حال أفضل، فحين مغادرة أصدقائه، جاءت ضيفة وهي مسؤولة عن شؤون العمال في مصنع دونغ فينغ. ولما كانت ضيفًا غير متوقع، فإن الأخبار التي كانت تحملها كانت كافية لأن تجعل المرء يطير فرحًا، إذ قالت: «طلب مني العم شيوي أن آتي لأخبرك أنه قبل استقالتك، كما يطلب منك أن تأتي غدًا إلى المصنع، يريد أن يتحدث معك

مرة أخيرة». كبح جين تشياو بهجته، وسألها: «مرة أخرى؟ فيمَ نتحدث؟».
ابتسمت المسؤولة وقالت: «ستعرف حين تحادثه، ألستَ على وفاقٍ معه؟».
أراد جين تشياو أن يشرح الأمر، لكنها انصرفت مسرعة محدقة إليه بغموض وقالت: «إن العم شيوي يحبك للغاية، يقول إنك خرجت من الوحل نقيًا، لم تتأثر بالفساد حولك، يقول إن لك مستقبلًا مشرقًا».

رأيت جين تشياو يهز كتفيه ويبتسم لزملائه باسطًا يديه. وعلى الرغم من أنني أبغض أن يقوم أحد بهذه الحركات الغربية، فقد كانت مناسبة تمامًا في هذا الموقف. خمَّنتُ أن تصرفه يوم عثوره على الخنزير على خط الإنتاج أثَّر في شيوي كي شيانغ، ومع ذلك ليس من الضرورة التركيز على هذه العلاقة السببية البسيطة. كان وجهه متوردًا، وفي اتجاه الشارع أخذ شهيقًا، ثم أخرج زفيرًا، ثم مال برأسه وابتسم لأصدقائه: «همم؟» هذا الصوت الخارج من الأنف له معنى، يعني الانتصار، ثم الانتصار ثم الانتصار.

«همم؟».

لم نكن لنألفه حينها إذا استخدم الكلمات بدلًا من صوت أنفه. لكن لا أعلم السبب الذي جعلني أشعر بالقلق من هذا الانتصار، لأنه بشكل عام إذا جاء النصر سهلًا، فهو يستحق الشك، وربما هذا انتصار الشوط الأول فقط.

ولكن أود القول إن الطقس كان صحوًا في هذا اليوم على غير العادة، وكان أصدقاؤه المقربون دائمًا هكذا، إن كنت فرحًا أكون فرحًا، إن لم تكن سأحاول أن أجعلك سعيدًا. وحين كانوا يسلِّمون عليه قبل الرحيل يقولون: «سننتظر سماع الأخبار السعيدة». ولكن لم يكن بينهم مَن يتنبأ بالغيب، ولم يتوقع أحد حادثة الثلاجات التي أفزعت الناس. بعدها زعم أحدهم أن نهاية جين تشياو المأساوية كانت متوقَعة، لكنني أرى أن هذا الكلام لا أساس له من الصحة ومحاولة لجذب الآخرين.

في ذلك اليوم كان جين تشياو مهندمًا، وبدا حازمًا، كان يرتدي بذلة سوداء، قميصًا أبيض وربطة عنق ملونة، وبدت من هندامه أهميةُ زيارة المصنع الأخيرة بالنسبة له. وحين عبوره تقاطع الشارع بين معبد كونفوشيوس ومبنى البريد والاتصالات، وقع نظره على مي جون وأختها الكبيرة تشتريان الورد من عربة ورد على جانب الطريق، وبكل فرح لوَّح جين تشياو لهما أثناء ركوبه الدراجة، وهتف: «اشتري وردًا أحمر، هذه علامة الحب والانتصار». ولكن الشارع كان مزدحمًا بالعربات والناس، فلم تسمعه مي جون. واختارت باقة ورد فريزيا بيضاء.

في نهاية الأسبوع يكون العمل في مصنع دونغ فينغ للحوم على أشده، ووصل جين تشياو إلى بوابة المصنع بعد أن شق طريقه بين عدة شاحنات، وخشي أن تتسخ بدلته بالشحوم، فخلع الجاكيت وأمسكه في يده. وفي المصنع الشاسع كانت تتعالى أصداء خوار الخنازير الغليظ، وكان العمال المرتدين زي العمل الأبيض أو الأزرق ينقلون من الشاحنات لحم الخنزير المعالج الطازج، أما عبر نافذة المسلخ البيضاوية فترى رؤوس العمال في حركة مستمرة، وعاملتين تطورت ملاسنتهما بسرعة واضحة. «خنزيرة، براز الخنزير، رأس الخنزير، X[1] الخنزير». اقتحمت أذنه مرة أخرى هذه الأصوات السفيهة السوقية، وأحس فجأة باستنكارٍ لها.

وصل جين تشياو إلى مكتب شيوي كي شيانغ لكنه لم يجده، وحين كان يتطلع حوله، خرج شخص من قسم الشؤون السياسية المقابل لمكتبه، فلمعت عيناه وقال: «أهلًا، هل أنت جين تشياو؟ لقد تصديت لمحاولة شريرة ذاك اليوم في المسلخ، نود أن نثني عليك ونكرِّمَك». كان جين تشياو يعلم إلامَ

---

1. ورد حرف X هكذا في النص الأصلي، وأينما يرد بعد ذلك في الروايات الثلاث فقد ورد هكذا في النص الأصلي.

يشير هذا الشخص، فقال: «لا أريد أن تثنوا علي، أريد أن أقابل شيوي كي شيانغ». فقال هذا الشخص: «لتذهب إلى الثلاجات، اليوم مزدحم بالعمل اليوم، والعم شيوي ذهب للمساعدة».

كان شيوي كي شيانغ هناك بالفعل. ناداه جين تشياو، ولكن الأخير ناداه من الداخل: «ادخل، ارتد الملابس المقنطَّة ولنعمل ونتحدث حتى لا تشعر بالبرد». تردد جين تشياو ثم دخل، وكان قلقًا على بذلته من أن تتجعَّد وتتسخ أثناء ارتدائه الزي المقطَّن، ولكنه فكَّر: «هذا اليوم الأخير على كل حال، لأتحمل وأطاوعه هذه المرة».

كانت الثلاجات باردة للغاية، وللمحافظة على درجات الحرارة المنخفضة، كان العمال قليلين، فيما عدا شيوي كي شيانغ، كان هناك عدد من العاملات اللواتي يرتدين ملابس ثقيلة كالعادة ويسحبن العربات الصغيرة رائحات غاديات. تفحصت إحداهن جين تشياو وقالت: «جئت إلى الثلاجات أنت أيضا؟ ماذا، لم تعمل إلا بضعة أيام وتريد الحصول على ترقية؟». تجاهلها جين تشياو، كان دائمًا يتعامل مع العاملات برحابة صدر وحلم. اقترب جين تشياو منه، ورأى وجه شيوي كي شيانغ وقد بدا أكثر نحولًا وإنهاكًا في درجات الحرارة المنخفضة، وذكَّرته هيئته بصورة للسياسي لاو جياو في نهاية أيامه، ظهر فيها بين زهر البرقوق في الشتاء وفي يده كتاب. بالطبع لا يوجد زهر برقوق في الثلاجات، ولا يمسك شيوي كي شيانغ بيده كتابًا، بل فخذَ خنزير مجمدة.

«طلبت الحديث معي»، قال جين تشياو.

«اعمل وتحدث وإلا ستشعر بالبرد». رصَّ شيوي كي شيانغ أفخاذ الخنزير في العربة بترتيب وقال: «افعل كما أفعل، لن تشعر بالبرد إن بذلت مجهودًا، لنعمل ونتحدث».

«ولكن، عمَّ نتحدث؟». حاول أن يرفع فخذ خنزير، وتذكر فجأة أنه لا بد أن يشكر شيوي كي شيانغ أولًا، ولهذا مد يده وهو يرتدي القفاز وربت على يده وقال: «نتصافح للمرة الأولى، أنا سعيد للغاية لأنك اعتمدت طلب استقالتي».

قال شيوي كي شيانغ: «لم يسعدني طلبك الاستقالة، ولهذا عقابي لك أن تعمل معي، وأن تتحدث معي عن الأخبار الدولية الحالية». غطَّى البخار الخارج من فم شيوي كي شيانغ نصف وجه جين تشياو، وبدا صوته ما بين الفرح والغضب «بداية من اليوم لم تعد عاملًا في مصنع تعليب اللحوم، يمكنك ألا تظل وتسمع ما سأقوله، وأعلم أنك تكره لحم الخنزير، فإن لم تكن لك رغبة في البقاء بإمكانك الرحيل».

«لا، سأبقى، إنني أرى لحم الخنزير بشكل مختلف الآن». فكَّر جين تشياو ثم قال: «سأعمل وأتحدث معك، من أجل لاو جياو، سأعمل وأتحدث معك».

«فليكن، عمَّ تريد الحديث؟ لنتحدث أولًا عن لاو جياو، سأختبرك يا جين تشياو، متى توفي لاو جياو؟».

«في اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام 1976».

«من كان موجودًا حين وفاته؟».

«لا أحد، لقد مات ميتة مأساوية».

«نعم لم يكن هناك أحد، لكن كانت هناك مجموعة من الفئران، التهمت المانتو الموضوع على الكومودينو، وشربت ما تبقى في الكوب من حليب، حتى إنها حركت النظارة على المخدة هنا وهناك، أرادت أن تأخذ النظارة إلى جحرها، لكنها انحشرت في النهاية في شق في الأرضية».

«كيف تعرف هذه التفاصيل؟».

«رأيتها بعيني. كنت جنديًا حينها، كنت أحرسه».

«لا عجب أنك تشبهه تمامًا».

«لا، لا أشبهه، أنا رئيس مصنع دونغ فينغ لتعليب اللحوم، يناديني الناس من وراء ظهري برأس الخنزير، إلا أنت».

«لأنهم لا يفهمون كيف يحترمون الناس، يحبون فقط الإهانة والاستخفاف، أنت هنا مثلي، قلَّ من يغني الأغاني الرفيعة».

«لعلك فهمت الآن لماذا كنت أريدك أن تعمل هنا، في المرة الأولى التي رأيتك فيها خطر ببالي، أخيرًا جاء إلى المصنع شاب طيب، يحترمني ويقدرني، لكنني أعلم أن الشباب الصالحين لا يحبون مصانع اللحوم، لن يأتي إلى المصنع شاب طيب».

«لنتحدث عن أمر آخر غير المصالح الشخصية، ألم تقل إنك تريد الحديث عن الأحوال الدولية؟».

«في الحقيقة أنا غير مهتم بالأحوال الدولية، مهتم فقط بأحوال المصنع».

«لا بد أن تهتم بالطبع. ولكن حتى إن كنت في الجيش أو في مصنع اللحوم، يجب عليك أن تحمل حبك للصين وتوسع أفقك وترى العالم، لا تسخر مني يا عم شيوي، لست أمزح، من فضلك ثقْ في صدقي. هل تعرف مَن هم المرشحان لرئاسة الولايات المتحدة في الانتخابات الحالية؟ بوش وكلينتون، هما المرشحان بقوة الآن، مَن ترشح؟».

«مَن هو كلينتون؟ أهو الممثل؟».

«لا، حاكم ولاية أركنساس، مرشح شاب».

«بالتأكيد لن يفوز. أعرف بوش، شخص معتدل ومُطَمئِن، كما أن علاقته جيدة بالصين».

«إذن أنت ترشح بوش؟».

«نعم، بوش، لن ينجح كلينتون هذا».

«إذن لأن بوش معتدل؟ في الحقيقة لا يفصل بين الاعتدال والمحافظة أكثر من نصف خطوة، أما أنا فأشجع كلينتون، لأنه يناسب مواصفات السياسي المعاصر، ما رأيك أيها العم شيوي، لنتراهن، أنا أراهن على كلينتون، وأنت راهن على بوش، بعد أن تظهر النتائج مَن يخسر يدعو الآخر لتناول الطعام. حسن، لنتراهن إذن، اخلع قفازك ولتتشابك أصابعنا».

وفي اللحظة التي كادا أن يشبكا أصابعهما، سمعا صوت باب الثلاجات الحديدي يُغلَق بقوة، وانطفأت بضع لمبات في اللحظة ذاتها، تلك العتمة المفاجئة جعلتهما ينتفضان ذعرًا.

- لين مي دي

- تشو يينغ

- تشين لي تشين

صاح شيوي كي شيانغ بأسمائهن ولم يرد أحد، صمت مطبق ساد في الثلاجات، والرد الوحيد الذي جاءه هو صوت الماء الجاري في المكيفات.

«لقد ظنن أنني لست هنا فرحلن». كان يحاول تشغيل ضوء ساعته في الظلام وقال: «لا يزال على انتهاء العمل نصف ساعة، لقد رحلن مبكرًا. هن مثل اللصوص، خرجن من المصنع كاللصوص، ولم يكن ليرحلن إن لم يعتقدن أنني غير موجود».

«ماذا سنفعل الآن؟ هل من المؤكد أننا لن نستطيع الخروج؟».

«لننتظر قليلًا، آمل أن تكون مزحة، ولكنه احتمالٌ ضئيلٌ أن تكون مزحة، لقد نسين أن يتأكدن مرة أخرى من عدم وجود أحد داخل الثلاجات، لم يكن يفكرن سوى في الرحيل مبكرًا. أنا المخطئ، الثلاجات منطقة محظورة، لم يكن عليَّ أن أوكل مهمتها لـ لين مين دي».

«أشعر بالحرارة تنخفض شيئًا فشيئًا». قفز جين تشياو في العتمة قائلًا: «ألن نتجمد إن ظللنا هنا؟ ألا يجب أن نبحث عن جهاز إنذار، أو أن نجد زر إطفاء المكيفات».

«لا يوجد جهاز إنذار، وصمام إطفاء المكيفات لا يعمل منذ الشهر الفائت، طلبت من شياو يو إصلاحه، لكني أعتقد أنهم أجلوه منذ عدة أيام». ظل شيوي كي شيانغ يتحسس طريقه في الظلام، وبدا أنه قد وجد صمام التكييفات ولكنه لم يتمكن من تحريكه، اللعنة، لم يصلحوه بعد، شتم شيوي كي شيانغ ثم قال: «أَرأيتَ العاملين في هذا المصنع؟ أعتقد أنك الآن تعلم سبب تمسكي بك».

حاول جين تشياو معتمدًا على حس الاتجاهات لديه أن يصل إلى باب الثلاجات الحديدي حتى وجده: «هل هناك أحد؟ افتحوا الباب بسرعة!». مضى جين تشياو يدق على الباب ويصرخ بقوة، ولكن في الخارج كان السكون مخيمًا، وخطر بباله أن الناس في الخارج سمعوا صوت الطرق على الباب، لكن لماذا لم يفتح أحدهم؟ في تلك اللحظة راوده شعور مسبق بأمر مشؤوم، وشكَّ أن عمال المصنع قد انتهوا من دوام العمل ورحلوا.

«لا تنادي، لن يسمعك أحد، لقد رحلوا بالفعل. لم يجدوني عند باب المصنع فظنوا بالتأكيد أنني رحلت مبكرًا، جين تشياو، لا تخف، تعال هنا ولنفكر في حل معًا. هل وجدت زيًا مقطَّنًا آخر؟».

«لا أرى شيئًا، وأنا على وشك التجمد من البرد. أيها العم شيوي، حدسي يخبرني أن هذه مؤامرة، مثل حريق الرايخستاغ، أو فضيحة ووترغيت».

«لا أعتقد، هم أشخاص غير قادرين على تدبير المؤامرات، بل هم أشخاص غير مسؤولين يتغيبون دون إذن، أشعر بالندم الآن لأنني لم أضع حارسًا على باب المصنع حتى لا تكون ثغرة يستغلونها. لا، لن يفيد الندم، تعال يا جين تشياو، سأخلع الزي المقطَّن وأعطيه لك، باستطاعتي تحمل البرد أكثر منك».

«ليس هذا وقت المساعدات الإنسانية، لا أريد زيك المقطَّن، يمكننا أن نتحدث بلا توقف، وألا نتوقف عن الحركة، ربما يعيننا على الاستمرار دافئين حتى الصباح».

«جين تشياو، كان ظني بك في محله، أنت أفضل شاب في المصنع، تعال، استند علي وأعطني يدك، ألم نكن سنشابك أصابعنا ونتراهن؟ مَن ترشح؟ كلينتون؟».

«نعم أرشح كلينتون».

«وأنا أرشح بوش».

أحس جين تشياو أثناء مصافحته وكأنه أب يصافح ابنه، الشيء الذي أشاع في نفسه الدفء. ولكن الحرارة المنخفضة كانت كوحش أسطوري يبتلع جسده وأفكاره شيئًا فشيئًا. وضع يده في يده، وأراد أن يعرف بتفصيل قصة حياة الدبلوماسي الراحل لاو جياو، ولكنه أحس بشفتيه تتجمدان، الأفكار والكلمات تجمدتا - أراد أن يحرك يديه وقدميه، ولكنه فقد الإحساس بهما. ورأى بشكل ضبابي حبيبات الثلج تغطي الملابس المقطَّنة «لم أتوقع أن أتحول إلى قطعة لحم مجمدة» فتح فمه ليسمع شيوي كي شيانغ دعابته، لكنه

اكتشف أن دعابته قد ابتلعتها البرودة، ولم يسمع صوته.

ممسكًا بيد شيوي كي شيانغ استغرق جين تشياو فشيئًا فشيئًا في النوم، وسمعه يقول: «لا تنم، إياك أن تنام، افتح عينيك يا جين تشياو». لكن الضعف تمكّن منه ولم يكن قادرًا على فتح عينيه، وتمنى لو يتوقف الوقت عند هذه اللحظة، لأنه وفي هذه اللحظة ركب تلك الطائرة الضخمة، تلك الطائرة العابرة لقارتي آسيا وأوروبا، وتخيل أنه جالس مع لاو جياو، وفي المقاعد الأمامية والخلفية يجلس قادة أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا واليابان وغيرها من قادة الدول الذين تخيلهم، لنناقش خطة السلام الدولية! رأى نفسه يقف في هذه الرحلة العظيمة، ويسمع صوته واضحًا، واثقًا، صافيًا، ولطيفًا، ينشر سحرًا لا حد له.

فيما بعد أُثبِتَت هذه الحادثة كحادثة عرضية. وكانا لا يزالا متصافحين في اليوم التالي حين اكتشفت العاملات المصير المشؤوم للرجلين المجمدين. تلك الهيئة الغريبة التي كانا عليها قبل الموت وملابسات الأمر جعلت المرء يشعر بالأسف الشديد.

خارج جدران مصنع تعليب اللحوم الحمراء ربيع مزهر، يقول أصدقاؤنا جميعًا إن هذا الربيع كان دائمًا يزداد بهجة جمالًا، لا نعرف أي خطأ حدث هنا، فقد تحولت زهور وشمس شهر مايو إلى ذكرى البرودة والموت، فقدوا صديقهم جين تشياو، وفقدوا شخصًا ذا أسلوب نبيل وراق، ولم يكن بإمكانهم أن يستقوا طريقته الفريدة في السعي وراء فلسفة الحياة الكاملة، ومنذ الآن لن يذيع أمامهم بحماس آخر الأخبار حول الحرب في الشرق الأوسط، والتجارة بين الولايات المتحدة واليابان، وأخبار مرشحي الرئاسة.

بعد الربيع أصبح العديد منهم نباتيين، وكان هذا بسبب صديقة جين تشياو السابقة مي جون. إذ يقال إنها في يوم من الأيام انفجرت باكية حينما

رأت طبق اللحم المقلي على طاولة الطعام، وكسرت الطبق. وقد أصابنا حزن مي جون وأثَّر فينا، فبدأنا في مقاطعة لحم الخنزير تكريمًا لذكرى جين تشياو، وبالطبع كان ثمة الكثير من المواقف والكثير من الأوقات التي نتذكره فيها، على سبيل المثال في شتاء هذا العام -دار الزمن ومرَّ فصل الربيع الذي مات فيه جين شياو، وجاء فصلُ الشتاءِ سريعًا- علمنا من التلفزيون والراديو نتائج الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، وكما توقع جين تشياو، فقد فاز كلينتون بمنصب الرئاسة.

حياةٌ أخرى للنساء

دكان عائلة جيان للمخللات والصلصة المعروف والمشهور لم يعد له أثر، والفناء الخلفي الذي كان فيما سبق ورشة، أصبح الآن فناء منزل عاديًا تتناثر فيه الحشائش القصيرة وفروع الكروم المتسلقة للجدران، عُلِّقت ملابس امرأة بهتت ألوانها على حبل غسيل، وخمس أو ست جرات صلصة قديمة حمراء اللون، إما مصفوفة معًا، أو متصدعة، ومستندة على زاوية الجدار وممتلئة بماء راكدة وأغصان وأوراق ذابلة، كانت علامة على الماضي. أما الباب الخشبي ذو الدرفتين والمسمّر بثبات فقد فَصَل الفناء عن الدكان، ورسم خطًا فاصلًا بين حياة عائلة جيان الرتيبة الهادئة والعالم شديد الجلبة.

كان الدكان لا يزال يبيع صلصة الصويا، إذ تأتي عربة ذات عجلات ثلاثية من مصنع تخمير البيرة محملة ببضائع غير مصنفة تسعَّرُ بسعرين حسب جودتها، وفيما عدا صلصة الصويا، يبيع الدكان الزيت النباتي، والملح، وخل الأرز، والنبيذ الأبيض ومختلف أنواع المخللات، ويعبق طوال اليوم برائحة منتجات صلصة الصويا الثقيلة والحلوة والحامضة النفاذة. وقد اشتغلت عاملات الدكان الثلاث في بيع صلصة الصويا ردحًا طويلًا من الزمن، حتى إن رؤوسهن وأصابعهن وبشرتهن تفوح منها رائحة صلصة الصويا، وقد تعودن على ذلك.

يكون الطقسُ هادئًا مملًا في هذا المكان في فترة الظهيرة وما بعدها، وتسمع العاملات الثلاث أصوات الطقطقة والحركة في الطابق الأعلى، وهي أصوات حركة الأختين من عائلة جيان وتنظيفهما المنزل. كانت حركتهما

حذرة هادئة، لكن مع ذلك، كان باستطاعة العاملات معرفة تفاصيل معيشة الأختين المنعزلة. وخاصة قو يا شيان، التي كان باستطاعتها تبين صوت تبولهما، وسماع صوت الإبرة حين وقوعها على الأرضية من حامل التطريز.

ولكنهن قلما ما يشاهدن الأختين، فهما تخرجان من باب جانبي قصير ضيق، وكأنه صُمِّمَ خصيصًا لشخص نحيف ضئيل الحجم، وعلى أي رجل أن يحني رأسه حتى يستطيع الدخول من الباب الذي لم يدخل منه أي رجل من قبل. ويعلم جميع سكان شارع شيانغ تشون شو أن جيان شاو جين وجيان شاو فانغ لم تتزوجا من قبل، لقد عاشتا حياة منعزلة لسنوات عديدة أعلى دكان المخللات والصلصة. وليس هناك مَن يراهما دائمًا إلا بائع خمر الأرز الحلو، يعلم أنهما تحبان خمر الأرز الحلو، وفي كل مرة يأتي أمام الدكان ويقرع أسطوانات البامبو، يرى وجه الأخت الكبرى أو الصغرى الشاحب عابرًا من النافذة، ثم تخرج يد شاحبة كذلك وتُنزل سلة مربوطة بحبل، تضع فيها النقود وطبقًا خزفيًا صغيرًا مزخرفًا.

الطقسُ غائم، كما أنه موسم المطر في الجنوب، والذباب المحتشد حول كومة القمامة إلى جانب الطريق يلاحقُ رائحةَ منتجات الصلصة والسمك المملح المنتشرة في الجو إلى الدكان. وشغلت العاملات وقتهن فترة ما بعد الظهيرة في اصطياد الذباب حيث كن متفرغات، ودائمًا ما كانت ذبابة تسقط في جرة الصلصة، فيلتقطنها بأصابعهن، وهذا السلوك لا يتوافق مع قوانين نظافة الأطعمة المعلّق على الحائط، ولكن الطعام يُعتبرُ نظيفًا ما دمتَ لا ترى كيف يُصنع، والمشترون لصلصة الصويا لا يولون اهتمامًا كبيرًا إلى نظافتها من عدمها.

سو مي شيان هي الأكثر خبرة من بين العاملات الثلاث، وقد احتلت مكانها خلف الكاونتر المصنوع من الخشب الأبيض على شكل مثلث منذ

جاءت في سن السابعة عشرة إلى الدكان، وشاهدتْ لافتة (دكان خينغ فو للمخللات والصلصة) المعلقة على الباب تهتز بسبب الرياح والمطر، حتى تحطَّمت في النهاية، وكادت أن تسقط على رأس الإسكاف العجوز الذي يعمل في كشك تصليح الأحذية المقابل للدكان. وأحيانًا كانت تشتكي إلى كل من قو يا شيان وكانغ سو يو بلهجة العارف الناضج قائلةً إن صلصة الصويا والخيار المخلل لم تكن تباع من قبل في الدكان، ولكن قو وكانغ كانتا تستقبلان كلامها باستخفاف، وتريان أن شكواها عجيبة. فترد قو: «ما دخلك بكل هذا؟ لست الوحيدة التي تتناول صلصة الصويا، كل الناس سواء، لا يوجد ما يستحق الشكوى». ثم تقول كانغ بلهجة مُغيظَةٍ: «لا تتناوليها ما دمتِ ترينها رديئة، ووفري عناء حمل الزجاجات كل يوم».

كانت كانغ سو يو تشير بحديثها إلى عادة سو مي شيان البغيضة في جرّهن كالخراف كما يحلو لها. أحست سو مي شيان بالحرج وصمتت برهة، ثم أمسكت المِذَبَّة وضربت بقوة على الطاولة ووجهت كلامها إلى ذبابة مُتخَيلة: «هل جئتِ لتلقي ببرازك في الدكان؟ هل تعتقدين أنكِ نظيفة؟». كانت علاقتهن غريبة ومتقلبة، ولم يكنَّ على وفاق، وكانت سو مي شيان وكانغ تتشاجران دائمًا، ساعيتين في كل تلاسن كما تعودتا إلى كسب دعم قو يا شيان. وكانت قو تحمي دائمًا كانغ، إلا أن هناك استثناءات في بعض الأحيان، لأن قو لا تود أن تهين سو مي شيان. وعلى الرغم من أن الأخيرة سليطة اللسان، لكن يديها ماهرتان مثيرتان للإعجاب، إذ يعتبر تطريزها من بين أفضل تطريز نسائي في شارع شيانغ تشون شو، وأحيانًا تنصحها قو يا شيان أن تخيط للبنات والأولاد ملابس وأحذية مقطَّنة. ولدكان الصلصة رئيس، يدعى تسون خان تشو، وهو في الأساس صاحب محل الحلويات في الشارع الغربي، ويعمل بدوام جزئي كمدير للعاملات الثلاث، ويأتي كل يوم أحد إلى دكان الصلصة.

لم يكن تسو خان تشو رجلًا رصينًا، كان يحب أن يتشاكس وقو يا شيان، وكان الزبائن القادمون إلى المحل دائمًا يشهدون في الصيف مواقف كهذه: قو يا شيان تلاحقه لتنزل الشورت الذي يرتديه، أما هو فيجري هنا وهناك بين جرار الخمر والصلصة، وكثيرًا ما كانت تنجح في إنزال الشورت بعض الشيء كاشفة عن بشرة بيضاء، ومن ثَم يرفعه مرة أخرى وسط الصياح والقهقهة. لم ينزعجا من لعبتهما، أما سو مي شيان وكانغ سو يو فكانتا تقفان جانبًا متطلعتين إليهما ولا تبدو على ملامحهما تعابير محددة. وبالطبع أمر كهذا يجب أن يتردد صداه في شارع شيانغ تشون شو، حيث كانت تندفع نسوة في اتجاه سو مي شيان أثناء سيرها سائلات أن تتحرى علاقة قو يا شيان وتسو خان تشو، فكانت تتوقف ضاحكة ويبدو عليها أنها تراقب بعين ثاقبة كل حركة وسكون. «الكلاب التي تعض لا تنبح» تقول سو مي شيان ثم تبتسم ابتسامة ذات مغزى، فتأخذها النسوة الفضوليات إلى بيوتهن ولا ترفض ذلك، ثم تجلس حاملة حقيبة زرقاء من الجلد الطبيعي، وتقضم اللب وتبدأ حديثًا ممتعًا لذيذًا. «في الحقيقة قو يا شيان وتسون خان تشو بريئان من أي شبهات»، ثم تسكت تاركة المستمعات في لهفة لسماع نصف القصة الآخر، لكنها تربط يدي الحقيبة معلنة عن رغبتها في الرحيل وتقول: «يجب أن أعود إلى المنزل لإعداد العشاء، لن أشغل نفسي بالثرثرة في القيل والقال».

«إذن تسو خان تشو على علاقة مع مَن؟». يسألنها النسوة عند الباب. «خمِّن، دكان الصلصة به ثلاث عاملات، احزرن من منهن على علاقة معه؟ لست أنا أليس كذلك؟ لقد شخت مثل حبة خيار مخللة». وبالطبع كانت النتيجة بديهية، وهكذا انتشرت شائعة العلاقة العاطفية بين كانغ سو يو وتسون خان تشو كانتشار النار في الهشيم.

بعدها بعدة أيام، اقتحم زوج كانغ سو يو المحل بغضب واتجه إلى تسون

خان تشو مباشرةً. أمسكت كانغ سو يو وقو يا شيان لاو سونغ الغاضب، وشحب وجه تسون خان تشو، وبسط يديه الملطختين بصلصة الصويا وقال: «ما بك؟ أكل شيء على ما يرام لِمَ تهاجمني؟». أمسك لاو سونغ بضع قطع توفو من على المنضدة وقذفها في وجهه وصرخ في غضب: «لن أقتلك، بل سأبلغ عنك، سأبلغ أنك استخدمت حق سلطتك وتحرشت بالنساء، وسأرى إن كنت تجرؤ على لمس امرأتي مرة أخرى».

ابتسم تسون خان تشو بمرارة ومسح وجهه المتسخ، ونظر إلى كانغ سو يو قائلًا: «كانغ سو يو، أخبريني أمام الجميع، متى لمستك؟ متى تحرشت بك؟». كانت عيناها دامعتين متأججتين بالغضب، انتزعت سكين زوجها ودارت حول الكاونتر باهتياج، ووقفت إلى جانب سو مي شيان بسكون، ثم همست لها بكلمة قذرة، وغرست السكين في الكاونتر وقالت بحدة: «اسمعوا جميعًا، مَن تجرؤ على إثارة الإشاعات حولي سأقطع لسانها بهذا السكين وأغرسه في فتحة X». وهكذا انتهى الأمر، بدون توضيح.

وفي واقع الأمر، يفتقر شارع شيانغ تشون شو إلى الرصانة والاحترام، فقد كانت قو يا شيان بعد تلك الحادثة تتناقش في الأمر بصدر رحب وصراحة، حيث قالت لـ سو مي شيان هامسة: «في الواقع لقد كان يداعبها وأشياء من هذا القبيل، لا تأخذنَّك الدهشة، فيجب أن يبنوا لنا قوسًا تذكاريًا لعفتنا وطهارتنا بالمقارنة مع عاهرات مصنع معالجة اللحوم». بعدها غادر تسون خان تشو شارع شيانغ تشون شو، وعمل رئيس محل فحم في شمال المدينة، وهناك علم الجميع أنه غيَّر عمله بسبب نمط معيشته. ولكنه لم يعتبر ذلك الأمر إثمًا، وظل يقول مرارًا وتكرارًا: «إن مصاحبة النساء يلازمها نصيب لا يوصف من الشقاء والبؤس، فلا تعلم متى سيُقطع رأسك ويُلقى على الأرض» وأقسمَ أنه لن يتحرش بالنساء في المحل.

الغريب في الأمر، أن العاملات في محل الفحم كنَّ من القماشةِ ذاتِها، وهكذا ثارت الشائعات مرة أخرى. ولكن هذه قصة أخرى بالطبع.

تسلمت قو يا شيان مسؤولية المحل بعد رحيل تسون خان تشو وتُرك المحل بلا مدير. في أحد الأيام بعد أن باعت لأحد الزبائن وعاء من صلصة الصويا، تذكرت أمرًا ما وانفجرت في نوبة ضحك. سألتها كانغ سو يو عن سبب ضحكها، فقالت: «تذكرت تسون خان تشو المنحوس، كان مدير المحل رقم كم؟». نظرت كانغ سو يو إليها بطرف العين وظلت ساكتة. أما سو مي شيان فعدت على أصابعها بجدية: «منذ أن أُدمِجَت الإدارة العامة والخاصة إلى الآن، نحو ستة أو سبعة عشر مديرًا. أذكرهم بالضبط». اختفت ابتسامة قو يا شيان وقالت بجدية: «عجيب حقًّا، لا يبقى الرجال كثيرًا هنا». قالت ذلك ونظرت إلى زميلتيها، ثم رفعت عينيها إلى السقف المغطَّى بورق الجرائد حيث سمعت صوت خطوات الأختين جيان الهادئة. قالت قو يا شيان: «ربما هناك الكثير من الين[1] في هذا المكان، ولهذا لا يأتي الرجال إلينا».

عبر النافذة المبللة يظهر شارع شيانغ تشون شو تحت الأمطار. شاهدت جيان شاو فانغ عربة شُوَار عروس موَشَّحةً بالحرير الأحمر تعبر الشارع الموحل، وعلى جانبيها شخصان يحمل كلٌّ منهما مظلة. وقفت جيان شاو فانغ وأرادت أن ترى تلك العروس التي تتزوج في يوم ماطر، ولكن العربة التي تحملها ربما مرت بالفعل، فلم ترَ غير مجموعة من الأطفال الذين بللهم المطر يركضون خلف العربة. «إلامَ تنظرين؟»، سألتها جيان شاو جين.

«حفل زفاف. عبرت عربة عروس، تحمل ستة أغطية يبدو أنها من الحرير والساتان». سمعت جيان شاو فانغ صوت المفرقعات المدوي من

---

1. «الين» كلمة أو رمز في الفلسفة الصينية يعني الأنثى والسكون، ويرتبط كذلك بالليل والشر ومعانٍ أخرى كالشتاء والخريف والمطر والبرودة.

ناحية الجهة الشرقية للشارع، وقالت: «يبدو أنه المنزل إلى جانب المدرسة هناك، هذا المنزل فيه خمسة أبناء. عروس منحوسة مَن تتزوج في يوم ماطر كهذا. ضربت جيان شاو جين على حامل التطريز وقالت بضجر: «أغلقي النافذة». وإذ أغلقت جيان شاو فانغ النافذة، أظلمت الغرفة التي كان قد تسرب إليها خيطٌ من الضوء فجأة، وانعزل صوت المطر في الخارج. عادت وجلست إلى حامل التطريز مرة أخرى، ومضت تفرز خيوط الحرير الملونة الملفوفة. ونظرت إلى أختها الكبرى حيث بدا على وجهها الشاحب المتفخ شيءٌ من الاستياء.

«أشعلي الضوء، لا أرى لونَ الخيوط جيدًا في الأيام الغائمة، حين أسمع صوت المطر أشعر بالضجر الشديد»، قالت جيان شاو جين.

شدت جيان شاو فانغ سلك المصباح فأنارت الغرفة الكبيرة بنورٍ باهت وظهرت بمعالم كلاسيكية مبتذلة؛ أثاث ثقيل أحمر اللون موزع في أرجاء الغرفة، وصوت تكتكة منبه يصدر من رف التسريحة، وعلى الجدار الشمالي معلَّقةٌ صورةٌ اصفَّر لونُها للزوجين جيان، وتحت الصورة سريرٌ مزخرفٌ ضخم من الخشب الأحمر. وحين أشعلت جيان شياو فانغ الضوء، رأت فأرًا يركض أسفل السرير ويختفي في زاوية الجدار.

تستمر هذه الحياة الموحشة الكئيبة عامًا بعد عام ويومًا بعد يوم. تبلغ جيان شاو فانغ هذا العام ستة وأربعين عامًا، وتذكر أن أختها تكبرها بثماني سنوات، إذن فهي في الرابعة والخمسين، وفي أحيان أخرى تراقب بهدوء هيئة جسدها النحيل المنحني، فيغمر فؤادَها رعبٌ من الشيخوخة. وقد بكت في الحمَّام ليلة كاملة حين اكتشفت انقطاع الحيض عنها مبكرًا، هذه علامة الشيخوخة والموت، تنبهها إلى أنها فقدت سلطة كونها امرأة، وشعرت أنها مهيأة نفسيًا لهذا الأمر، ولكنها لم تستطع كبح الحزن المتفجر من قلبها.

وعبر الدموع التي خضَّلت عينيها رأت أختها الكبرى تقف إلى جانب الستارة وتتأملها بصمت واهتمام، ثم قالت لها بلهجة هادئة: «مِمَّ تخافين؟ أنا معك». تَذكُرُ جيان شاو فانغ أن أختها دائمًا ما كانت تواسيها بهذه الطريقة في صغرهما، وتَذكُرُ أن أختها كانت تحتضنها حتى تنام، خاصة بعد وفاة والديها في حادث، إذ اعتمدت الأختان على بعضها البعض في اجتيازِ كل ليلة من الليالي المظلمة الموحشة. وقد استمرت تلك العادة الحميمة حتى أتمت جيان شاو فانغ الستة عشر عامًا، وفي أحد الأيام حَلُمت أن صخرة ضخمة تجثم على صدرها وتكتم أنفاسها، ولما أفاقت يغمرها العرق، اكتشفت أن تلك الصخرة الضخمة هي يد أختها الكبيرة تجثمُ بثقل على فتحة صدرها.

أزاحت جيان شاو فانغ اليد، وشعرت بالألم في صدرها الذي في بداية بزوغه، وهو ما بث في نفسها الخوفَ والخجل، ورفضت أن تشارك أختها السرير مرة أخرى. وتذكَّرت حين انتقلت للنوم في سرير صغير، لكن الفراغ المعتم والكوابيس ضاعف إحساسَ الرعب لديها، كانت حينها في السادسة عشر، ولم يكن بإمكانها النوم بمفردها بدون أختها الكبيرة. بعد عدة أيام عادت إلى السرير المزخرف الكبير، ووصلت إلى تفاهم، أن تنام على جانب السرير من الداخل، وأن تنام أختها في الخارج، وكلٌّ منهما تتغطى بلحافها، لم تعترض أختها، بل تطلعت إليها بحزن خفي قائلة: «كما تشائين». كانت جيان شاو فانغ تعلم أن أختها تحبها حبًا جمًا وتدللها، خاصة في الماضي. ولهذا استمرت عادة النوم إلى جانب أختها الكبيرة حتى الآن.

تذكرت جين شياو فانغ حين زارهما بعض الأقارب والجيران منذ سنوات لطلب الزواج. في البداية كانوا يأتون لطلب أختها الكبيرة، ولكنها كانت تختلق دائمًا أسبابًا للرفض، وكان السبب الأهم له علاقة بها فقد كانت تقول: «لن أتزوج، ماذا ستفعل شاو فانغ إن تزوجتُ؟ لن أتركها». ثم اقترحوا عليها بعض الأشخاص الموافقين على زواجها والعيش معها في

المنزل، ولكنها هزت رأسها قائلة: «لا أريد أن يدخل بيتنا شخصٌ غريب». وبعد أن يغادروا، كانت ترى شاو فانغ أختها في المطبخ تثير جلبة وتبدو شديدة الانزعاج. «لا تعتقدي أن هؤلاء الأشخاص طيبوا النيّات، بل يطمعون في ميراثنا». ثم تنظر إلى أختها وتبتسم ابتسامة هازئة قائلة: «لا أريد الزواج مدى الحياة. لِمَ أمنح جسدي الغض لهؤلاء الرجال الدميمين؟».

لا تزال جيان شاو فانغ إلى الآن فتاة أنيقة جميلة كزهرة، تلاحقها نظرات الرجال المتقدة في كل مرة تذهب إلى مشغل التطريز لتسيلم القطع المطرزة، ومع أنها كانت معتادة على السير محنية الرأس، وإلى جانب الطريق تحت أفاريز المنازل فقد كانت تشعر بنظراتهم رغم ذلك، وكان يمسها ارتباك، ومزيج من الدهشة والفرح، وأكثره شعور بالتوتر والاضطراب لم تعتده، ويبدو وجهها متوردًا وهي تحمل صرَّةً مليئة بأشغال مطرزة وتمشي في شارع شيانغ تشون شو، إلى أن تصل إلى رصيف الميناء، فتبدو عيناها كعيني غزال مذعور، وخيوط الشمس تغمر جسدها، فيلاحظ الناس لمعان وبياض بشرتها، رقيقة وهشة كورق الحرير.

لذلك تركت الفتاة لدى الناس انطباعًا جميلًا رقيقًا. فيما بعد كان طالبو الزواج قادمين من أجل جيان شاو فانغ، وأقنعوا أختها بصبر أن تتركها لتتزوج، أما جيان شاو فانغ فكانت تختبئ في غرفتها وتغلق أذنيها، تغلقهما قليلًا ثم تفتحهما، راغبة في أن تسمع ما يجري في الخارج، خائفة في الوقت ذاته من أن تسمع بالضبط ما يجري.

«هل تريدين الزواج أم لا؟». هكذا سألتها جيان شاو جين، كانت ملامحها صارمة متزنة كأنها تقلب الأمر في ذهنها. «لن أمنعك إنْ كنتِ راغبة، وسأعد لك جهازَ عروسٍ يليق بك»، هزت جيان شاو فانغ رأسها قائلة: «لا، أنا خائفة، لا أريد الزواج».

«لا يوجد بينهم مَن يناسبك، وهذا ليس أفضل من عدم الزواج». تأملت جيان شاو جين أختها، وأخذت نفسًا عميقًا وقالت: «هم ليسوا مناسبين لعائلة جين، ويريدون أن يفرقوا شمل العائلة. لا تنخدعي بألفة وجوههم وهم يغدقون علينا الكلام المنمق، في الحقيقة كلهم مخادعون، لا أصدق كلامهم، أصدق فقط ما تراه عيني».

«لا أصدقهم أيضًا، بل أثق بأختي الكبيرة فقط»، قالت جيان شاو فانغ. وتحول اعتمادها على أختها الكبيرة في كل أمر خلال سنوات المعيشة المنعزلة عن الناس إلى قاعدة راسخة، كما أن ابتعادهما عن الحياة الروتينية التي يمارسها الناس بددت السنين والشائعات التي انتشرت في شارع شيانغ تشون شو، إلى أن ذوى جمالها وشبابهما، فلم يطأ أحد سلالم مبنى دكان الصلصة البالية بعدها.

فتحت الأختان الشباك المطل على الجهة الغربية بعد هطول المطر في صباح أحد الأيام، كان مثبتًا بلباد إسمنتي، ونادرًا ما يُفتح. أزالت جيان شاو فانغ العفن والغبار المتراكمين، ثم اكتشفت أن شجرة الخوخ في الباحة طرحَت ثمرتين صفراوين تتخللهما خطوط حمراء، ومعلَّقتين خارج النافذة على مسافة قريبة. دُهِشَتْ لأن هذه الشجرة تزهر فحسب: «تعالي وانظري، ثمرتا خوخ». لكنها لم ترَ على وجه أختها الكبرى إلا تخوفًا وارتيابًا. حدَّقت إلى الثمرتين فترة، وأخيرًا أمسكت المقص وقصتهما بحزم. سمعتا صوت سقوط الثمرتين في الفناء في جرة صلصة قديمة ممتلئة بالماء، كان الصوت أجوفَ عميقًا يتردد صداه، «لِمَ قطعتِهما؟». نظرت جيان شاو فانغ باستياء إلى المقص في يد أختها: «لِمَ قطعتِ ثمرتي خوخٍ جيدتين؟».

«لا تفهمين، هذه زهور شريرة». حدَّقت جيان شاو جين إلى الثمرتين الساقطتين في الجرة، ثم أغلقت الشباك الذي لم يُنظَّفْ نصفه وقالت: «أذكر

أن الشجرة طرحت ثمرتي خوخٍ في السنة التي توفي فيها والدانا».

«لكني أحب هاتين الثمرتين، كانتا ستسقطان في النهاية من الأغصان، ليتك تركتِهما لأتطلع إليهما عدة أيام». كانت جيان شاو فانغ تعبث بأصابعها في النافذة، وبدا صوت احتجاجها خفيضًا عميقًا، لأنها أحست فجأة برغبةٍ في البكاء، ذاك الحزن الذي يغلب المرء ويبعثه الحنين ويثيره الاشتياق. قاومت إحساس البكاء المتفجر من صدرها، وأدارت ظهرها عن نظرات أختها الحادة، ولحسن حظها أن عتمة الغرفة أخفت الدموع المتساقطة على خدها.

كانت تذرف الدموع بسهولة منذ صغرها، وفيما بعد أصبحت تبكي لمختلف الأسباب، لا تتوقف ولا تستطيع السيطرة على نفسها. لذا كان وجهها منتفخًا على الدوام كأختها الكبيرة، وتجاعيد وجهها تمتلئ بقطرات ماء لامعة، بآثارٍ خلَّفتها الدموع بالأخرى.

حين أجرى دكانُ المخللات والصلصة جردًا في نهاية الشهر، اكتشفت قو يا شيان نقصًا في الحساب، وشكَّت أن واحدةً من زميلتيها تختلس النقود. أمر مثل ذلك لا يجب أن ينتشر حتى لا تعالج الموضوع بلا تبصر وقد تخيف المختلس. لجأت إلى حيلة وسلَّمت الحساب، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أكثر انتباهًا، وبدأت ترصد تحركاتهما، وفكَّرت أنها يجب أن تحصل على دليل قبل كشف الأمر.

في البداية شكَّت قو يا شيان في سو مي شيان، وفي حقيبتها الزرقاء، فتشتها خفية، لم تجد بها غير زجاجة صلصة، حتى أنها لا تحمل فلسًا واحدًا. كانت حركة سو مي شيان في استلام النقود وإعطاء الزبائن الباقي واضحة لا شك فيها، ولا تقف كثيرًا عند صندوق الحساب. وبعد عدة أيام من الملاحظة، لم يكن أمامها خيار إلا أن تعجب وتثني على مهنية سو مي شيان التي نمتها على مدار هذه السنوات. لم يتبقَ سوى كانغ سو يو، وهي لا

تقرب زجاجات صلصة الصويا، وتقول إنها تكره أن تملأ المخلل بالصلصة، وتخاف أن تلتصق بها الرائحة. وفكرت قو يا شيان أن هذا ربما عمل محتال فَطِنٍ، ولعلها لا تحمل معها الزجاجات والصحون التي يشتري فيها الناس الصويا، بل نقود الدكان؟ وكانت قو يا شيان تعتقد بمبدأ أنك قد تعرف وجه المرء لكن تجهل قلبه.

بدأت قو يا شيان في مراقبة كانغ سو يو من جديد، ولكن بعد عدة أيام خمدت عزيمتها: تسكن كانغ سو يو قريبًا، حتى إنها لا تأتي بحقيبتها إلى العمل، وتقف أمام الكاونتر بتراخٍ وكسل على الدوام، وما دامت واحدة من زميلاتها تتولى الأمر، فإنها تأبى حتى أن تجلب للزبون زجاجة الخل أو الصلصة. لم تستطع قو يا شيان أن تقيم عليها أي دليل، فلم تعرف ما الخطب، وفكرت أنه يوجد لص بلا شك، لكنه لص لا يستطعن القبض عليه.

الهواء رطب ثقيل، وزخات المطر المتقطعة تتساقط على الطريق الحجري المائل للخضرة، وأرضية الدكان رطبة طوال اليوم، ملطخة بآثار أقدام الزبائن الموحلة وقطرات الماء. كانت قو يا شيان معكرة المزاج للغاية، وفي يوم ما صادف إجازة كانغ سو يو، لم تدرِ قو يا شيان السبب الذي جعلها تبوح باكشافها لـ سو مي شيان التي لا تعرف كثيرًا عن الأمر وليست على علاقة طيبة بها. لم تخبرها بالاسم، ولكن في ظل هذه الظروف، كانت المقصودة وبلا شك هي كانغ سو يو. «لقد خمَّنت بأنها تقوم بحركات مريبة فيما يتعلق بالنقود». كان رد فعلها سخيفًا. تطلعت إلى الشارع والمشاة تحت المطر، ثم اقتربت منها قائلة: «فكري، من أين لها بكل تلك الأموال لتشتري كل هذه الأحذية، والملابس؟ ألم تسمعي أنها تجدد منزلها؟ لعلها سرقت قدرًا من المال؟». «تنقص النقود بضع عشرات يوان، لن تكفيها لتجدد منزلها» قطعت قو يا شيان حبل تخيلاتها، وباغتها إحساس بالندم لإفشاء المسألة لـ

سو مي شيان، ولهذا حزمت الأمر: «ليس لدي دليل، وليس من الجيد ظلم الناس». ثم حذرتها بصرامة قائلة: «مي شيان، إياك أن تثرثري، إن أفشيت الأمر تحملي العواقب بمفردك، وعلى كل حال أنا لم أخبرك شيئًا». «إن كنتِ خائفة منها، فأنا لست خائفة». ابتسمت سو مي شيان ابتسامة ساخرة وقالت بسرور: «لقد افتعلت هذا الشجار مع تسو خان تشو، وتظن نفسها ملك X، ولديها الجرأة على سرقةِ مال المؤسسة، لن أستطيع السكوت عن ذلك».

«ليس هناك دليل، لا تتحدثي عنها بعد اليوم، ولنعتبر أنني قدَّرتُ الحسابَ بشكلٍ خاطئ»، قالت قو يا شيان. «لا أصدق أنك لم تستطيعي إدانتها»، قالت سو مي شيان بحقد وعيناها تلمعان بنظرات متحمسة.

بعد عدة أيام اندلع شجار قلَّما يحدث في دكان المخللات والصلصة، بين سو مي شيان وكانغ سو يو. كان الوقت مغربًا، وكانت المحال تغلق أبوابها تباعًا في شارع شيانغ تشون شو، حينها سمع الناس صراخ امرأة حاد قادم من محل الصلصة، تطلعوا عبر الباب الموارب إلى الأرضية ليروا سو مي شيان وكانغ سو يو تتعاركان، وما أثار دهشتهم هو يد سو مي شيان، كانت تشد خصر بنطلون الأخرى بقوة، وكأنها تبحث عن شيء ما، أما كانغ سو يو فكانت تصرخ وتسب وهي تجذب شعرها، وتقرص يديها، وكانت قو يا شيان تحاول فض الشجار، لكن كان واضحًا للعيان أن لا قدرةَ لديها على فضِّه، أو أنها بدت كأنها تقوم بحركة ما. «ابحثي كما تشائين! سأجعلك تعثرين على الأشياء المسروقة»، صرخت كانغ سو يو صرخة حادة فجأة، وأخرجت من بنطلونها فوطة صحية مبللة بدم قاتم، ورفعتها عاليًا ثم ضربت بها وجه سو مي شيان، دُهِشَت سو مي شيان، ولُطِّخَ وجهها ببقعٍ من دماءٍ قذرة، وظلت ذاهلة برهة، وانفجرت كانغ سو يو ضاحكة حينها وقالت: «هل عثرتِ على المال الذي سرقته؟». في البداية ظل الحاضرون

مندهشين، ثم غطوا أفواههم ضاحكين. كان الشجار بين النساء أمرًا مألوفًا في شارع شيانغ تشون شو، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يشهد فيها الناس عراكًا من هذا النوع. بعدها أخرجت قو يا شيان الناس وأغلقت الباب.

كان يمكن سماع الشجار عبر الباب، لكن كان من الصعب تبين سببه. بعد ذلك بعدةِ أيام، أصبحت واقعة الفوطة الصحية حديثَ الشارع. ذهبت قو يا شيان إلى مدير الفرع الرئيس لإبلاغه بما حدث، وكان رأيها أن سبب هذا الشجار هو تراكمات على مدى سنين طويلة، وكانت كلتاهما مشحونتين بحقد دفين للأخرى، وأن المسؤولية تقع عليهما، كما أخبرته بوضعها الحرج، وأن تدخلها بينهما يجعل من الصعب عليها أن تقوم بعملها.

«كيف برأيك نحل مشكلة المحل؟». هكذا سأل مدير الفرع الرئيس قو يا شيان.

«يجب أن ترحل إحداهما». فكرت قو يا شيان بتأن برهة وأكملت قائلة: «ألا تحتاج سوق الخضار ومحل الجزارة عمالًا؟ وجود عاملتين في محل المخللات والصلصة كافٍ في الحقيقة، ما دامت المؤسسة في حاجة إلى تغطية العمل، يمكنني ألا آخذ إجازة وأعمل على مدار الساعة».

«إذن مَن سيرحل عن الدكان؟»، سألها رئيس الفرع مرة أخرى.

«لا أستطيع تقرير ذلك، بالتأكيد سأتسبب في إهانة إحداهما». اعترتها الكثير من الشكوك، فقالت بتردد: «إن كان بإمكان المؤسسة أن تحفظ السر فسأبدي رأيي».

«لا تخافي، سنحفظ السر، علاوة على ذلك، المؤسسة هي المسؤولة عن نقل الموظفين من عملهم، فدعي عنكِ فكرة أن تهيني أحدًا».

«حسنٌ، إذن انقلوا كانغ سو يو لأنها مهملة في عملها». قالت أخيرًا.

وبهذا الشكل تقرر مبدئيًا نقل كانغ سو يو إلى محل الجزارة. وتواصل معها مدير الفرع مباشرة، وقد قابلت حديثه بالنحيب، وفكَّرت أن هذه مكيدة دبرتها قو يا شيان وسو مي شيان، واتهمت رئيس الفرع بأنه سمع القصة من طرف واحد، كما هددت بالقتل قائلة: «إذا نُقِلتُ للعمل في محل الجزارة سأقتل نفسي». كانت تعامل عدوتها الجديدة قو يا شيان ببذاءة لعدة أيام متواصلة، ولخصت دوافع قو يا شيان في كونها تشعر بالغيرة[1] من علاقتها الوثيقة مع مدير المحل السابق تسو خان تشو. وقد عمدت كانغ سو يو مرات عديدة إلى وضع زجاجات الخل أمامها: «تحبين الخل، لتبيعيه إذن»، وكلما ترى تلك الابتسامة المتكلفة على وجهها، تشعر كأنها تضمر لها نية سيئة، فتضع أمامها في الحال برطمان خل الأرز وتقول: «سأشتري هذا وأهديه لكِ لتشربيه في المنزل».

وأخيرًا لم تستطع قو يا شيان المحافظة على هدوئها ورباطة جأشها، فرفعت يدها فجأة وصفعتها صفعة قوية. «هل تعتقدين أني أخافك؟». قالت قو يا شيان وهي تمسح يدها بمنديل: «إن لسانك القذر وسَّخَ يدي».

تضمر لها كانغ سو يو الكراهية الآن، ولا تتوقف عن سبابها حالما تصل إلى المنزل وتبدأ في إعداد الطعام، وترى أن قو يا شيان تافهة، لم تعمل كمديرة للمحل إلا لبضعة أيام وتتصرف بهذا الغرور. وقررت أن تجعل زوجها ينتقم لها. وعليه اقتحم المحل مرة أخرى بسكينه، وغرسها في الكاونتر أمام قو يا شيان محدقًا إلى المرأتين اللتين بدا عليهما الاضطراب، ثم ضرب بكفه على السكين قائلًا: «لقد قوَّمتني البوذية بالرهبنة لثلاث مرات، إذا جرؤتما على إهانتها، لن أرحمكما، وسأعود إلى المعبد للتقويم مرة أخرى». وإلى حد ما، فإن عناد كانغ سو يو ومكابرتها أوقفا نقلها من العمل، وهكذا تأخر

1. الترجمة الحرفية لمعنى الغيرة في اللغة الصينية هي شرب أو تناول الخل.

الأمر، وفي النهاية تُركَ للزمن حلُّ هذه المشكلة.

لا تزال العاملات الثلاث في دكان المخللات والصلصة، ولكن تغيُّرُ الوضع كان جليًا، فقد أصبحت قو يا شيان وسو مي شيان متحالفتين دائمًا، أما كانغ سو يو فكانت بمفردها، وكانت تقول للناس: «لن أهتم لهما، ولن أغادر الدكان، لِمَ أمنحهما الرضا؟». وقد توصلت كانغ سو يو إلى نتيجة مفادها: «لا تظنوا أنهما ترتديان حذاء واحدًا، ربما تتخاصمان يومًا ما، وهما ليستا طيبتين».

نزلت جيان شاو فانغ تحمل سلة بها بضع زجاجات. وعلى الرغم من أن لوحًا خشبيًا يفصل فقط بين الطابق العلوي والسفلي، ولكنها اعتادت أن تشتري احتياجات المنزل من ملح وزيت وخل وصلصة مرة واحدة، وبهذا تعفي نفسها من ثرثرتهن، فهي لا تحب الحديث معهن، ولا تعرف كيف تتحدث معهن كذلك.

«حين سمعت صوت خطواتك، عرفت في الحال أنك قادمة». ابتسمت قو يا شيان ببلاهة وهي تأخذ منها الزجاجات ثم أردفت قائلة: «وصل وعاء صلصة الطحين المخمرة منذ قليل، طازجة للغاية، فلتشتري نصف جين، هل تودين أن تتذوقيها أولًا؟». قالت وهي تغرف مقدار نصف ملعقة.

«سأشتري نصف جين إذن»، قالت جيان شاو فانغ، وظلت ترمق وعاء الصلصة.

«لم أرَ الأخت الكبرى منذ وقت طويلة، لِمَ لا تأتي وترفِّه عن نفسها قليلًا؟ لو أنني بقيت في المنزل طوال اليوم سأمرض بالتأكيد».

«إنها مريضة»، قالت جيان شاو فانغ بتأنٍ، «تعاني من مرض القلب، كما أن التهاب المفاصل اشتد عليها مؤخرًا، تشرب الدواء المغلي طوال اليوم».

«لا عجب أني شممت رائحة دواء». انتبهت قو يا شيان فجأة، ثم نظرت إليها بحنان وقالت: «هل الدواء التقليدي فعال؟ هل ترغبين في أن آتيك بطبيب متخصص في أمراض القلب والتهاب المفاصل؟ لقد عالج ابنتي حين كانت تعاني من مشكلة في القلب».

«لا داعي، إن أختي لا تثق إلا بالدواء التقليدي ووصفة الطبيب تشانغ دونغ خو». رفضت جيان شاو فانغ اقتراحها بلباقة، ثم أخرجت النقود من محفظة سوداء حريرية، ووضعتها بخفة على الطاولة. وكانت للأختين عادة عند شراء الحاجيات، ألا تأخذا باقي النقود، فلا تلمسا يد أي شخص، سواء كان العامل رجلًا أو امرأة.

نظرن إليها وهي تخرج في هدوء ترافقها رائحة النفثالين المنبعثة من قميصها، وبعد فترة وجيزة رنت خطوات ناعمة على السلم معلنة عن وصولها إلى الطابق العلوي وعبورها من فوق رؤوسهن، حيث يقبع أعلاها ذلك العالم المغلق الغامض.

«كيف تسير في الطريق حذرة؟ وكأنها تخشى أن تؤذي نملة»، ضحكت قو يا شيان فجأة وقالت: «إنهن لا ينظرن إلى أحد على الإطلاق».

«هذه تربية»، قالت سو مي شيان بلهجة المطلع على الأمور: «لا تعرفن كم هي كثيرة قواعد عائلة جيان، لم يكن الشيخ جيان يسمح لهما بالخروج من المنزل، وحين دخلت شاو جين المدرسة كانت خادمة توصلها، كما كانت تذهب إلى مدرسة داخلية للبنات أسستها الكنيسة، وحين كبرت شاو فانغ، لم تعد تلك المدارس موجودة، فلم يسمح لها والدها بالذهاب إلى المدرسة، ربما كان يريد أن يحافظ على عفتهما قبل كل شيء، لم أكن أتوقع أنهن ستبقيان في هذا الدكان على الرغم من مرور سنوات طويلة على وفاته، وكأنهما تحافظان على خزينة».

«يا لهن من مسكينتين»، تنهدت قو يا شيان، ثم تذكرت فجأة شيئًا ما، فاقتربت من سو مي شيان وهمست لها بأمر ما، «تلك الأختان كبرتا في السن، لعلهما لم تريا أشياء الرجل إياها من قبل؟». ضحكت سو مي شيان، وربتت على كتفها قائلة: «ليس بالضرورة، الرب وحده يعلم ذلك».

أثار سلوكهما انتباه كانغ سو يو التي كانت تقص أظفارها في تلك الأثناء، وشكَّت أنهما تتحدثان عنها بسوء، فبصقت بصقة على الأرض وقالت: «مَن ضرطت؟». قبضت على أنفها بقوة وهي تنفض الأظفار المقصوصة عن الكاونتر، ثم أردفت: «يكون الضراط كريه الرائحة حين يكون مكتومًا». انبعث رنين القدور عبر فتحات السقف معلنًا عن موعد تحضير الأختين جيان للغداء، ولا حاجة إلى النظر لساعة الحائط، فالساعة الآن بالتأكيد الثانية عشرة ظهرًا.

اعتادت العاملات إيقاع حياة الأختين جيان، إذ تنقسم أيامهما المضجرة والموحشة إلى شقين، صباح كئيب، وما بعد ظُهرٍ أكثر كآبة وطولًا. سنوات متواصلة أفنيتاها على حامل التطريز، وباعتبار العاملات نساء مثلهما، فقد كن يرين أن حياتهما غير معقولة، من الصعب سبر أغوارها، وبهذا كن يقابلن حياتهن كقناص متأهب.

انتبهت جيان شاو فانغ إلى أختها الواقفة خلفها بصمت، تحمل صحنًا فيه دواء لونه أسود وتقرِّبُه من شفتيها. فالتفتت جيان شاو فانغ تلقائيًا وأدارت ظهرها وراقبت قِدر حساء اليقطين. لا تدري ما الذي يصيبها، فيداهمها خوف شديد من هيئة أختها وهي تشرب الدواء، تخاف رؤية حاجبي أختها المقطبين وبقايا الدواء السائل من بين شفتيها، تخاف سماع صوت البلع الممض ذاك. ولا تدري لِمَ تقف أختها الكبيرة إلى جانبها دائمًا حاملة صحن الدواء، كما لو أن ذلك يخفف من مرارته. «بمَن التقيتِ في

الأسفل؟». وضعت صحن الدواء على الطاولة، وسألتها فجأة.

«لم أصادف أحدًا، بمَن سألتقي على كل حال؟».

«لِمَ تأخرتِ؟ لقد ذهبتِ إلى دكان المخللات، فلِمَ تأخرتِ كل هذا الوقت؟»، غسلت فمها من بقايا الدواء ثم سألتها.

«هل تأخرتُ وقتاَ طويلاَ؟»، نظرت إليها جيان شاو فانغ باستغراب، ثم أسرعت إلى الغرفة ونظرت إلى الساعة، حيث كشف الوقت عن مدى سخافة كلام أختها، فلم تغب إلا ثلاث أو خمس دقائق. «ما بك يا أختي؟ لم أتأخر إلا ثلاث دقائق»، قالت لها.

«أشعر وكأن وقتًا طويلًا قد مر». هزت جيان شاو جين رأسها وقالت: «ربما اختلط عليَّ الأمرُ بسبب جلوسي وحدي، أشعر بأن الوقت طويل للغاية كل مرة تنزلين فيها، أشعر بالخواء، ولا أستطيع الإمساك بإبرة التطريز، لا أدري ما السبب، ربما الخوف، لكن لا أدرى الخوف من ماذا».

«جسدك واهن للغاية، لا تجهدي نفسك في التطريز، يمكنني أن أقوم بالباقي». صمتت جيان شاو فانغ لبضع ثوان، ثم رمقتها بنظرة خجلة وقالت: «إضافةً إلى ذلك، يمكن أن نعتمد على ميراث والدينا في المعيشة بدلًا عن التطريز».

«من أين لكِ بهذا الكلام الفارغ؟»، وفي لحظة تغيرت ملامح وجهها وبدت غاضبة، بسطت كفيها وسألتها: «الميراث؟ أين ذلك الميراث؟ دكان المخللات كان من الممتلكات العامة في الأصل، وصودر الذهب الذي تركته والدتنا، أخبريني أين ذلك الميراث؟ ربما سرَقْتُه؟ لكن بماذا تفيد سرقته؟».

«لا أدري، لقد سمعت بنات عماتي يقلن ذلك، والشيوخ والعجائز في الطريق أيضًا». تلعثمت جيان شاو فانغ في كلامها وهي تتحاشى نظرات

أختها القاسية. همهمت أختها بازدراء ثم قالت: «لطالما أخبرتك ألا تثقي بأحد، لكنك لا تسمعين الكلام، وتفضلين أن تعطي أذنيك لهؤلاء النسوة الثرثارات ولا تسمعين كلامي».

لم تبرر جيان شاو فانغ موقفها في البداية، بل غرفت حساء اليقطين ووضعت الصحون على الطاولة، ثم تناهى إلى سمعها برطمة أختها وشكواها. «تفضلين أن تسمعي كلام الناس، وستُخدَعين ذات يوم». قالت جيان شاو جين. وفجأة فقدت جيان شياو فانغ صبرها وراحت عنها رحابة صدرها، وأمسكت الطبق ورمته على الأرض وصرخت بحدة: «أسمع كلام مَن؟ أسمع كلام مَن؟ لقد سمعت كلامك التافه طوال عمري، ولكنك تظنين أنني لا أطيعك، ماذا تريدين أن أفعل؟ هل تعتقدين أني أعيش أيامي في هناء؟».

وصل صوت التكسير إلى الأسفل. رفعت العاملات الثلاث رؤوسهن ناحية السقف بدهشة، حيث لم يسمعن من قبل أي أصوات حادة كهذه. «اسمعن، يبدو أنهما تتشاجران، تتشاجران بالفعل»، قالت قو يا شيان.

«غير معقول، آه، تتشاجران حقًّا»، قالت سو مي شيان.

«تحشران أنفيكما في شؤون الآخرين ككلبتين تحاولان صيد الفئران»، قالت كانغ سو يو.

حين تتراجع الأمطار، تخرج الأختان إلى الفناء الخلفي للدكان، حيث تجفف شمس ما بعد الظهيرة ملابسهما وأقمشتهما الحريرية والقطنية ذات الألوان البسيطة الأنيقة باعثة لمعانًا هادئًا تحت خيوط الشمس التي تعطي ألوانًا مختلفة للحشائش وجرار المخللات والصلصة في الباحة. كانت جيان شاو فانغ ترتدي قبعة قديمة الطراز عجيبة الشكل وتجلس جانبًا تطرز وتراقب الملابس المعلقة في الباحة. كانت تلك تعليمات أختها التي تخشى أن

يمد أحدهم يده من السياج ويسرق بخفة الحرير المعلق. أحست جيان شاو فانغ بشمس بداية الصيف القوية توخز عينيها، وأبطأت من سرعتها في التطريز، وقد منحها العمل خارج المنزل إحساسًا ما منعشًا جديدًا وراحة بال رغم ذلك، لدرجة أنه خطر ببالها أن تخرج إلى الباحة حين يكون الطقسُ مناسبًا وتعمل هناك، وتطرز كل هذه الأزهار والطيور والمياه المنسابة الجارية، تطرز كل أوراق اللوتس وأزواجًا حميمين. رفرفت خيوط الحرير الملونة التي علقتها جيان شاو فانغ مع النسيم، واكتشفت أن ألوانها تبدو زاهية وساحرة بشكل استثنائي عبر ضوء الشمس. غيرت مكان جلوسها لتتجنب ضوء الشمس القوي، وكان أحدهم يراقبها ويتفرج على الأشياء المعلقة عبر نافذة الدكان الخلفية، فابتسمت لهذا الشخص الواقف هناك. كان هذا الشخص قو يا شيان، إذ كانت تراقبها منذ وقت طويل، وكانت تفكر كيف تتبادل معها الحديث، من ثم وقع نظرها فجأة على القطعة المطرزة في يدها، ولمعت عيناها.

«يا لكِ من ماهرة!»، قالت قو يا شيان بإعجاب: «تلك البطتان المطرزان تبدوان نابضتين بالحياة، وكأنهما تعومان على سطح المياه. لم أرَ في حياتي تطريزًا ممتازًا كمثل هذا التطريز». ابتسمت لها جيان شاو فانغ ابتسامة أخرى، كانت ابتسامة ودودًا، ولكنها لم ترد رغم ذلك.

«كم تكسبين مقابل تطريز قطعة كهذه؟».

«لا أكسب الكثير». ردت ردًا مبهمًا.

«ابني على وشك الزواج، وجُبْتُ كل مكان لأشتري له طقم وسائد لائق ولكني لم أجد شيئًا» تنهدت قو يا شيان، ثم أردفت بعد لحظات: «إذا كان سرير عرسه يحمل تطريزك ستحل البركة، لا أدري إن كنت موافقة على تطريز مخدتين؟ بطتين حميمتين سيكون جيدًا».

«حسن»، ردت جيان شاو فانغ بعفوية.

كان مزاجها بعد ظهيرة هذا اليوم رائقًا، وظلت تتحدث مع قو يا شيان إلى أن تلاشى ضوء الشمس ونسيت نفسها، ولم يخطر ببالها على الإطلاق أن وعدًا قطعته عرضًا سيُحدث هذا الأثر الضخم في حياتها القادمة.

في صباح اليوم التالي سُمِع طرقٌ على باب عائلة جيان المطل على الشارع. ظنت جيان شاو فانغ أنه الرجل المسؤول عن قراءة عداد الكهرباء، ولكنها فتحت الباب لتجد قو يا شيان متأبطة طقم كيس مخدات أزرق اللون من النوع المنسوج بالخيزران، وفي يدها لفافة خيط حرير ملون. لم تعر قو يا شيان اهتمامًا للحرج الذي بان على وجه جيان شياو فانغ، وقالت: «لقد أحضرت لكِ الأشياء، طرزي لي بطتين حميمتين، إنني راضية كل الرضا عن مهارتك». أخفت جيان شياو فانغ اشمئزازها، وشعرت بالغضب الشديد.

وقد وبختها أختها أثناء تطريزها للمخدتين أكثر من مرة، وكانت تنظر إلى المخدتين الزرقاوين باشمئزاز، وقالت: «هل تعملين لديهن؟ انتظري وسترين، سيأتي أي شخص طالبًا منك أن تطرزي هذا وتطرزي ذاك». فردت جيان شاو فانغ بسحنة مهمومة حزينة: «لم يكن بيدي خيار، لقد وافقت بتلقائية، لم أتوقع أن تأخذ كلامي على محمل الجد».

فقالت جيان شاو جين: «أي جد وأي هزر، إنهن يثرن المشاكل عن عمد. إياكِ أن تتعاملي مع هذا النوع من النساء، سيصيبك الأذى بسببهن عاجلًا أم آجلًا إن لم تصدقيني».

سلمت جيان شاو فانغ المخدتين المطرزتين إلى قو يا شيان خفية، واستشفت الأخيرة رغبتها، فقالت: «لا تقلقي، لن أخبرهما بهذا الأمر، إنهما جلفتان عديمتا الإحساس، إن علما بالأمر، فربما تُزعجاك بأي شيء». هزت جيان شاو فانغ رأسها بصمت، ثم شقت طريقها في الدكان المزدحم

وخرجت، واكتشفت حينها نظرات كانغ سو يو المتنبهة، وأحست بشيء من الغرابة، إلى أن عادت إلى المنزل، وأحست بالراحة قليلًا، فقد أزيح حمل شخص مزعج عن كاهلها. ولكنها لم تتوقع أن تدق قو يا شيان الباب مرة أخرى وقت المغرب.

كانت تحمل حقيبة من النايلون وتقف مبتسمة بفرح أمام الباب، ثم أخرجت من حقيبتها كعكة وبضع تفاحات. كانت جيان شاو فانغ تعلم أنها جاءت لتعبر عن شكرها لها بهدية، ولكنها صدتها، واحمر وجهها على الفور. كانت قليلة الخبرة فيما يتعلق بالمجاملات، وكانت تشعر بالإحراج الشديد. «إن رأيتِ أن الهدية غير مناسبة، ارميها بعد مغادرتي»، قالت قو يا شيان متظاهرة بالغضب. ثم حملت الهدية متجهة إلى السلالم، وتبعتها جيان شاو فانغ التي أحست بنفسها فجأة وكأنها تحولت إلى دمية خشبية، كبحتها قو يا شيان ببكرة خيط لفتها حولها، وخرج كل شيء عن سيطرتها.

وبهذا رحبت الأختان بضيفة زائرة. جلست قو يا شيان على كرسي قديم الطراز، ولم تشعر بالارتباك في هذا المناخ الصموت المتحفظ، وكانت عيناها تجولان بين الأختين والغرفة المعتمة بنظرات جذابة لطيفة. صبَّت لها جيان شاو فانغ كوبًا من الشاي، وشمَّت قو يا شيان رائحة عفن مؤذية، ولكنها مع ذلك أخذت رشفة. فكرتْ: «هذا الشاي محفوظ منذ سنوات عديدة، إن كانت هاتان الأختان المسكينتان تستضيفان الضيوف هكذا، فربما لا تعرفان أن أوراق الشاي تعفَّنت».

«صلصة الصويا التي تباع الآن كريهة الرائحة». وجهت جيان شاو جين إليها هذه الجملة، ثم غادرت الصالون إلى غرفة النوم وسحبت الستارة.

«ما هو كريه الرائحة؟». ردت قو يا شيان على كلامها، فلم تكن قادرة على فهم المعنى الصحيح لجملتها. «تقصد صلصة الصويا»، شرحت لها

جيان شاو فانغ بصوت خفيض: «إن أختي متقلبة المزاج، وتشمئز من أي شيء، فلا تؤاخذيها».

«بالطبع لا». ضحكت قو يا شيان بصوت مسموع وقالت: «ربما تشعر بالملل من جلوسها في المنزل. لأكن صريحة، أنا قلقة عليكما، تعيشان في سأم وضجر حبيستي المنزل، فماذا ستفعلان حينما يتقدم بكما العمر؟».

«لقد تقدم بي العمرُ بالفعل، وأعيش حياة هادئة، وليس ثمة ما يخيفني». خفضت جيان شان فانغ رأسها. وقد رددت هذا الكلام على مسامع الآخرين من قبل، لم يكن بوسعها الآن إلا أن تكرره مرة أخرى. تحولت الإجابة عن هذه الأسئلة إلى مَهمَّة تحملها على عاتقها، ولكنها تكره تلك الأسئلة ونظرات الشفقة في أعين الآخرين، والأمر الأغرب أنها دائمًا تنتظرها، تنتظر ذلك الألم الذي تحمله تلك الكلمات الفظة الجلفة، وفي تلك اللحظة دائمًا لا تستطيع أن تتحكم بتعابير وجهها وصوت الصريف المنبعث على مهل من بين لسانها وأسنانها. أما صوت النَّحنحة الصادر من خلف الستارة المزركشة فكان بلا شك يحمل إيعازًا بالمغادرة.

وأخيرًا نهضت قو يا شيان، وأمسكت وهي تبتسم بيدي جيان شاو فانغ اللتين كانتا مستريحتين على ركبتيها، وقلبتهما لترى راحتي اليدين الشاحبتين الماهرتين. «أجيد قراءة الطالع». مررت قو يا شيان أظفارها الطويلة على راحة كفها وقالت: «الأمور بخواتيمها، شاو فانغ، سيصيبك الحظ عمَّا قريب». لم يسعف الأخيرة الوقت لترد عليها، فسحبتها قو يا شيان إلى السلم وقالت: «لقد نسيت أن أخبرك بما جئت من أجله في الأصل، سيتزوج فو شينغ يوم الأحد، ولقد أوكلت طباخًا ليحضِّر الوليمة في المنزل، يجب أن تأتي للاحتفال معنا».

هزَّت جيان شاو فانغ رأسها مرة بعد الأخرى وقالت: «لا أستطيع، لم

نخرج من قبل لتناول الطعام خارج المنزل، ولدي الكثير من الأعمال، ولا أملك وقتًا». ظلَّت قو يا شيان ممسكة بيدها، وربتت عليها بقلق وقالت: «اقبلي دعوتي». كانت تنظر إليها بتوسل، وقالت: «دعوتي ليست وهمًا، بل أتمنى بكل صدق أن تأتي إلى حفل الزفاف، أم تريدين أن أركع لكِ أنا أختك الكبرى وأدعوكِ؟». ثم خطر ببالها شيء ما، فأضافت: «إن وافقتْ شاو جين، فلتأتيا معًا». هزت جيان شاو فانغ رأسها وابتسمت ابتسامة مصطنعة: «لن تستطيع أختي المجيء، ولن توافق على ذهابي». ألقت قو يا شيان نظرة خاطفة في اتجاه الشقة، وبدت على وجهها علامات الانزعاج والامتعاض، ثم زمَّت شفتيها وقالت: «تسمعين كلامها حتى في هذا؟ كبرتِ إلى هذه السن، ولا تملكين قرار نفسك ولو مرة؟».

أوصلتها جيان شاو فانغ إلى الأسفل، وحين فتحت الباب رأت السماء غائمة مرة أخرى، ورذاذ المطر معلَّقًا في زوايا الشارع الضيق، وكان الناس الذين لم يحملوا مظلاتهم معهم يمرون بسرعة عبر الباب. فتحت قو يا شيان مظلتها الحريرية السوداء، ثم ربتت بخفة على فخذ جيان شاو فانغ وقالت باستياء: «لِمَ لا تعطيني ردًا صريحًا؟». تذكري أن تأتي يوم الأحد لحفل الزفاف، وإذا كنتِ تشفقين على أختك الكبيرة، فلا تدعيني آتي لأدعوكِ مرة أخرى».

«حسن، سآتي». تطلعت جيان شاو وانغ إلى الأرض المرصوفة المبللة وبرك الماء الغائرة، وعيناها تتوهجان بحيرة واستسلام، وأمسكت قبضة الباب وجذبتها مرة، مرتين، فأصدر صوت صرير. «سأذهب»، قالت. استيقظت جيان شاو فانغ يوم الأحد على صوت زقزقة السنونو، نظرت إلى المنبه فلم يكن الوقت يتجاوز الساعة الخامسة، ولكنها استيقظت مع ذلك. انزلقت من تحت لحاف أختها، فسألتها الأخيرة: «لِمَ صحوتِ مبكرًا هكذا؟ لا تذهبي إلى السوق اليوم». فتحت جيان شاو فانغ النافذة الغربية، ورأت طائر

سنونو أسود أرجوانيًا يطير من عشه فوق سقف المنزل، ويدور في الباحة.

خطر ببالها أنها أخافت السنونو، لذا أغلقت الشباك بهدوء، وذهبت إلى المطبخ وفتحت باب الفرن، ثم وضعت قِدر أعشابِ دواء لتغليها. كانت لا تزال تفكر في السنونو خلال انشغالها بتلك الأعمال، ذكَّرتها هيئة طيرانه الطائشة المرتبكة بنفسها. وكانت ترى أن السنونو في عشه صورة لحياتها كاملة. «هل ستذهبين بالفعل إلى حفل الزفاف؟»، سألتها أختها بصوت عال.

«كانت دعوتها صادقة»، قالت جيان شاو فانغ، «لن يكون أمر جيدًا إن لم أذهب».

«هل تعتقدين أنكِ ستذهبين هكذا بدون تقديم هدية؟ لطالما كرهتُ هذه المناسبات الاجتماعية، أي أفراح وأي جنازات، كلها لسحب المال من جيوب الناس».

«قالت إنها لن تقبل هدايا. إن كان من الضروري تقديم هدية فليكن إذن، سأقدم لها عشرة يوانات»، قالت جيان فانغ بضجر.

«لقد بطل أوان تقديم الهدايا بهذه الطريقة. يجب أن تقدمي الهدية قبل الحفل، وإلا سيقبلونها منك ثم يشتمونك من خلفك»، ارتدت جيان شاو جين ملابسها، ولهجتها تكشف عن غضب واضح: «إن كان لا بد من ذهابك اذهبي، لكن اذهبي باكرًا لتقديم المال، هم بانتظارك».

لم ترد جيان شاو فانغ، وراودها الشك في كلام أختها، ولكن إحساسًا ما بالخديعة كان يجثم فوق قلبها كغيوم داكنة. قلَّبت قِدر الدواء الأسود الذي كان يغلي على مهل. «لن أذهب، لن أذهب»، خرج الصوت من بين شفتيها غاضبًا حادًا، حتى إنها ذهلت من نفسها، ولم تصدق أن هذا صوتها.

«لن تذهبي؟». كانت جيان شياو جين تنظف أسنانها إلى جانب زير ماء

وفمها مليء بفقاعات المعجون، يصدر عنها بين حين وآخر صوتٌ وكأنها على وشك التقيؤ. «ستكونين راضية إن لم تذهبي؟ هل ستتركك قو يا شيان وشأنك؟ إن لم تذهبي ستأتي لدعوتك، صدقيني».

«ما هذا الإزعاج، هل تريدينني أن أذهب أم لا؟». وبوجه عابس متجهم فتحت علبة أدوات زينة بها مشطان خشبيان أسنانهما حادة وزجاجة زيت شعر ماركة «الثلاث وردات» ودبوس شعر فضي. جهزت جيان شاو فانغ الأدوات لتسريح شعر أختها، وكان حدثًا كبيرًا تقوم به الأختان كل صباح. كانت جيان شاو جين وطيلة سنوات تعقص شعرها على هيئة كعكة قديمة الطراز، وكانت شاو فانغ تصففه لها.

كانت خصلات شعر أختها الرمادي الطويل عالقة في المشط، ملتفة بعشوائية حول أسنانه ككومة أعشاب جافة. أحست بالمرارة حين رأت الشعر المتساقط، وثَقُلَتْ يدُها على رأس أختها وتوقفت عن التمشيط، ثم قالت: «يا للأسف، ستُصابين بالصلع».

«ماذا قلتِ؟». استدارت جيان شاو جين ونظرت إلى أختها وقالت: «لم أقل إنك لا تستطيعين الذهاب، إذا أردتِ الذهاب اذهبي، لِمَ أمنعك؟».

«أقصد أن شعرك يتساقط، أصبح خفيفًا للغاية».

«سيكون من الأفضل أن يتساقط»، ابتسمت جيان شاو جين ابتسامة باردة وأردفت قائلة: «إذا تساقط فلا حاجة بك أن تمشطي لي شعري كل يوم».

«ليس ذلك ما قصدته، أشعر بالقليل من الخوف»، قالت جيان شاو فانغ.

«مِمَّ تخافين؟ أنا لا أخاف، حتى ولو تساقط شعري كله لا أشعر بالخوف، فأنا لا أخرج من المنزل على كل حال» التفتت جيان شاو جين

ونظرت إلى شعر أختها القصير، ثم أشاحت بنظرها سريعًا وقالت: «لا يزال شعرك أسود، مِمَّ تخافين إذا؟».

«لا أدري، لا أعرف كيف أصف لكِ». كانت في غاية الحيرة والارتباك، ويدها الممسكة بالمشط معلَّقة في الهواء، وأحست فجأة أنه ثقيل للغاية، وأن يديها وذراعيها أشد ثقلًا، مدفوعة بالعادة إلى شعر أختها الرمادي، ولكن قلبها كان في حالة مقاومة لذلك الشعر البشع الفاقد لمرونته، سواء أكان الشعر الملتف ما بين أسنان المشط، أو الباقي في رأس أختها، وكادت تصدر صوت تقيؤ. لن تستطيع أبدًا تفسير تلك المشاعر المعقدة، الشيء الذي أوقعها في حيرة شديدة. ثم استحوذت عليها حالة من الاضطراب والقلق من بداية الظهيرة.

وقفت شاو فانغ إلى جانب النافذة متطلعة إلى شارع شيانغ تشون شو بانتظار مرور عربة جهاز العروس الموشَّحة بالحرير الأحمر والمزينة مقدمتُها بالزهور، ولكن العربة تأخرت ولم تظهر، وخطر ببالها أنها سلكت طريقًا آخر إلى منزل قو يا شيان، بعدها سمعت بشكل غير واضح صوت مفرقعات من بعيد، فتنفست الصعداء. ثم أدركت فجأة أن استمرار صوت المفرقعات في يوم هكذا هو تعبير عن الاحتفال والاهتمام. بالطبع صعدت قو يا شيان لدعوتها. في البداية طرقت الباب الصغير لفترة طويلة ولكن لم ينزل أحد لفتح الباب، ثم دارت حول الدكان وفتحت ذلك الباب المغلق عادة، وقفت في الباحة ونادت عليها.

بعد ذلك ظهر وجه جيان شاو فانغ الشاحب خلف النافذة، ترمق بحيرة وامتنان في الوقت ذاته تلك المرأة الواقفة في الباحة. لوحت لها قو يا شيان كاشفة عن كُمٍّ مستعار مُدهن: «يبدأ الحفل الساعة السادسة، يجب أن تأتي، أنا مشغولة إلى حد أنني غير قادرة على تحريك قدمي، لا تجعليني

آتي إليكِ مرة أخرى». ابتسمت لها جيان شاو فانغ. ثم أردفت قو يا شيان: «فيمَ أنتِ مشغولة؟ لا تطرزي اليوم، تأنقي وتعالي إلى الحفلة»، كانت تمد جسدها من النافذة، وتبدو مترددة عاجزة عن الرد، في النهاية ردت بهدوء: «حسن، سآتي».

ازدحم منزل قو يا شيان في ذلك اليوم بالمدعوين إلى الحفل والمتفرجين، وكان على المشاة والعربات العبور بحذر من جانب تلك المجموعة المبتهجة المتبطلة. ثم رأوا جيان شاو فانغ قادمة خلف العربة التي تحمل المشروبات إلى منزل عائلة قو.

كانت ترتدي قميصًا يبدو في لونه وطرازه غريبًا، ودخلت منزل العروسين محنية الرأس. كان مجيئُها غير متوقعٍ للجميع، تتبعت العيون الظل قصير القامة، بعدها تحدثت امرأة بلهجة العارف لتقطع شكوك الناس: «إنها صديقة حميمة لقو يا شيان».

استحوذ عليها الندم ما إن دخلت، وبعث ازدحام المنزل وصخب الاحتفال الخوفَ في نفسها، لم تدرِ أين تجلس، ولم تعرف مع مَن تتحدث. رأت قو يا شيان تحمل الأطباق إلى الباحة حيث شُيِّد مطبخ مؤقت، فذهبت إليها. «ها أنتِ ذي، اذهبي وتناولي كوب شاي».

حيتها قو يا شيان ولكن يديها لا تزالان مشغولتين بشيء ما. احمرت وجنتا شاو فانغ وأخرجت من حقيبتها مظروفًا أحمر ووضعته على طبق. قالت قو يا شيان متظاهرة بالغضب: «انظري إلى نفسك، لِمَ هذا؟ طلبتُ منكِ ألا تحضري هدية، ومع ذلك أحضرتِ وأحرجتني».

هزت جيان شاو فانغ رأسها وجالت بعينها في المكان وقالت: «المكان صاخب للغاية». ضحكت قو يا شيان بفرح وقالت: «لا بد أن يكون يوم

الزفاف صاخبًا، شياو فانغ، اذهبي إلى منزل فو شينغ واستمتعي بوقتك، العروسان هناك».

وصلت إلى مدخل المنزل، وكان الضيوف أكثر عددًا، وصوت ضجيجهم أكثر صخبًا، فاستدارت وغادرت. كان شعور بالخديعة يستحوذ على قلبها، ولم يكن في منزل قو مكان يناسبها، ولم تعلم السبب وراء مجيئها.

حين بدأت الوليمة لم تجدها قو يا شيان في مقعدها، وأخبرها أحدهم أنها غادرت. خبطت بقدمها على الأرض غاضبة وقالت بسخط: «هذه المرأة المخبولة!»، ثم انطلقت للبحث عنها. عثرت عليها أمام باب الصيدلية، وسحبتها عائدة. «شاو فانغ، ما الذي تفعلينه؟ اشتميني إن أهملتك، لكن كيف تغادرين الحفل؟».

أطرقت شاو فانغ محرجة، تاركة قو يا شيان تسحبها وهي تتمتم قائلة: «أنا فقط أشعر ببعض الخوف، المكان مزدحم جدًا، وأنا لا أدري ما الذي يجب علي فعله أو قوله في مناسبات كهذه».

ضربت قو يا شيان على فخذها قائلة: «هيه، يا لكِ من امرأة، لقد دعوتكِ للاحتفال، ألا يكفي أنك تجلسين صامتة؟ لا يمكنك أن تغادري، أريد أن أعرِّفَكِ إلى شخصٍ اليوم».

عادت شاو فانغ إلى منزل قو وسط نظرات الضيوف المرتابة المفعمة بالتخمينات. أمسكت قو يا شيان يدها وعبرتا من بين ست طاولات، حتى أجلستها على مقعد فارغ: «حسن، اجلسي إلى جانب المعلم جانغ». ثم ضغطت بقوة على كتفها قائلة: «المعلم رجل صادق، اعتنيا ببعضكما بعضًا ودردشا، ولا تتحرجا».

قدَّرت جيان شاو فانغ من طرف عينيها أنه رجل أربعيني يرتدي نظارة.

حنت رأسها، وأخرجت من حقيبتها منديلًا مبللًا ومسحت عصيَّ الطعام، ثم وقع نظرها على قدميه، حيث كان مرتديًا حذاء «التحرير»[1] واسع المقاس، وهذا الزي غير الملائم للمناسبة جعلها تبتسم.

لم تنظر مرة أخرى إلى حذائه، بعدها رأت يده تمتد بحذر ناحية صحنها ووضع لها قطعة لحم مملح، وسمعته يقول لها بالطريقة الحذرة ذاتها: «كلي». وهي تكره اللحم المملح، لكنها ردت عليه بتهذيب: «كُلْ أنت، أنا لا أتناول اللحم المملح». لم تنظر إليه وجهًا لوجه طوال المدة التي جلستها، وتذكرت لهجة قو يا شيان منذ قليل، فاندفعت موجة ساخنة غمرت وجهها، وحين رمت المناديل المبللة التي استعملتها على الأرض خفية سمعته يقول: «الاهتمام بالنظافة أمرٌ مهمٌ للغاية». وهو ما ترك في نفسها انطباعًا عميقًا.

فيما بعد تذكرت تفاصيل تعارفها بالمعلم جانغ، وكان انطباعها الحسن قد نشأ بداية من تلك الجملة.

مرت كانغ سو يو قبل الذهاب إلى عملها بمحل الحرير، ورأت أنواعًا مختلفة وجديدة من الحرير مصفوفة في الفترينة، فدخلت وبالتالي تأخرت عن عملها. وحين وصلت إلى دكان المخللات، كان هناك زبون يشتري صلصة صويا، وقو يا شيان وسو مي شيان موجودتين، فذهبت مباشرة إلى ورشة الحداد، لترَ هل انتهى من سن سكين التقطيع أم لا ما دامت تأخرت عن العمل، وطالما سجلتا تأخيرها في بطاقة الحضور والانصراف. وإذ عادت كانغ سو يو إلى المحل حاملة سكين التقطيع، سمعت سو مي شيان تنطق باسم حساس: تسون خان تشو. انقبض قلبها، ووقفت خارج الباب تتنصت على كلامهما، ولكن صوت سو مي شيان انخفض فجأة، ولم تستطع

1. «حذاء التحرير» ظهر في خمسينات القرن العشرين مع بداية صناعة المطاط في الصين، واستعاض جيش التحرير في ارتدائه عن الأحذية القماشية، وأصبح علامة مميزة للجيش حينها.

سماع شيء. وعلى الرغم من أنها لم تستطع سماع ما يُقال، إلا أن أصوات الضحكات جعلتها تخمن أنهما تتحدثان عنها بسوء.

وساد الصمت في المكان حالما دخلت كانغ سو يو، ونظرتا إليها بطريقة مختلفة. جعلت كانغ سو يو تُحدث جلبة عند الكاونتر؛ تربط المريلة، تضع الأكمام المستعارة، ثم فجأة أمسكت السكين وضربت على المنضدة قائلة: «مَن ستثرثر بكلام من ورائي سأقطع لسانها بهذه السكين، سأقطعه بالفعل، لا أخاف من المحاكم» كانت شفتاها ترتجفان، ونظراتها مفعمة بتحدٍ حانق، مركزة على سو مي شيان. ولكن الأخيرة لم تكترث لها، وبهدوء وضعت كيس جزر في سلة زبونة وقالت: «الطقسُ سيء للغاية اليوم، حار وخانق، واليرقات تملأ الحمَّام، شيء مقرف جدًا».

وقفت كانغ سو يو طوال اليوم مستندة على أرفف البضائع، تلقي نظراتها بين وقت لآخر على سو مي، وفي عينيها بريق. كانت مزاجها غريبًا بعض الشيء، حتى إن قو يا شيان وسو مي شيان انتبهتا إلى ذلك، ولكن لم تأخذ إحداهما حذرها، فتلك الملاسنات بينهن دائمًا ما تحدث. ازدحم شارع شيانغ تشون شو مرة أخرى بعد الساعة الرابعة عصرًا، وعبر العمال الذين انتهوا من عملهم في المصانع مجموعات من أمام مدخل دكان المخللات، ودخل البعض إلى الدكان، في ذلك الحين تركت كانغ سو يو الكاونتر، وسألت رجلًا عند المدخل إن كان زوجها لاو سونغ عاد إلى المنزل أم لا، فقال ذلك الرجل: «نعم لقد عاد، ويلعب الشطرنج أمام المنزل». فابتسمت كانغ سو يو، والتفت موجهة حديثها إلى قو يا شيان: «حسن، سأذهب الآن، سجلي في بطاقة الحضور والانصراف أنني وصلت متأخرة وغادرت مبكرًا».

فتحت قو يا شيان البطاقة وأمام اسمها وضعت علامة X، وقالت: «لم أرَ في حياتي شخصًا سمجًا كهذه، لم ترغب في ترك العمل، ولا تشتغل وهي

موجودة» كانت تشتكي ونفسها يتقطع في لهاث، وبغتة رأت سكين التقطيع على الكاونتر فأمسكتها بخفة وقالت: «تلك الجلفة، لِمَ تأتي بسكين كهذه هنا؟ امرأة غريبة، تستطيع فعل كل شيء».

ردت سو مي شيان: «لا تقربي السكين، اتركيها هناك حتى يعرف الناس تلك الجلفة المكابرة، لا أصدق أن لها الجرأة أن تهاجمني بسكين». لم تكد سو مي تنتهي من حديثها، حتى رُكِلَ باب الدكان، ودخلت كانغ سو يو وفي أعقابها زوجها.

«سو مي شيان، ارفعي عليَّ قضية لأنني سأقطع لسانك»، صرخت كانغ سو يو والتقطت السكين من على الكاونتر، وأرادت قو يا شيان أن تأخذها منها ولكن فات الأوان، فدفعت سو مي شيان إلى المخزن: «مي شيان، اختبئي بسرعة». ترنحت مي شيان وتراجعت ناحية المخزن، وخطر ببالها أن تمسك بيد قو يا شيان، ولكن كانغ سو يو هاجمتها، ضاربة جسدها بأكمله على باب المخزن، ثم نادت على زوجها: «يا مغفل، تعال أمسكها أريد أن أقطع لسانها الوسخ».

اقترب لاو سونغ وكتَّف ذراعيها، ثم قالت كانغ سو يو: «افتح فمها، سأقطع لسانها الوسخ». وحين همَّ لاو سونغ بفتح فمها عضَّت سو مي يده عضة شرسة، وفي الوقت ذاته وجهت ضربة إلى خصيتيه، فانتفض من الألم. حنت سو مي شيان جسدها، وأمسكت في خناق كانغ سو يو، حينها سُمعت قو يا شيان تصرخ بحدة: «قاتل، قاتل!».

تدفق المارة إلى الدكان لفض هجوم زوجة لاو سونغ على سو مي شيان، وانتزع أحدهم السكين من يدها، ورماها من شباك المخزن إلى فناء الأختين جيان. أُبْعِد المشتبكون واحدًا واحدًا، ولم يصب لاو سونغ بجرح ظاهر، أما كانغ سو يو وسو مي شيان فكان وجهاهما يحملان آثار خربشة ودماء. كان

الدكان مزدحمًا بالناس المتطلعين إلى هؤلاء الثلاثة، وبدأوا في الثرثرة والنقاش حول الأمر. وبصرامة وحدة وبَّخت قو يا شيان لاو سونغ ذا الوجه المكدر، أشارت بإصبعها إلى أنفه قائلة: «يا لك من شخص تعيس الحظ، رجل كبير مثلك يتدخل في أمور النساء ويفضها بخرق وطيش، هل تعتقدان أنكما لن تدفعا الثمن إن قتلتما أحدًا؟».

«لم أرد قتلها، أرادت سو يو أن تقطع لسانها فقط، لقد جئت مضطرًا».
كان يغطي بيده بنطلونه من الأمام، ويرد بوهن.

«قطع اللسان يعني قتل الشخص، ثم إن لم يستطع المرء حل مشكلة، فهل القتل حل؟ يا قاتل، قاتل، لقد أثرت الفوضى».

بدا لاو سونغ في ضيق شديد، ويده تلمس بنطلونه، ثم ضحك بمرارة قائلًا: «ومع ذلك هي شرسة للغاية، لم ألمس شعرة منها، ولكنها ضربتني في خصيتي، هل أخلع لك البنطلون لتشاهدي؟».

ضحك كل الموجودين في الدكان، أما قو يا شيان فغطت فمها بيدها ولم تمنع نفسها من الضحك. وحين فكرت في الأمر وجدت أن الضحك ليس مناسبًا، ولهذا تحدثت بصرامة: «ليس من الجيد أن يستمر الوضع بينهما هكذا، سأخطر الرئيس بما حدث. أنا المسؤولة عن الدكان، ولن أتحمل المسؤولية إن فقد أحدهم حياته».

في هذا اليوم أغلق الدكان أبوابه متأخرًا، واكتشفت قو يا شيان أن عددًا من برطمانات المخلل والبهارات وأكياس الملح سرق من على الأرفف ما إن فرغ الدكان من الزبائن. ففكرت أن تضع اللوم على كل من كانغ سو يو وسو مي شيان، وأن تدفع كل منهما ثمن هذه الخسائر.

اكتشفت جيان شاو فانغ السكين على أرض الباحة لدى خروجها

لنشر الملابس، فحملتها ووضعتها في جرة ملقاة على الأرض، ولم تربط بين السكين المرمية والجلبة التي حدثت قبل عدة أيام في الدكان، فلم تكن لديها عادة التفرج على شجارات الجيران، كانت قاعدة قديمة من قواعد عائلة جيان. وقد سمعت الضوضاء مغرب ذلك اليوم، وفكرت أن تنزل لتعرف ما يجري ولكن أختها منعتها.

«فقد أحدهم سكينًا» أخذت السكين معها حين صعودها، وجربت شفرتها.

«لا تزال جديدة، ضعيها في المطبخ، يمكن أن نستخدمها لتقطيع السمك والخضار»، قالت جيان شاو جين. علقت شاو فانغ السكين على مسمار، ولم تدرِ كيف وصلت تلك السكين إلى فناء منزلها، وإنه لأمر غريب بالفعل. أما أختها فكانت متذمرة من نوبة البرد التي ألمت بها وأثارت آلام الصداع، وهو ما جعل مزاجها أكثر قتامة واهتياجًا.

اقترحت عليها شياو فانغ أن تخلع عنها البلوزة الزرقاء الثقيلة والبنطلون الأسود: «أنت لا تخرجين من المنزل، والجو حار، فلِمَ ترتدين ملابس ثقيلة؟ البسي ما يحلو لك فلن يراك أحد». ولكن أختها قابلت اقتراحها بأذن صماء، مستلقية على السرير الكبير تهز مروحة من التيفا بكسل، وتضع إلى جانبها راديو قديم الطراز له غطاء خشبي. كان يبث لحنًا حزينًا من أوبرا يويه (دبوس الشعر الزمردي)، كان المقطع المعروف «أن تحاول تغطية حبيبها من البرد ثلاث مرات».

«أي تغطية للحبيب؟». أطفأت الراديو فجأة، وهمهت بسخرية: «الآنسة يان قذرة، وضيعة قذرة».

«هذا سيناريو أوبرا فحسب، لا تأخذيه على محمل الجد».

«مهما كان، الرجال أكثر بغضًا». تنهدت جيان شاو جين، ثم دهنت جبينها بمسحات من زيت النعناع المُبرِّد، ثم قالت: «الصداع شديد، وكأن الحرارة لا تبدد، شاو فانغ، تعالي دلكي رقبتي».

استجابت لها جيان شاو فانغ وأحضرت وعاءً من الماء البارد، وساعدت أختها في خلع ملابسها، وانشكف أمام عينيها جسد أختها العاري ناصع البياض المترهل، كل جزء منه تلمسه بارد ناعم، وتظهر على جانبي عمودها الفقري البارز آثار القواشا المحمرة من المرة السابقة. بخت جيان شاو فانغ مقدارًا من الماء على ظهر أختها التي كانت جالسة بسكون، أما هي فكانت ترتجف، وظلت يداها معلَّقتين في الهواء لفترة طويلة إلى أن لامستا جسد أختها، وبدأت تجر مفاصل أصابعها على جلدها الناعم، إلى أن تركت علامة حمراء ظاهرة، وظلت أصابعها ترتجف كذلك، وفي قلبها شعور بألمٍ يُثقل عليها.

«اضغطي أكثر، ستكون القواشا بلا نتيجة إن لم تضغطي أكثر». ثم أَنَّت أنينًا خفيفًا، وأمسكت يد المروحة ودقت على السرير. «ما بكِ اليوم؟ تفعلين كل شيء وأنتِ شاردة».

«لا أدري، أنا تَعِبة بعض الشيء». ردت بتمهل ثم أدارت وجهها ونظرت خارج النافذة، ثم عادت ونظرت إلى أصابعها، كانت لا تزال ترتجف بعض الشيء، فهزت رأسها، ثم وضعت أصابعها التي فقدت السيطرة عليها على ظهر أختها وقالت: «السماء غائمة اليوم أيضًا، والملابس في الباحة، أخاف أن تمطر».

كان الشباك مواربًا، وتسللت منه ريح الجنوب الرطبة الحارة، ومعها دخلت ذبابة إلى الغرفة، الذبابة التي كانت السبب في اهتياج جيان شاو فانغ وإطلاق الغضب المكبوت داخلها.

شاهدت الذبابة تطير داخل الغرفة وتطن، ثم ظلت تدور أمام جبهتها بصبر، أزاحتها بيدها، ارتفعت الذبابة قليلًا، لكنها لم تبتعد، فأزاحتها جيان شاو فانغ بيدها مرة أخرى، وكررت ذلك أكثر من مرة، ولكن الذبابة ظلت معلَّقة في الهواء تطن بإصرار على ارتفاع بسيط من جبهتها، فلم تستطع الاحتمال أكثر، وصرخت قائلة: «يا شيئًا كريهًا، اخرجي».

«اتركيها تذهب». خنقتها الضجة التي تحدثها أختها بسبب شيء تافه فقالت: «اتركي الذبابة وأكملي».

«لا، أريد أن أقتلها». ثم نزعت فجأة المروحة من يد أختها، وبغضب لوَّحت بها نحو الذبابة التي ظلَّت تدور على ارتفاع منخفض في الغرفة، ثم خرجت في النهاية من الشباك. ألقت جيان شاو فانغ المروحة وتبعت الذبابة، ثم شتمت تلك النقطة السوداء شتيمة تؤذي السمع: «X ملعونة لا تهلك». صعقت جيان شاو جين من المفاجأة، والتفتت متفحصة وجه أختها الشاحب، وعيناها تتأججان بنظرات ارتياب ورعب وقالت: «شاو فانغ، كيف لكِ أن تتلفظي بكلماتٍ كهذه؟».

«ما الذي قلته؟ هل شتمت شتيمة قبيحة؟»، ردت جيان شاو فانغ بشرود، ثم مشت ببطء إلى السرير وجلست، وأرادت أن تكمل القواشا لأختها، ولكن الأخيرة أبعدت يدها. «يا للخزي، إنه لمن العار أن تسبِّي». ثم لاحت على وجهها ابتسامة ساخرة وقالت: «إنك تشبهين العاملات في الدكان، وإلَّا فكيف لك أن تسبِّي بهذا الشكل؟».

«لا أعرف ماذا حدث لي، إنني أكره تلك الذبابة».

«تكرهين الذبابة؟»، ردت جيان شاو جين بسخرية، ثم بدأت في ارتداء ملابسها، وقالت: «أعلم أنك تصادقين قو يا شيان، وهي تحب التعريض بالكلام، تتعلمين منها الآن».

«ما الذي فعلته لك لتكرهيني هكذا؟ لقد شتمت الذبابة، لم أشتمك».
سكتت جيان شاو فانغ برهة، ثم قفزت فجأة وشرعت في صراخ حاد: «لم أشتمك، كيف أجرؤ على شتمك؟». وانخرطت في بكاء ونشيج، بدا صوت بكائها مبحوحًا خاويًا، متبوعًا بشكوى مكررة: «كيف أجرؤ على شتمك؟ كيف أجرؤ على شتمك؟ أشتم الذبابة، وأشتم نفسي».

ولم يهدأ مزاجها إلا بعد موجة البكاء الحادة. ذهبت إلى المطبخ وغسلت وجهها، ورأت أختها مستندة إلى الحائط تمسح عينيها بفوطة، وكان ظاهرًا أنها بكت كذلك، وبدت عيناها منتفختين. أخذت جيان شاو فانغ فوطتها وخرجت، وأغلقت الباب بقوة.

وقفت أمام المرآة المدورة المعلقة على الحائط وتأملت وجهها، كانت صورتها في المرآة دائما تظهر بسحنة مهمومة حزينة، ربما كانت تلك التعابير محفورة على وجهها على الدوام وهي لم تعرف فحسب.

أثارت الدموع الرطبة على خديها في نفسها إحساسًا بالشفقة على الذات، رفعت وجهها ولمسته؛ ولمست حاجبيها الخفيفين الرفيعين، وجفنيها المنتفخين المرتخيين قليلًا، أنفها الدقيق الطويل الشامخ وشفتيها الناعمتين الشاحبتين. «هل يستحق الأمر كل هذا العناء؟». ثم انهمرت دموعها مرة أخرى، ورسمت على المرآة بإصبعها علامة. ولم تدرِ منذ متى وهي تكره وجهها في المرآة.

بعد الظهر طرقت قو يا شيان الباب، ترددت جيان شاو فانغ برهة، ثم فتحت الباب أخيرًا وسط نظرات أختها الحادة «عرفت مَن الطارق على الفور».

«لقد تعبت من الوقوف»، كانت قو يا شيان دائمًا مبتهجة ذات وجه

صبوح، فغمزت لشاو فانغ وقالت: «هل من شيء مفيد تفعلانه طوال اليوم؟».

«لم نعرف أنه أنت». سمعت جيان شاو فانغ هذه الكلمة الجارحة، وبدت ملامح وجهها شاحبة نوعًا ما.

«حسن، لا بد أن أرد ردًا بذيئًا»، قالت قو يا شيان، وقرصت وجهها وقالت: «لا تغضبي، إنني أمزح. لقد جئت لأعطيك تذاكر عرض أوبرا».

«أي تذاكر أوبرا؟»، لم يكن لديها علم بما يجري.

«عرض لأوبرا يويه في مسرح شين فينغ، ممثلوه مشهورون. استطعت العثور على تذكرتين بصعوبة، سأنتظرك مساء عند المسرح. إنني أدعوكِ، سأنتظرك الساعة السابعة مساء». ودسَّت في يدها تذكرة.

«إنني لا أحب أوبرا يويه، أعطي التذكرة لأحد آخر»، رفضت جيان شاو فانغ دعوتها، وأصابتها أشد حيرة وهي تمسك التذكرة: «أنت تعرفين أنني لا أخرج ليلًا»

«لا تخجلي، لقد كنتما تستمعان إلى الراديو طوال اليوم، وكانت بلا شك أوبرا شاوشينغ عن الحب»، ولاحت على وجهها ابتسامة مريبة، ثم أمسكت بيدي جيان شاو فانغ وهزتها قائلة: «لهذا دعوتك».

«كنا سنذهب معًا، ولكني أود زيارة ابنتي، فاذهبي بمفردك، أنت كبيرة، لن يخطفك أحد». لم تعد جيان شاو فانغ إلى الجدل عديم الجدوى، وفكرت في أمر ما ثم دست التذكرة في محفظتها الحريرية وسألت فجأة بصوت هامس: «أي مسرحية ستُعرَض؟ (دبوس الشعر الزمردي) أم (المقابلة في الشرفة)؟».

«إنهما مسرحيتان جيدتان على كل حال، ستعرفين حين تذهبين». وارتسمت ابتسامة على شفتيها.

انتبهت إلى نظرات أختها الباردة في أثناء وضعها المناديل الورقية ومنديلًا قماشيًا في حقيبتها، لكن لم تعرها اهتمامًا، فقد اعتادتا على فترة فتور بعد كل مرة تتشاجران فيها، أقصرها ثلاثة أيام، وأطولها أسبوع. ولكن جيان شاو فانغ كانت البادئة في كسر هذا المناخ الثقيل هذه المرة، حملت حقيبتها وقالت: «سأذهب لمقابلة قو يا شيان، الدواء يغلي على الموقد». رفعت أختها حاجبيها ولم ترد، وسمعتها جيان شاو فانغ تقول ما إن وصلت إلى السلم بغيظ: «لقد قبضت قو يا شيان على روحك، فهل تهتمين لدوائي؟».

جاءت جيان شاو فانغ قبل موعدها بربع ساعة إلى مسرح شين فينغ، وداهمتها ذكريات مُضبَّبة حين كانت تأتي مع والدتها لتحضر عرضًا مسرحيًا هنا، وبعد سنوات عديدة وجدت نفسها تقف على مدخل المسرح تنتظر قو يا شيان. وإلى أن رن جرس بداية العرض، لم يُرَ للأخيرة أثر. دخلت مترددة وبحثت عن مقعدها وجلست، ثم رأت فجأة المعلم جانغ يأتي ناحيتها حاملًا زجاجتي ماء. في تلك اللحظة خفتت الإضاءة، وحجبت العتمة وجهها المحرج. راقبته وهو يجلس بشكل أخرق إلى جانبها، كان يرتدي قميصًا أبيض غدا باليًا من كثرة ما غُسِل، وشمَّت رائحة عرق خفيفة تفوح منه، ثم ببطء نظرت إلى الأسفل، حيث كان لا يزال مرتديًا حذاء التحرير ذاك.

«ظننتُ أنك قو يا شيان». أحست بحرارة تنضح من وجهها، وابتعد جسدها في حركة تلقائية. «اشربي القليل من الماء، الجو حار اليوم» ناولها الزجاجة.

«لا أرغب، شربت في المنزل». أبعدت الزجاجة قائلة. «اشرب أنت».

«لن أشرب. لقد اشتريتها من أجلك، سأضعها جانبًا ما دمتِ لن تشربي». قال هازئًا من نفسه، ثم دس الزجاجتين في مقعده. كان الأمر واضحًا أن قو يا شيان رتبت لها موعدًا غراميًا دون استشارتها.

نظرت جيان شاو فانغ إلى الستارة الأرجوانية التي ترتفع شيئًا فشيئًا، وتعالى صخب الممثلين والممثلات في أزيائهم الملونة، ولكن تفكيرها كان مشوشًا، ثم صدر صوت مبهم وحاد من مكان لا يُرى، يأمرها أن تترك المكان، ولكنها اكتشفت عجزها عن إطاعة هذا الأمر، ولم تستطع أن تنهض وتغادر. وحاولت جاهدة أن تتابع مشهد الحب على خشبة المسرح: شاهدت الممثلة الشابة تغطي نصف شفتيها بوشاح حريري أخضر، وتبث بحزن ما في فؤادها من مشاعر حب جياشة، وبلا سبب امتلأت عيناها بالدموع منسابة على خديها.

هذا النوع من المسرحيات العاطفية يثير الرفيقات، ومعظمهن رقيقات الفؤاد. قال الأستاذ جانغ بصوت هامس: «لم أر إلى الآن أي شيء ذا معنى، لا أدري ما الخطب في المسرح اليوم».

«لا أدري ما خطبي كذلك، إن هذه المسرحيات تثير فيَّ الرغبة في البكاء». أخرجت من حقيبتها منديلًا وجففت عينيها، وتذكرت أمرًا فجأة وقالت: «لا أدري متى سينتهي العرض، أخشى يفوتني الباص».

«لا تقلقي، سأحملك على دراجتي وأوصلك إلى المنزل»، قال الأستاذ جانغ.

«لا ليس ملائمًا، فلننتظر حينها»، ثم أشاحت بوجهها ناحية خشبة المسرح مرة أخرى، وسمعت دقات قلبها تدق بسرعة وبعنف، وصاحبها شعور بالحيرة والارتباك طوال هذه الليلة.

خلال الاستراحة أنير المكان مرة أخرى، ووقع بصرها على شخص ما في الصف الأمامي يتطلع ناحيتها، فأحست بشيء من الخوف فجأة، وبرمت الحقيبة القماشية الموضوعة على ركبتها وقالت: «تأخر الوقت، يجب أن أعود إلى المنزل».

«لم يمض أكثر من نصف العرض». تطلع الأستاذ جانغ باستغراب إلى وجهها وأردف قائلا: «أعلم أنكِ جئتِ بصعوبة، وما دمتِ هنا أكملي العرض إلى نهايته، وسأوصلك إلى المنزل مهما تأخر الوقت، لقد نبهتني الأخت قو».

«سأكمله للنهاية إذن»، قالت جيان شاو فانغ مترددة، ثم أضافت: «إنني قلقة على أختي فهي وحدها في المنزل».

«وما المقلق في ذلك؟»، ضحك الأستاذ جانغ وأكمل قائلًا: «أختك ليست طفلة، كما أنه لا بد أن تستمعي بحريتك، لا يجب على أختك تقييدها».

«لا يفهم الآخرون أمور عائلتنا»، قالت بعد فترة صمت. وبقيت صامتة حتى انتهى العرض.

وبث جملتها فيه الحرج والقلق، فهو لا يعلم ما جرحها. وبالطبع لم تكن هناك مواصلات عامة بعد انتهاء المسرحية، ولم توافق على ركوب دراجته، فاضطر إلى دفع الدراجة والمشي خلفها.

كان الاثنان يسيران ليلًا على مهل في الطريق الهادئ، لا يسمعان إلا صوت بقبقة الماء في زجاجتي الماء اللتين لم تُفتحا والموضوعتين في سلة الدراجة. وما إن أوشكا على الوصول إلى مدخل شارع شيانغ تشون شو، سألته جيان شاو فانغ عدة أسئلة أساسية، فأحس بالراحة.

«في أي سنة توفيت زوجتك؟»، سألت جيان شاو فانغ.

«السنة الماضية، في حادث سيارة»، أجاب المدرس جانغ.

«كم عمر ابنك؟»، سألته مرة أخرى.

«في المرحلة الثانوية، ولكنه يمكث مع جده وجدته معظم الوقت».

«مسكين»، تنهدت جيان شاو فانغ، ثم وقفت إلى جانب عمود نور، وخمشته بأصابعها وقالت: «ويبدو أنك شخص مسكين كذلك».

وكما كان متوقعًا، جاءت قو يا شيان في اليوم التالي لتسألها عن رأيها في الأستاذ جانغ. كانتا تقفان عند السلم وتتحادثان تجنبًا لأذن جيان شاو جين المتلصصة. كانت المراوغة تبدو في عينيها، وتحيد في حديثها عن الموضوع الأساسي، وهو ما بث الغيظ في نفس قو يا شيان، فضربت على فخدها قائلة: «لا فائدة من مساعدة شخص مثلك، إن لم تفصحي عن رأيك بصراحة، اعتبري إذن أن قلبي الدافئ براز كلاب، وأنني أدس أنفي في شؤون غيري ككلب يصطاد الفئران».

مضت قو يا شيان في دفعها إلى الكلام، حتى باحت بالحقيقة في النهاية. خفضت رأسها وقالت على مهل: «إنه شخص طيب للغاية، وصادق للغاية».

«أَليسَ هذا جيدًا؟»، ضحكت قو يا شيان، وهمست قائلة: «نرتب موعدًا آخر إذن؟».

«لا». وامتزجت تعابير وجهها بحزن شديد، وأردفت قائلة: «عشتُ وقتًا طويلًا من عمري هكذا، وسأعيشُ ما تبقى منه كما أنا».

«لا، لا أرى ذلك مناسبًا». هزت قو يا شيان رأسها باستياء، من ثم ألقت نظرة على السلم وقالت: «شاو فانغ، لِمَ أنتِ بهذا القدر من الغباء؟ هل أنت راغبة في أن تكوني خادمة لها طوال حياتك؟ إن كانت المعاناة هي رغبتها فهذا شأنها إذن، ولكن، لِمَ تدفعك إلى تحمل هذه المعاناة أيضًا؟».

«لقد أسأتم الفهم»، دمعت عيناها، والتفتت وخطت خطوة اتجاه السلم، ثم همست قائلة: «ليست أختي هي السبب، بل أنا السبب لأنني أخاف، أخاف من الرجال منذ صغري».

«شياو فانغ، أنتِ مخطئة»، ابتسمت قو يا شيان ابتسامة دافئة مرة أخرى وقالت: «إنني أعتقد أن الرجال أسهل ما يكون التعامل معهم، لا داعي للخوف منهم، بل هم يعتقدون أن النساء مخيفات»، وفي اللحظة التي أخذت فيها يان شاو فانغ الخطوة الثانية اتجاه السلم أمسكتها قو يا شيان من طرف ملابسها وتفصحتها برهة وقالت: «قابليه يوم الأحد في الحديقة العامة، ما رأيك؟».

وقفت جيان شاو فانغ في مكانها مبهورة، وبحركة عفوية قبضت على طرف ملابسها المشدود، لتعطيها في النهاية إجابة حاسمة: «سأقابله مرة أخرى إذن».

أحست قو يا شيان أنها ستنجح في دورها كخاطبة هذه المرة، وغمرتها الفرحة على الرغم من أنها قامت بهذا الدور مراتٍ كثيرة. بدا وكأن الطقس الممطر على وشك الانسحاب، وكان المطر يتساقط رذاذًا خفيفًا يومًا بعد يوم، وتسطع الشمس بشدة يومًا فآخر. وكان صوت زيز الحصاد خارج النافذة يطن من الصباح إلى المساء، الشيء الذي أكسب الهواء الساكن حرارة أكثر، وجعل المارة في مزاج أكثر كآبة. وإلى أن تفتح النافذة وقت الغروب، يكون بإمكانك أن ترى شارع شيانغ تشون شو وقد انتشرت فيه جموع الناس المروِّحين عن أنفسهم ومختلف المراتب الملونة.

كان دكان المخللات خانقًا، وحلَّق البعوض من جرار صلصة الصويا القديمة مخترقًا سلك النافذة المهترئ، ودائرًا متخبطًا حول المصباح، وهو ما اضطر جيان شاو فانغ إلى إشعال البخور الطارد للبعوض، وفي تلك اللحظة، باغتتها شجاعة مفاجئة، وأفشت كل مكنونات صدرها إلى أختها.

في البداية لم ترد جيان شاو جين، وحدجتها بنظرات حادة، نظرات تلمع تارة، وتنطفئ تارة أخرى. كانت تستمع طوال الوقت، إلى أن انتهت

أختها من الكلام، وحنت جسدها اتجاه النافذة وابتسمت ابتسامة هازئة.

«إذن فهو رجل سيتزوج للمرة الثانية، هل ترغبين في الزواج من أرمل؟».

«إنه شخص طيب، صادق ومتعلم، لقد تبينت هذه الأمور بعناية»، قالت جيان شاو فانغ.

«تريدين الزواج من رجل كهذا؟».

«إنه شخص طيب»، أوشكت جيان شاو فانغ على البكاء، وردت متلعثمة: «كما أنه ليس لدي حق الاختيار».

«هل أنت مُتعجِّلة على الزواج إلى هذا الحد؟»، قالت جيان شاو جين.

«أنا مُتعجِّلة؟ تقولين هذا الكلام رغمًا عنكِ»، ثم انفجرت باكية، وركعت على الأرض، وهي تدقها بيدها وتقول: «تجاوزت الأربعين عامًا، وتقولين أنني متعجلة؟ كيف تقولين هذا؟ إن كنتُ متعجلة لتزوجتُ منذ زمن، أَتستحقُ الحياة المملة بصحبتك العناء؟».

«اذهبي وتزوجي إذن، لا أريدك معي، لم أطلب منك أن تظلي بصحبتي»، نهضت من الكرسي الخيزران وشفتاها ترتجفان، ويديها تمسكان بكتف أختها: «اذهبي وتزوجي، اخرجي من منزل جيان على الفور».

أسندت أختها ودفعتها خارجًا وقالت: «اخرجي على الفور، اذهبي وعيشي مع رجلك». وهكذا اشتبكت الأختان في شجار حاد، وبدتا شاحبتين، يغلبهما الحزن واليأس. وكان شجارًا ارتجت بسببه أرضية المبنى المتصدعة، ووقعت صورة والديهما التذكارية على الأرض، وفي تلك اللحظة دفعت جيان شاو فانغ أختها بكل ما أوتيت من قوة، وشاهدتها وهي تسقط على السرير، ثم مسحت على شعرها المبلل بالعرق، والتقطت الإطار الذي تكسَّر زجاجُه قليلًا، وعلَّقته مرة أخرى، ثم بكت قائلة: «سأبقى مصممة

على رأيي إن لم تكفي عن التصرف هكذا».

كانت جيان شاو جين جالسة على السرير تلتقط أنفاسها بصعوبة، وعيناها تطفحان بالدموع. ثم تناولت ثلاثة أقراص دواء من علبة جانب المخدة. كانت تختنق بشعورها بالغثيان تارة وتشتم قو يا شيان تارة أخرى قائلة: «مخربة العائلات، أرجو أن تموت ميتة بائسة».

«لا داعي لأن تطرديني، سأذهب من تلقاء نفسي عندما يحين الوقت»، قالت جيان شاو فانغ. ثم غطت وجهها بمنديل حريري واتجهت ناحية النافذة متأملة الباحة المعتمة، كانت شجرة الرمان مزهرة في طقس الصيف، كمظلة سوداء كبيرة تغطي جرار المخلل والعشب وغيرهما من الأشياء. ومن جرة طارت يراعة ودارت في الباحة، وراقبت جيان شاو فانغ هذا الوهج الأزرق الخفيف المنبعث في عتمة الليل، كان كل شيء منسجمًا مع مزاجها الحزين وشعورها بالوحدة في هذه اللحظة.

في ذلك اليوم، عاد تسون خان تشو الذي كان غائبًا عن دكان المخللات، وكان بسحنته نفسها ذات الشعر والوجه المزيت والهيئة المسترخية. وأمضى الصباح بأكمله مستندًا إلى الكاونتر يثرثر مع البائعات، مثيرًا فيهن الضحك تارة والسب والشتيمة تارة أخرى. ولما نسي حقيبته السوداء عند مغادرته، لحقت به كانغ سو يو لتعطيها له. لذا راود سو مي شيان شعور بأنهما يستكملان علاقتهما العاطفية من جديد، ورأت أن حيلة صغيرة كهذه لا يمكن أن تمر أمام عينيها مرور الكرام. وحالما ابتعدت كانغ سو يو عن الكاونتر، تبادلت سو مي شيان نظرات خبيثة وقو يا شيان بسرعة، وألصقت أذنها على الشباك المطل على الشارع واسترقت السمع، آملة أن تسمع شيئًا ما ذا معنى.

«إنها تتفق على مكان لعبثهما، هذه العاهرة» غمزت سو مي شيان لـ قو يا شيان.

«هل تريدين ضبطها متلبسة؟» قالت قو يا شيان، «إنهما يتفقان على مكان بالفعل، كيف سمعتِهما؟»

«بالتأكيد سيكون المخزن، لأنني اكتشفت منذ قبل مناديل ورقية كثيرة، كلها قذرة مستعملة من قبل» كانت تعابير وجه سو مي شيان غامضة حين قالت ذلك.

المخزن هو المكان المناسب تمامًا للمداعبات خلسة» قالت قو يا شيان ضاحكة، ثم رفعت رأسها ناحية السقف وألقت نظرة وقالت: «إن ذهبتِ إلى الباحة من منزل جيان سيكون يسيرًا أن تضبطيهما متلبسين».

«سأجرب اليوم، لا أصدق أنني لم أستطيع أن أمسك دليلًا على هذه الساقطة». كزَّت سو مي شيان على أسنانها بغيظ.

كانت ليلة هذا اليوم حارة، وإذ فرغت جين شاو فانغ من حمامها وغسل ثيابها، سمعت طرقًا خفيفًا، واعتقدت أنها قو يا شيان، فنزلت لتفتح الباب لترى سو مي شيان أمامها. «شاو فانغ، لقد أوقعتُ شيئًا في باحة منزلك، اسمحي لي أن آخذه»، قالت سو مي شيان ثم شقت طريقها إلى الداخل، حاملة في يدها كشافًا. وأحست جيان شاو فانغ أن ملامحها غريبة، فتبعتها.

كان الباب الذي يفضي إلى الباحة موصدًا طوال الوقت. فتحت جيان شاو فانغ المزلاج، ثم سألت بتردد: «ماذا أوقعتِ؟ وكيف وقع في الباحة؟». حينها ارتسمت على وجه سو مي شيان ابتسامة، وخفضت صوتها وقالت: «تعالي معي، أريد أن أريكِ شيئًا مثيرًا». ظلَّت جيان شاو فانغ في حيرة وريبة، ثم سألتها: «ماذا يجري؟ لقد أربكتني». أسكتتها سو مي شيان مشيرة لها ألا تتكلم، ثم سحبت يدها ومشت على أطراف أصابعها إلى الباحة.

فتحت سو مي شيان الباب الموصد دائمًا بخفة، ثم دلفت إلى دكان

المخللات الغارق في العتمة. «احذري، إياك أن تصدري صوتًا»، همست سو مي شيان. وأمسكت يدها واتجهت إلى باب المخزن، وقرفصت أولًا ونظرت من ثقب القفل إلى الداخل. فسمعت جيان شاو فانغ ضحكة مكتومة تصدر عنها، وأمسكت سو مي شيان رأسها وأنزلتها لتنظر من ثقب القفل أيضًا. «هل ترين ما تلك اللعبة التي تدور في الداخل؟».

في البداية لم ترَ جيان شاو فانغ غير بضعة مصابيح تتوهج بنور أصفر وبضعة صناديق خشبية معبأة بالجرار، ولكن حين وقع نظرها على الشخصين على الأرض ورأتهما بوضوح، لم تتمالك نفسها من الصراخ فزعة، فهي لم ترَ هذا المنظر من قبل، وكان رد فعلها الأول هو الركض بعيدًا عن المكان. كانت تركض متخبطة في دكان المخللات، وأوقعت في طريقها بضع زجاجات أصدرت أصواتًا عالية.

«شاو فانغ، لا تذهبي، أنت شاهدة!». كانت سو مي شيان تصرخ خلفها. كان وجه جيان شاو فانغ ينضح حرارة نتيجة الركض، ركضت إلى باحة المنزل، وسمعت الأصوات الأولى للجلبة الصادرة من الدكان، وكان يبدو أن سو مي شيان وكانغ سو يو في شجار تشتمان بعضهما بعضًا، واختلط صوتاهما بصوت رجل أجش. ثم رأت أختها تنزل كذلك، ثم وقفت في الباحة واستمعت برهة لما يجري، ثم ذهبت إلى الباب المؤدي إلى الدكان وأغلقته بقوة، ثم أوصدت مزلاجه جيدًا.

«يا للقرف!». بصقت جيان شاو جين بصقة على الأرض، وقالت: «إن الزنا وكشفه ليسا بأمر جيد».

وانتشرت في اليوم التالي أخبار نجاح سو مي شيان في ضبطهما متلبِّسَيْن كانتشار النار في الهشيم، وجاء إلى الدكان الكثير من الزبونات، لكنهن لم يرين أثرًا لـ كانغ سو يو، ومنهن مَن سألت قو يا شيان: «أين كانغ سو يو؟»،

فترد قو يا شيان وتعلو وجهها ابتسامة: «في إجازة مرضية»، أما سو مي شيان فكانت تقف عند الكاونتر بوجه مشرق الطلعة يفيض نشاطًا، تكرر القصة بلا كلل أو ملل حين يسألها أحدهم عن التفاصيل: «رأيتهما من ثقب القفل، ورأتهما جيان شاو فانغ كذلك».

ولكن لم يتوقع أحد أن هذا الأمر سيؤدي إلى جريمة قتل ستظل معروفة في شارع شيانغ تشون شو.

بعد عدة أيام ترامت إلى مسامع سكان شارع شيانغ تشون شو أخبار مثيرة. كانت أخبار مفادها أن لاو سونغ الساكن في الشارع الغربي قتل زوجته كانغ سو يو بسكين خضار، ثم وضع السكين المخضبَ بالدماء في سلة عجلته الخلفية متجهًا إلى دكان الفحم في شرق المدينة، وهناك طعن تشون خان تشو خمس طعنات على مرأى الناس، بعدها ألقى السكين على كومة فحم، واتجه إلى الشهود المذهولين قائلًا: «سأذهب إلى الشرطة وأسلم نفسي في الحال. إن كانت في منزلكم امرأة ارتكبت فاحشة الزنا، فلتخبروني الآن، وسأذهب وأقتلها هي وعشيقها».

ذهبت قو يا شيان لتقديم التعازي بعد موت كانغ سو يو، ورغبت سو مي شيان في مرافقتها، ولكنها ما إن وطأت قاعة الحداد، حتى دفعها أحد الأشخاص، وكانت أخت كانغ سو يو الكبرى التي داست على قدمها صارخة: «أنتِ السبب، ولكِ عينٌ وقحة لتقديم التعازي؟»، بدا على وجهها الحرج الشديد، فوقفت عند المدخل برهة، ثم غادرت وتحت إبطها بطانية. ظلَّت قو يا شيان في قاعة الحداد تبكي وقتًا طويلًا، ورفعت الغطاء الأبيض الذي يكسو وجه الميتة، واكتشفت أن ملامح وجهها بدت ساحرة مع المكياج، ولكنها لا تزال تلمح تعابير الكراهية الكامنة بين حاجبيها.

«مَن يفعل أمرًا كهذا، هل يستحق الأمر؟»، كانت توجه حديثها

بصدق إليها، وتلومها على هذه الحياة البائسة التي عاشتها، وزواجها برجل همجي وحشي أكثر من الحيوانات. ثم تذكرت بعدها أمرًا حدث منذ سنوات سابقة: «لقد نصحتها في البداية حين أخبرتني بأمر زواجها من لاو سونغ، ولكنها لم تسمع كلامي، كم هي بائسة حين أفكر في الأمر الآن، أن تفقد حياتها على يده».

في هذا الصيف خرج سكان شارع شيانغ تشون شو إلى الهواء البارد مروحين عن أنفسهم، وكانوا دائمًا يذكرون موت كانغ سو يو، ويعتبرون سو مي شيان قاتلًا غير مباشر، وكان يندون بفعلتها من خلفها ما إن تنتهي من عملها في الدكان، أما أقارب كانغ سو يو فكانوا يصوبون إليها نظرات شعواء، ويشتمونها بأنها حشرة مؤذية. وفي التحقيق الروتيني لجريمة القتل، استدعيت جيان شاو فانغ إلى مجلس الحي لاستجوابها. كان وجهها شاحبًا، ولم تتوقف عن الارتجاف أثناء جلوسها، وكانت تقول بتكرار: «لا أعلم، لم أرَ شيئًا، لم أرَ شيئا على الإطلاق».

تزوجت جيان شاو فانغ أخيرًا بالمعلم الأرمل جانغ بداية الخريف في شهر سبتمبر. وقد تمت المراسم في شيء من السرية، لأنها لم تكن تود أن يعرف الكثير من الناس بزواجِها. وبالطبع كانت قو يا شيان وصيفتها، إذ رافقتها طوال يوم الاحتفال، وكان أكثر الموجودين في مأدبة الزفاف هم أقارب المعلم جانغ، الذين تهيأوا مسبقًا لهذا الحدث الخامل، لذلك حين اختبأت العروس في حمام المطبخ وبكت وقتًا طويلًا، لم يذهب أحد لينصحها أو يواسيها. وفي اليوم التالي وزعت قو يا شيان حلوى الزفاف على بعض الأشخاص في الدكان.

وكما وصفت قو يا شيان، فقد كانت جيان شاو فانغ تضع ماكياجًا خفيفًا، وترتدي تنورة ذات ثنيات طويلة أخفت سنها ولم تظهرها عجوزًا،

عيناها فحسب كانتا متورمتين لبكاءها فترة طويلة. كما ذكرت قو يا شيان ابن المعلم جانغ الذي في المرحلة المتوسطة، وقالت: «إنه طفل عنيد للغاية، طلب منه الجميع أن يناديها بماما، ولكنه لم يوافق، ولم يفلح أحد في إقناعه، وفي نهاية الأمر ناداها العمة بوجه جامد».

نزلت جيان شاو جين التي كانت حبيسة المنزل إلى الدكان في هذه اللحظة، ترتدي كنزة سوداء وبنطلونًا أسود، وصففت شعرها على شكل كعكة مزينة بوردة بيضاء، وكأنها ترتدي ملابس حداد. ثم وقفت بهدوء عند المدخل تحمل في يدها مقصًا، مصوبة نظرات استهجان إلى شفتي قو يا شيان اللتين لم تتوقفا عن الثرثرة، وفي تلك اللحظة توقفت الأخيرة عن الحديث، ورفعت رأسها ناظرة إليها بذهول، فقد أوقع وجه تلك المرأة الشاحبة الرعب في نفسها.

«يا مخربة العائلات، يا صاحبة اللسان الوسخ!»، مشت جيان شاو جين بهدوء متكئة على الكاونتر وهي تلوح بالمقص في وجه قو يا شيان قائلة: «سأقطع لسانك العفن». حينها دفعها أحدهم ناحية المخزن حيث اختبأت هناك وانخرطت في عويل حاد: «هذه X العجوز المجنونة، لقد أصابها الجنون بحق، أختها تريد الزواج فما دخلي أنا؟ إن نيتي طيبة، نعم، أصحاب النيات الطيبة لا يُجزون».

رأى الحاضرون جميعًا المقص في يد جيان شاو جين، ولكن لم يخطر ببال أحدهم أنه المقص[1] المستخدم في قتل كانغ سو يو، وسمعوها تغمغم ببضع جمل، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وترنحت في مشيتها تاركة المكان. وما إن غادرهم ذلك الظل العجوز، حتى انخرط الحاضرون في مناقشات حادة،

1. يُشار إلى أن أداة القتل كما وردت في الرواية هي «سكين» ولكن كلمة المقص هنا وردت كما هي في النص الصيني للمؤلف.

فقد رأوا أن الجنون أصابها، أو الخرف، أو أنها مدفوعة بغضب عارم.

منذ ذلك الحين كان سلوك جيان شاو جين في غريب الأطوار تقريبًا كل يوم: تنزل بهدوء في منتصف الظهيرة إلى الدكان، ترتدي ملابس الحداد بلونين أبيض وأسود، حاملة في يدها مقصًا قديمًا بعض الشيء، ومحدقة إلى شفتي قو يا شيان التي بمجرد أن تتكلم، تقاطعها جيان شاو جين بغمغمتها قائلة: «يا مخربة العائلات، يا صاحبة اللسان الوسخ، سأقطع لسانك العفن!».

اعتادت قو يا شيان تصرفها، تجاهلتها ولم تلقِ لها بالًا. وكانت تخبر الآخرين: «إنها مريضة، لِمَ أعيرها اهتمامًا؟». وأحيانًا كانت الكراهية تستبد بها لمجرد تفكيرها في الأمر فتقول: «إنني منحوسة، رتبت زواجًا بنية طيبة، حتى إنهم لم يقدموا لي وليمة الثمانية عشر كارعًا تعبيرًا عن شكرهم لي، بل تورطت مع هذه العائلة المشؤومة».

جاءت جيان شاو فانغ لزيارة أختها بعد زواجها لعدة مرات، وفي كل مرة كانت أختها تشتمها وتطردها خارج المنزل، أو تلقي بحبّات الفاكهة التي أحضرتها واحدة تلو الأخرى إلى الشارع. وفي إحدى المرات جاءت برفقة زوجها، لكنهما ما إن صعدا السلم، حتى بدأت جيان شاو جين في قذفهما بأشياء كالطست والكراسي الصغيرة والقمامة وغيرها، وانتهى الأمر أخيرًا بأن رمت عليهما برميل غائط، بُلِّلَ الزوجان بالمياه القذرة والبراز. وكانت جيان شاو فانغ تقف أمام الباب تذرف دموعًا وتقول لزوجها: «لقد فقدت الأمل، لن آتي مرة أخرى، إلا في اليوم الذي سأدفنها فيه». لكنها لم تتوقع أن يتحقق ما تكهنت به، وأنها ستعود في الشتاء إلى شارع شيانغ تشون شو لدفن أختها.

كانت قو يا شيان من اكتشفت موت جيان شاو جين.

في يوم من أيام منتصف الشتاء لم تنزل جيان شاو جين إلى الدكان ككل يوم لتمارس عادتها في تهديد قو يا شيان، فساورها القلق، وقالت لسو مي شيان مازحة: «لِمَ لم تنزل العجوز اليوم؟ أَلعلَّها انتقلت إلى جوار ربها؟ إن حدث ذلك سأتحرر من قلقي»، قالت ذلك ثم ألقت نظرة إلى الأعلى، وبدا وكأن هناك صمت يخيم على المكان، ثم رأت ورقة جريدة قديمة ملطخة بدا مظهرها غريبًا، كانت بها لطخة حمراء، بيضاوية الشكل، وكلما تكبر شيئا فشيئًا، تشتد قتامة لونها.

«هذا لا يبشِّر بخير، ثمة خطبٌ ما».

صعدت برفقة مجموعة من الناس واقتحمت منزل جيان الغريب، وعلى السلم شموا رائحة دماء زنخة. وكان أهالي شارع شيانغ تشون شو ينظرون إلى جيان شاو جين على أنها من غريبي الأطوار، كما لم تخطر ببال أحد الطريقة العجيبة التي اختارتها لتموت بها: فقد غرزت عددًا من إبر التطريز في شريانها، ثم جلست إلى جانب حامل التطريز، على كرسي من خشب أحمر بهت لونه تنتظر سيلان دمها، إلى أن ماتت بهدوء.

جاءت جيان شاو فانغ مسرعة ونقلت جثة أختها الباردة إلى السرير، ولم ترَ في عينيها بريق الدموع الذي كان من قبل. بعدها بللت منديلًا ومسحت آثار الدم عن ملابس أختها، وكانت قو يا شيان تساعدها. حينها سمعتها قو يا شيان تقول جملة بغيضة تؤذي الأذن: «هذه العجوز المجنونة، حتى في موتها أبت أن تموت ميتةً لائقة، بل ترهق الآخرين بموتها كذلك».

كانت هذه الجملة مألوفة، لكن قو يا شيان لم تتوقع أن تأتي من جيان شاو فانغ، ولم تصدق هذا التغير المذهل الذي طرأ عليها خلال أقل من ستة أشهر.

وفي الحقيقة كانت الأختان مشهورتين بالمهارة في أعمال التطريز، لكن جيان شاو جين ماتت، ولا تزال الأخت الصغرى حية. ولم تكمل جيان شاو جين قطعة التطريز الأخيرة، بل أُتلفَت في وقتها.

يظهر في منتصف القطعة بورتريه قلَّما يُرى، وجه امرأة، تشبه مديرة دكان المخللات قو يا شيان، والجزء التالف هو شفتاها الورديتان، وكما تذكر جيان شاو فانغ، ففي المرة الأولى التي رأت فيها هذه القطعة، كانت كأن مقصًّا شق شفتي المرأة، مُسببًا جُرحًا في الحرير من المُحال رتقُه.

القناديل الثلاثة

(1)

كانت الحرب على التلة أشبه بكرة نارية هائلة، تطال ألسنتها اللاهبة مساحة شاسعة من الحقول البرية والبيوت والحظائر والناس، حتى وصلت الآن في نهايتها إلى منطقة نهر جياو.

كان أهالي قرية شيوي جوانغ قد أخلوا القرية تباعًا. وعمَّها الرعب والجلبة خلال أيام، وغرقت بالفوضى والضجة، خاصة النسوة والأطفال، إذ كانت النساء يحملن أوعية الملح ويتسلقن عربات يجرها البقر، ثم يتذكرن فجأة جرار المخللات فينزلن مرة أخرى، وظللن هكذا حتى كاد المرء يضجر.

أما الأطفال فلم يكونوا على دراية بهذا الرحيل، لذلك لعبوا لعبة في ليلة الرحيل عن القرية؛ أمسك بعضهم أقدام بقرة عربة لو كوان الأمامية، وحين أراد أن يتحرك بها، لم تتحرك العربة، وكانت شجرة العناب العتيقة على جانب الطريق تترنح مصدرة صوتًا وكأنها على وشك السقوط. وظن لو كوان أن البقرة كسول، فشتمها قائلًا: «هل تثيرين الجلبة أنتِ أيضا يا حيوانة؟». ثم أنزل عليها السوط، فرفست البقرة وأوقعت عائلته من العربة.

لم يقل عمدة القرية لو شيانغ شيئًا، بل قرفص وتناول عصيدة الأرز، وهو ينظر بين حين وآخر إلى الحمام البعيد عنه بمسافة قريبة، حيث كان ابنه الصغير هناك لبعض الوقت بصحبة والدته، فقال لو شيانغ وهو يأكل: «لم أعطه طعامًا، فمن أين له بكل هذا البراز؟»، ضجرت امرأته كذلك، وكانت

تدق بقدميها على الأرض قائلة: «ألم تنته بعد، مر كل هذا الوقت ومازلت ملتصقًا بمقعدِ الحمَّام!».

دفعها لو شيانغ وهو لا يزال يتناول العصيدة: «اتركيه وشأنه، سيكون مرتاحًا أكثر خلال الطريق». كان لو شيانغ صاحب تجارة ورجلًا خبيرًا بأمور الحياة؛ عربته جاهزة، مُحمَّلةً بالطعام والصناديق، تناول عصيدته على مهل إلى أن امتلأت بطنه، وحينها شُحِن بالطاقة ليحافظ على نظام القرية المضطرب.

«مِمَّ أنتم خائفون؟ مِمَّ أنتَ خائف؟»، قفز لو شيانغ فجأة من العربة متجهًا مباشرة إلى عربة عائلة لو فو «هل في أذنكم خراء؟ كم مرة قلت لكم احملوا الطعام فقط؟ لِمَ كل هذه الماشية؟ الناس تخوض حربًا، وأنتم أدمغتكم مربوطة في حزام بناطيلكم، مَن يهتم بخنازيرك وخرافك؟».

ظل لو فو يدفع بخنزيره الأسود الضخم ناحية العربة «مَن يهتم؟»، قال لو، ثم أردف لاهثًا: «لم أذهب إلى الحرب، وينقصني بضعة خراف ودجاجات».

وما كاد لو شيانغ يفكر في سبِّهم حتى وقعت عيناه على عائلة لو شو يي وهي تترنم بأغنية شعبية وتنقل دولاب الملابس إلى العربة: «ألا يخافون أن يثقلوا على البقرة بالوزن الزائد؟ يا لهم من أشخاص آذانُهم محشوة بالخراء! تلك المرة اهتزت نفسه، فمضى يلوِّح بالطبق في يده هنا وهناك، والتقط أعواد الطعام قاذفًا بها الأشخاص هنا وهناك: «اركبوا العربة، سنرحل في الحال، وإلا سنصادف الفرقة الثالثة عشرة، وهي تقتل الناس، إن كنتم غير خائفين فلتظلوا في مكانكم!». ثم كسر الطبق بقوة وقال: «احملوا المنزل أيضًا، يا أشخاصًا برؤوس خنازير!».

رحلت آخر مجموعة عن القرية قبل منتصف الظهيرة بقليل. وكان عمدة

القرية لو شيانغ جالسًا في العربة يسمع بشكل مبهم أصوات طلقات النيران القادمة من ناحية مركز المحافظة: «لا تخافوا، يفصل الجيش عنا ثلاثون لي»، قال لعائلته، وأضاف: «سنذهب إلى غرب النهر ونختبئ هناك لعشرة شهور ونصف، فلِمَ أنتم خائفون؟ الحرب ليست كزراعة الحقل، ينبغي عليك أن تغرس الأرز موسمًا بعد الآخر، فالحرب دائمًا يأتي لها يومٌ وتنتهي. والناس ليسوا كسنابل الأرز، يمكنك أن تدرسها أو تحتفظ ببذورها بعد قطعها، بل يجب أن تنتهي الحرب بموت أشخاص، وحتى وإن ماتوا على يد الفرقة الثالثة عشرة أم الثلاثين، وإن مات كل الناس ماذا سنفعل؟ إذن ستنتهي الحرب وسنعود إلى ديارنا».

كانت العربة تسير ببطء شديد، والتفت لو شيانغ متأملًا عشرات المنازل وبضعة أشجار في قريتهم التي يرحلون عنها، ثم شعر فجأة بأنه نسي أمرًا ما. «ما الذي نسيته يا تُرى؟»، سأل امرأته الجالسة إلى جانبه. ردت قائلة: «لقد نسيت سلة ملفوف، أصررت ألا آخذها»، قال لو شيانغ: «ليس الملفوف». وقطَّب حاجبيه وهو يعد أبناءه الموجودين، بنات وصبيان في مختلف الأعمار، مجموعهم ستة، لا ينقصهم أحد. وفي تلك اللحظة مرت العربة إلى جانب شاطئ النهر ورأى سربًا من البط وكوخًا من القش، فتذكر فجأة مربي البط بيان جين: «أين بيان جين، كيف نسيته؟». ثم ضرب على جبهته وقال: «لقد أغاظوني ونسيت بيان جين».

أراد لو شيانغ العودة والبحث عنه، لكن زوجته منعته قائلة: «هل تظن أنه غبي؟ لقد هرب من زمن، ألم ترَ أنه نسي بطَّاته؟ على الرغم من أنه أحمق فهو يعلم كيف يختبئ من الحرب، ربما هرب أسرع منك».

قال لو شيانغ إن دماغ بيان جين محشوة بالخراء، وإنه أحمق.

«إنه يتيم، وماذا لو طاله مكروه؟ ماذا سيقول الناس عني وأنا عمدة

القرية؟»، قال لو شيانغ ذلك وأخرج الجونج من تحته، وضرب عليه بضع ضربات قوية وهو يهتف في الاتجاهات الأربعة: «بيان جين، بيان جين، هل رأى أحدكم بيان جين؟»، فرد ابن لو فو الذي كان في الأمام: «لقد رأيته أول البارحة يتسلق الشجرة ناكشًا في أعشاش العصافير، ولم يكن يبحث عن البيض، بل عن الزرق، فهو يطعم بطَّاته زرق العصافير».

«هراء، كأنك لم تقل شيئًا». ثم رفع صوته زاعقًا: «هل رأى أحدكم بيان جين؟».

ردت زوجة لو شو يي والتي كانت في المؤخرة: «لقد رأيته ذاهبًا في اتجاه النهر صباحًا، قال إنه ذاهب للبحث عن البط».

«يبحث عن البط في أيامٍ كهذه؟ هو أحمق وأنت حمقاء، أَلَم تخبريه بأمر الحرب؟».

«كيف لم أخبره! قال إنه لا يخاف الحرب، وإنَّ له عيونًا في قفاه، ولا بد أن يبحث عن بطَّاته».

وضع العمدة الجونج جانبًا ثم شتم قائلًا: «هذا الأحمق، يستحق الموت». وسرح بنظره متأملًا شاطئ النهر في الشتاء، تمتدُّ على مدى بصره أعواد القصب والحشائش المصفرة الجافة، والصمت يغمر ضفتيه، ومن بعيد ناحية في مجرى النهر تدوي طلقات الرصاص متتابعة. «من يذهب باحثًا عن البط في أيام كهذه؟». ورأى لو شيانغ أن بيان جين أحمق بالفعل، إذ إنه من أجل البط عرَّض نفسه لطلقات النار، وموته سيكون بلا طائل، ولا يمكن لومه».

كانت الرياح تشتد شيئًا فشيئًا على التلة، مزيحة ضوء الشمس الباهت على مهل، إلى أن اصطبغت السماء بلون رمادي. سيتساقط الثلج. في اللحظة التي مر فيها النازحون ببلدة ماتشياو، تساقطت حبات الثلج الأولى،

وانتشر ضباب لا يُعرف مصدره كستار غطى بسرعة جدران منازل القرية وسطوحها المسقوفة بالقرميد. كان الطريق الحجري خاليًا من البشر، ولا يوجد غير كلبين ينبحان داخل المدرسة بجنون، وبدا جليًا أن سكان القرية قد نزحوا بالفعل. كانت هذه المرة الأولى التي تجتاز فيها العربات القادمة من قرية تشيوي هذه البلدة الصغيرة بلا عقبات، وهو ما جعل أمر نزوحهم غير المنظم ضروريًا إلى حد ما، ولم يكف لو شيانغ عن حث أهالي قريته: «اضربوا بالسياط، دعوا البقرات تتحرك أسرع، مَن منكم لا يريد أن يعرض نفسه لإطلاق النيران فليسرع السير».

وإذ عبروا من أمام صيدلية تشانغ جي، رأى الجميع فتاة تربط وشاحًا أخضر، وبدا أنها في الثانية أو الثالثة عشر من عمرها، والوشاح يغطي نصف وجهها، كاشفًا عن عينين سوداوين تحدقان إلى الجمع النازح، نظرات جريئة وشرسة، نظرات متفحصة أوقعت الريبة في الناس، كما كانت تحمل شيئين جعلاهم في حيرة لا يفهمون ما الذي يجري؛ كانت تحمل صفيحة زيت في يد، وسمكة في اليد الأخرى.

«ابنة من أنتِ؟ هل أنتِ تائهة عن عائلتك؟»، كمح لو فو اللجام وأوقف العربة محييًا الفتاة: «لقد آن أوان الرحيل، وما زلتِ واقفة كالبلهاء هناك؟ اصعدي، إن لم تكوني راغبة في التعرض لإطلاق الرصاص اركبي العربة».

لكن الفتاة هزت رأسها، وظلت متكئة على باب الصيدلية المصنوع من خشب التنوب، إلا أنها فجأة رفعت قدمًا وركلت الباب قائلة: «افتح الباب، لِمَ لا تفتح الباب؟»، كان صوتها مضطربًا وحادًا: «أريد الدواء، أريد دواء أمي».

«لقد رحل جميع من في القرية، أَلا تعلمين بأمر الحرب؟»، صرخ لو شيانغ من عربته: «مَن يأتي للدواء في مثل هذه الظروف، هل رأسك محشوٌّ بالخراء؟ كيف سيفتح الباب والمكان خالي من الناس؟».

«رأسكَ أنتَ المحشوٌّ بالخراء». رمقته الفتاة بنظرة، ثم التفتت وطرقت الباب بصفيحة الزيت صارخة: «افتح الباب، افتح الباب بسرعة». كان صوت بكاء الفتاة يخترق آذان أهالي القرية النازحين كالبرق، وظلت الفتاة تبكي وتصرخ ملء صوتها في مواجهة الباب: «يا عم تشو أنت لست إنسانًا، لما لا تعلّق لي الوصفة على الباب؟ أكلت سمكًا كثيرًا من عائلتي، أكلت السمك ولم تعطنا الدواء، لهذا أنت لست إنسانًا».

ظل الناس ذاهلين فترة، وكانوا قد فهموا أمر السمكة التي تحملها. ثم زعق ابن لو شيانغ قائلًا: «هذه من السمك الأسود»، إلا أن والده التفت وصفعه صفعة وقال وقد استشاط غضبه: «ما دخلك إن كانت سمكة سوداء أم بيضاء؟» وقال: «لم أرَ في حياتي طفلة بهذا الحمق، حمقاء أكثر من بيان جين، إن أرادت وصفة الدواء دعوها تذهب، لن أقحم نفسي في شؤون الآخرين».

اصطحب لو شيانغ فريق النازحين وأكملوا سيرهم، كانت حبات الثلج تتساقط بخفة كندفِ القطن، ولكنها لم تكن حبات ثلج بالضبط، فقد كانت تتساقط على القبعات والرموش، مُكوِنَةً قطرات ماء متجمدة، ما أن تزيلها حتى تتجمع مرة أخرى. خلع لو شيانغ قبعته ليزيل عنها الثلج، وأدار وجهه ليرى الفتاة ذات الوشاح الأخضر تتبعهم.

وصلت الفتاة راكضة إلى عربة لو شو يي، وقالت شيئًا ما لزوجته سمعه لو شيانغ بوضوح، بعدها رأى الفتاة واقفة وفي يدها اليسرى صفيحة الزيت، وفي اليد اليمنى السمكة. وشاهد الثلج المتساقط وقد فصل ظلَّ الفتاةِ الصغير عن عربات القرية، بعدها لم يروا الصفيحة أو السمكة، بل وشاح الفتاة يعكس لونًا أخضر باهتًا وسط الرياح والثلج.

«ماذا قالت لكِ تلك الفتاة؟»، سأل لو شيانغ زوجة لو شو يي.

«كانت تريد أن تبدل السمكة بكيروسين، من أين لنا بالكروسين، ومن يهتم بالكيروسين في أيام كهذه؟» قالت زوجة لو شو يي.

«لم تريد الكيروسين؟»، ابتسم لو شيانغ ابتسامة ساخرة ثم قال: «لم أرَ في حياتي فتاة بهذا الحمق، كيروسين؟ إن تعرضنا لإطلاق النار ألن يكون الليل كما النهار مضيئًا، فما الحاجة إلى الكيروسين إذن؟ أخبروني ما الحاجة؟».

سار أهالي القرية في رحلة نزوحهم عابسين متجهمي الوجه، ولم يذكر أحد أمر تلك الفتاة الغريبة. كانت آذانهم مفعمة بصوت حفيف الثلج، وصوت أجراس البقر والعجلات المثير للكآبة، وكذلك صوت إطلاق النيران العشوائي القادم من الجهة الجنوبية الشرقية.

الكل يدري أن في قلب الحرب لا يفكر الناس في شيءٍ أكثر من الحرب ذاتها.

(2)

تساقط الثلج ثقيلًا واكتست ضفتا النهر ببياض ناصع. ومهما كانت شدة سخط بيان جين، كان الثلج الثقيل يتساقط ممتدًا على مدى البصر ببياض يوخز العينين. ولم يجد بيان جين بطَّاته مع تساقط خبات الثلج. وفي طقس كهذا لا تنزل البطَّات النهر، بل تختبئ في أحراج القصب، أما هو فقد عقد العزم على إيجاد تلك البطَّات قبل هبوط الليل.

فقد ثلاث بطَّات، لا لم يفقدها، بل هربت من السرب. بحث بيان جين عنها بالعصا عند شاطئ النهر، وبين أعواد القصب وعسيلها الجاف الذي تطاير واختلط بنُدف بالثلج، وسقط على كتفه، لكنه لم يرَ أثرًا للبطَّات

الثلاث المفقودة. «يا للرب، حين نرجو سقوط الثلج لا يتساقط، وحين لا نرجو تساقطه، يتساقط بكثافة».

تذكر أن أهالي القرية حرَّموا سبَّ السماء، وقالوا إن مَن يشتم السماء سيشق البرق وجهه إلى نصفين، فأحس بشيء من الندم، وقرص فمه قرصة. كان الغضب يعتريه، ويشعر بضيق شديد لأنه كفَّ عن السباب. بعدها بدأ في سب بطَّاته الثلاث المقفودة: «يا بطَّات وضيعة وقحة، هل لأن لك سيقانًا تهربين؟ سأقبض عليك بالتأكيد، ولن ينقذك أحدٌ مني، واحد، اثنان، ثلاثة، وسألقيك في الماء المغلي، وأسلخ ريشك، وآكل لحمك، لن ينقذك أحد مني!».

سار بيان جين حوالي نصف لي[1] بمحاذاة النهر، ولكنه لم يرَ أثرًا لبطاته الضائعة، وبدأ الثلج يتساقط بشدة أكثر. وفي الأفق، كان نهر جياو ينعطف قاطعًا رافده على شكل قوس، واكتشف بيان جين أن هناك قطعة رملية إلى جانب الرافد، ومركب صيد يرسو هناك. وبيان جين ليس غبيًا، فهو يعلم أن منسوب النهر يقل كل شتاء، ويضمحل إلى أن تظهر هذه الأرض الرملية، ولكن وجود مركب الصيد هذا أمر يدعو إلى العجب، فقليل من الناس مَن يأتي للصيد هنا، ولا يحمل تيار نهر جياو إلى القرية سوى بضع سمكات صغيرة وروبيان صغير يكفي لإطعام بطَّاته، وهو لا يحب أن يرى قوارب الصيد على أرض القرية. ورأى بيان جين أن وجود هذا المركب القديم المتهالك غريب للغاية.

«هيه، هل رأيتم بطَّات؟». هتف بيان جين وهو يسير باتجاه المركب، ثم نكز سقيفته ولكن لم يرد أحد. «مَن هنا؟ هل ابتلعتك الأسماك؟»، همس بيان

1. لي يساوي نصف كيلومتر

جين، وقفز إلى المركب الذي ترنح من قوة قفزته، فأمسك بالمجذاف وقال: «أي مركب لعين هذا؟ يترنح بقوة». استطاع بيان جين في النهاية أن يقف ثابتًا، ووقع نظره على طائري عقاب يقفان أعلى السقيفة، فرشا أجنحتهما فتساقطت حبات الثلج من عليها، ووعيونهما الحمراء اللامعة مفعمة بتهديد، وهو ما بث الرعب في قلب الأخير وقال: «علام تحدقان إليَّ؟ هل تريدان عضي؟ من أي شيء لعين أنتما؟ يا للونكما الأسود وقبحكما». استدار الطائران كشخصين، فأمسك بيان جين عصاه ورفع ساق أحدهما على سبيل التجربة، ففرد الطائر جناحيه وقفز في الماء، ثم قفز الآخر وراءه بسرعة. تنفس بيان جين الصعداء، وقال: «ما هذا بحق الجحيم، كانا يريدان عضي».

وفجأة، جاء صوت ضعيف من داخل المقصورة، بدا وكأنه صوت امرأة. فرفع بيان جين ستارة الخيزران. كانت المقصورة ساكنة، واخترقت أنفه مزيج من رائحة السمك والبصل الزنخة، ولم يرَ بيان جين إلا تلك المرأة ذات الوجه الشاحب والشعر الأشعث، وكأن وجهها وشعرها مدفونان في كومة من القطن المهترئ.

«لا تغظ طيور العقاب، فهي تعض»، قالت المرأة.

«ماذا تقولين؟ لا أسمعك جيدًا». ثم قرفص خارج المقصورة، ولكنه مد رأسه إلى الداخل بفضول وقال: «هل أنتِ على وشك الموت؟ ما بك تتحدثين بوهن كالأموات هكذا؟».

«لا تغظ طيور العقاب فهي تعض»، كررت المرأة.

«لم أغظها، بل هي التي أغاظتني. ثم إنني لا أهتم لهذين الطائرين اللعينين، لقد جئتُ لأبحث عن البط، هه، هل رأيتِ بطَّاتي؟».

«لا، إن نظري ضعيف، لا أرى شيئًا». وكان صوتها لا يزال واهنًا.

«هل أنت عمياء؟ أف، وكيف تصطادين السمك هنا؟»، قال بيان جين، وأضاف: «كيف وصلت بالمركب إلى هنا وأنت عمياء؟ هناك ستقوم حرب، وهرب الناس، ماذا تفعلين هنا؟ دعيني أخبرك، للإنسان عينان ولكن الرصاصة بلا عينين، لأخبرك، كنت أبيع بيض البط منذ أيام فاتت في بلدة ما تشياو، وشاهدت ابنة صاحب محل الجزارة وقد رُمِيَت بالرصاص، وكانت حينها تأكل غزل البنات، تتقافز هنا وهناك، وبطلقة ارتمت أرضًا، وكانت الحلوى لا تزال في فمها.

لم تتفوه امرأة المركب بكلمة أخرى، ولكن حنجرتها كانت تصدر صوتًا مشوشًا لاهثًا وكأنها على وشك البكاء.

«لقد هرب الجميع، ذعروا لدرجة أنهم تبولوا في سراويلهم. دعيني أخبرك، ليس للرصاص عينان، ولكن بيان جين له عينان في قفاه، ولن أجعل الرصاص يصيبني».

لم تتفوه امرأة المركب بكلمة، وكأن الإنهاك أوهنها، واستنفد طاقتها. لم يكن باستطاعتها الكلام، ولكن بيان جين شعر أن حنجرتها تصدر صوتًا ذا إيقاع ثابت منتظم كدولاب الغزل:

«صحن......صغير......صحن......صحن».

قال بيان جين «تريدين صحنًا صغيرًا؟ ألا تريدين صحنًا؟ أخمِّن أنك لا تريدين صحنًا كذلك، ليس لديك ما يؤكل فلِمَ تريدين الصحن؟ وعلى كلٍّ إن لم يأكل المرءُ فسيموت من الجوع عاجلًا أم آجلًا، ولكني أنا بيان جين لن أموت جوعًا، إن لم يكن لدي أرز أتناول بيض البط». وما إن ذكر بيض البط حتى انتفض واثبًا فجأة وقال: «البط! يجب أن أبحث عنها، من أين لي بوقت لأتحدث معك!»، قال بيان جين وهو ينزل من المركب على عجل،

ثم التفت ناظرًا إليه، فلمح طائري العقاب يعبثان في الماء وفي فم كل طائر سمكة صغيرة. وفجأة انتابه شعور بالغضب، ورأى أن هذه الطيور تستولي على طعام البط. «ما هذا بحق الجحيم؟». قال بيان جين وهو يلوِّح بعصاه تجاه الطائرين ويصرخ بصوت مرتفع: «دعاها، دعاها، ليس مسموحًا أن تأكلوا من هنا».

وفي تلك اللحظة رن على الأرض الثلجية صوت خطوات رقيقة وحثيثة، ورأى بيان جين فتاة تربط وشاحًا أخضر اللون تركض بجنون تجاهه، وشعر بشيء من القلق تجاه نظراتها المفعمة بغضب متأجج، وقالت له: «ماذا تفعل؟»، فوضع عصاه حاجزًا بينهما وقال: «لا أفعل شيئًا، ماذا تريدين؟».

ثم اندفعت الفتاة ناحيته كبقرة صغيرة، وضربته بالسمكة التي في يدها اليسرى، وألقت عليه الصفيحة التي تحملها في يدها اليمنى. وصد بيان جين الهجوم بعصاه بضع مرات، ولكنه سمع صوتَ تكَسُّر عصاه عاليًا وواضحًا.

«هل جُننتِ؟ هل أنتِ غبية؟»، صرخ بيان جين. «لقد كسرتِ عصاي، ستدفعين ثمنها!».

ظلَّت الفتاة قابضة على العصا، وظنَّ أنها ستشتمه، ولكنها ظلَّت محدِّقة إليه بعينيها السوداوين.

«لِمَ تحدقين إليَّ هكذا؟ هل تريدين أكلي؟».

أرخت الفتاة قبضتها، ولكن تلك اليد الصغيرة كانت شديدة العريكة، ففي طرفة عين، لم تلبث أن قرصته قرصةً قوية.

«لِمَ فعلتِ ذلك؟ لقد كسرتِ عصاي، يجب أن تدفعي تعويضًا، أو أعطني سمكة إن لم تكوني قادرة على تعويضي».

كانت الفتاة قد قفزت إلى المركب، وانفجرت في بكاء حاد وهي تصعد إليه، ذلك النوع من البكاء الحزين المفاجئ ترك بيان جين في حيرة من أمره. فاقترب من المركب وسمع بكاءها وقال: «تقرصينني ثم تبكين؟ أَهذا منطقي؟» همس بيان جين، ولكن بكاء الفتاة جعل الحيرة والاضطراب ينسابان إلى قلبه شيئًا فشيئًا، وأحس بنفسه ضائعًا، فقال: «لم تبكين؟».

«لا أريدك أن تعوضيني عن العصا، ولا أريد سمكتك، لِمَ تبكين الآن؟». ثم خطر بباله ربما أن تلك المرأة ربما تلفظُ أنفاسها الأخيرة، فرفع الستارة ونظر إلى الداخل، ورآهما تحتضنان بعضهما البعض، لم تمت المرأة، وكان وجهها أشدَّ بياضًا من الثلج، ولكن شفتيها لا تزال ترتجفان. فهز بيان جين رأسه وقال: «لا تزال حية، ولم يمت أحد، فلِمَ تبكين؟ إنك تفطرين قلبي ببكائك».

هُم والمركب وسط الثلج، الذي لا يُرى أي أثر لتوقفه، وكان سقوط الثلج الثقيل قد أسبغ على السماء لونًا رماديًا باهتًا، ثم تذكر بيان جين البطَّات الثلاث الضائعة، فسأل متوجهًا إلى المركب: «هيه، أيتها الفتاة، لا تبكي، هل رأيت بطَّاتي؟».

تلك الفتاة ـــ علم بيان جين فيما بعد أنها شياو وان أي «الصحن الصغير»، كان «الصحن الصغير» هو اسم الفتاة في الأصل.

(3)

تساقطت الثلوج، وحاصرت قرى خاوية من أهلها، وكست طبقاتٌ كثيفة من الثلج الطريقَ الترابي بداية من شاطئ النهر حتى معبد أسلاف

عائلة لو، وترك أهالي القرية خلفهم بضع دجاجات وأرانب في الأحواش حيث ترافقها الأعشاب، وآثار الإنسان الوحيدة على الأرض الثلجية، هي آثار أقدام مربي البط بيان جين.

كانت آثار أقدامه العشوائية مطبوعة أمام أبواب منازل الكثير من أهالي القرية، وخاصة عند أقفاص الدجاج وحظائر الخنازير، حيث كان في بحث مطول عن بطَّاته الثلاث منذ يومين، وفكر أن البط ليس كالعصافير، فلا يمكنه الطيران، فإلى أين هربت البطَّات يا تُرى! كان يطأ أحيانًا سطوح البيوت الأخرى، حيث لا يظهر أثر لأي إنسان في تلك القرية الشاسعة، ولا يمنعه أحد عن تصرفاته غير اللائقة، فمثلًا إذا رآه لو فو، لعله سيلوي أنفه من شدة الغضب. وكان بيان جين يقف الآن على سطح منزل عائلة لو فو المبني حديثًا من القرميد.

بسط بيان جين يده على جبهته وتطلع في الأرجاء، كان كل مكان مكتسيًا باللون الأبيض، وصمتٌ كالموت يغمر داخل القرية وخارجها. كان يعلم أن أهل القرية هربوا جميعًا، ولم يتبقَ سواه. وفكَّر أن ذلك أمرٌ حسن، وإلا كيف كانت ستواتيه الجرأة ويتسلق سطح منزل لو فو؟ سمع بيان جين صوت القرميد يتكسر تحت قدمه، كان قرميدًا جديدًا، ولكنه لم يشعر بالأسف. وتذكر هيئة لو فو في الأيام العادية معلِّقًا ساعةَ جيب رائحًا غاديًا في القرية، فاعتراه غضبٌ شديد، فلم يكن لو فو يعيره اهتمامًا، كما كانت زوجته ترمقه بنظرات حادة. كانت عائلة لو في تملكُ مالًا وأرضًا ومنزلًا مشيدًا حديثًا بالقرميد، ولكنهم ليسوا كعمدة القرية تشانغ لو شيانغ، فكان دائمًا يمنحه قليلًا من البطاطا الحلوة من أرضه، ولم يكن بيان جين من أقارب لو فو، ولكن الأخير على الرغم من ذلك لم يكن يمنحه أي شيء ولو بسيطًا. فجأة لم يستطع بيان جين كبح موجة الغضب العارمة التي اعترته، واقترب

من المدخنة وألقى قطعة قرميد علقت داخلها، وتخيل منظر المنزل المغلف بالدخان الكثيف، وتخيل سحنة لو فو الغاضبة وعينيه الجاحظتين، فضحك ضحكات خافتة.

اكتشف بيان جيان مصادفة برج مراقبة عند أعلى النهر، ولم يكن يعلم أنه مبنى خاص بظروف الحرب، وظن أنه قمين للآجر، وفكر متى كان لقرية هوا قمين للآجر، لم تكن لديه أي فكرة.

كانت أشعة الشمس بعد صفاء الطقس من الثلوج ساطعةً للغاية وتوخز العينين، التفت بيان جين ملقيًا نظرة على مركب الصيد إلى جانب النهر، حيث كان الثلج قد غطى سقيفته، وبدا من بعيد أكثر بساطة وتهالكًا، ولكنه لمح ظل الفتاة الصغير، وكان وشاحها الأخضر يهفهف أمام ناظريه كورقة شجر، ولم تكن لديه فكرة عمّا تفعله الفتاة.

وبعد فترة رأى نارًا تتصاعد من مقدمة المركب، ربما تشعلان نارًا للطبخ. وكان طعام الآخرين يجعله يجوع وتقرقر معدته، ولكنه لم يكن يحب أن يرى الآخرين وهم يطبخون، إلا أن الأمر اختلف الآن، فقد منحته تلك النيران المتصاعدة من المركب شعورًا غامضًا بالمواساة. ولم يكن قادرًا على معرفة السبب، لكنه حينما ينظر إلى تلك النيران يكف عن الشعور بالوحدة.

القرية الخاوية لم يكن بها أثر لإنسان، وهذا حسن. كان بيان جين يخبر نفسه أن هذه أكثر فترة مُنِح فيها الحرية منذ صغره حتى الآن. وكان يدندن بلحن فرح، وباعد ما بين ساقيه وسار كالبط، ثم بسط ذراعيه وحركهما كأنه طائر، وأدرك خلال ذلك أنه في بستان الأرملة وانغ. تذكر وقتًا دخلت بطّاته بستانها، ولكنها قابلته بوجه عابس وشتائم نابية، كما أنها أطلقت كلبها ليعض البطّات، عض ذلك الكلب الشرس ريش بطة! «هذه المرأة تافهة، أَهي تحب بستانها، وأنا لا أحب بطّاتي مثلًا؟». ثم أمسك غصن شجرة وقطع

شتلة فجل، قطعها عدة قطع ثم رمى الغصن بعيدًا، وفكر أنها أرملة، ويقول أهالي القرية إنها مسكينة، كما أن الرجل المحترم بيان جين لن يهبط بذاتِه لامرأة مثلها.

قفز بيان جين فوق السياج إلى فناء منزل لو شو يي. كان الفناء يعج بالحطب والأوعية والأواني، وحين لمح بيان جيان قطعة زرق بط جافة، ظل محدِّقًا، وشحب وجهه شيئًا فشيئًا، كان يعلم أن عائلة لو شو يي لا تربي سوى الدجاج، كما بإمكانه أن يفرِّق بين زرق الدجاج والبط حينما يتحول إلى الرمادي. ثم دار دورة في الفناء مبهور الأنفاس، وأزاح الخردة في ذلك الفناء الفوضوي في زاوية، فلم يعثر على البطَّات، ولكن سلة بالية تدحرجت من على كومة الحطب وسقط منها ريش بط أسود اللون؛ كومة من الريش الناعم الدافئ المبقع بقطرات دماء قرمزي. شعر بطنين في رأسه، وكادت رئتاه تنفجرا. «لقد أكلت عائلة لو شو يي بطَّاتي! أكلوا بطَّاتي، بطَّاتي، أكلوا ثلاث بطَّات!». أمسك بيان جين بكومة الريش، وكانت ترتعش في يده بلا توقف، وكان يعلم أن الريش لا يرتجف، بل كانت يده هي التي ترتجف. لم يدرِ ماذا يفعل بكومة الريش. «أكلوا البطَّات في الخفاء!». وبعد مرور بعض الوقت، صرخ بيان جين بغتة، وسمع صدى صرخته الحزينة يتردد في القرية الخاوية، لم يكن هناك غيره ليسمع صرخته.

جلس بيان جين في الفناء على كومة ثلج بالرغم من أنه يراها، لكنه ظل جالسًا يفكر متى سرقت عائلة لو شو يي بطَّاته الثلاث. وقد رأى زوجته البارحة، وسمعها تقول له وابتسامة مرسومة على وجهها: «البط لا يضيع، لا تبحث عنه، سيعود وحده إلى الحظيرة غدًا. «هذه المرأة الشرهة». كزَّ بيان جين على أسنانه حتى أصدرت صوتًا: «هذه العائلة الشرهة! عزَّ عليها أن تذبح دجاجة أو خروفًا من حظيرتهم، بل سرقت بطَّاتي وأكلتها!».

داهمته فكرة الانتقام مفاجئة وعنيفة، فتناثر الريش من يده على الأرض، وأصبح جسده كألعاب نارية انفجرت من الأرض. «أعيدوا إلي بطَّاتي!»، صرخ بيان جين ملتقطًا طست طعام الدجاج وقذفه على الأرض بكل قوته. «أعيدوا بطَّاتي!». ثم رفع جرة ماء وكسرها على الأرض، وهكذا مضى يكسر الأوعية والجرار، ولكن غضبه المتأجج لم يخمد. لكنه أدرك فجأة أن تحطيمه لتلك الخردة لن يعوضه عن بطَّات ثلاث كانت تتقافز بحيوية هنا وهناك، ربما كان الأمر ليختلف لو كان استولى على خنزير أو خروف من حظيرتهم، ولكنهم أخذوا معهم كل المواشي. رفع بيان جين رأسه ونظر إلى السماء بيأس، لكن لم يكن ثمة شيء يُنظر إليه، كانت مكفهرة كالبارحة حين سقوط الثلج، واليوم توقف الثلج كاشفًا عن صفحة سماء زرقاء زرقاء توخز العينين، كسترتها المقطَّنة، لونها يؤذي العينين. ملأ اليأس عينيه، ووقعتا على سطح المنزل، حيث كان يتدلى حبل من السطح يهتز مع النسيم، وفلفل جاف معلق في الحبل. فوثب بيان جين وقطف الفلفل الحار، وقضمه بشراسة، بعدها رأى لافتة معلقة بمقتطفات شعرية على باب المنزل، من ورق أحمر وبرموز سوداء لم تُمس، كان بيان جين أمِّيًّا، لكنه خمَّن أن المكتوب بمعنى (حصاد وافر من جميع أصناف الحبوب، تربية الحيوانات مزدهرة!). «سأجعل حصادك وافرًا! سأجعل حيواناتك مزدهرة»، هكذا صرخ بيان جين وهو يدق الباب.

كان باب المنزل موصدًا، متينًا مهما ركله؛ وهذا القفل المتين ضاعف من غضب بيان جين، وصرخ «لتحرق النارُ بابك وقفلَك المتين». وبرقت في رأسِ فكرة: سار خلف المنزل وقفز على سياج حظيرة الخنازير، ثم تسلق سطح المنزل بسهولة مطلقة.

هل تعلم أن منزل لو شو يي من القرميد أيضًا؟ وهو من أكبر ستة بيوت يتحدث عنها أهالي قرية شيوي، كما أن نقشًا للتنين والعنقاء منحوت

على حافتي الإفريز. أَتعلم أن لو فو تراهن مع لو شو يي، وبنى أكبر بيت من القرميد في القرية؟ ولكن بيان جين صعد السطح الآن مدفوعًا بغضب متأجج، والآن حتى ولو ركع أفراد العائلة التسعة أمامه وذرفوا الدموع، حتى ولو عوضوه بثلاثمئة بطَّة فلن يُجدي ذلك نفعًا، ولأن بيان جين يعلم أن تشييد منزل من القرميد ليس بالأمر الهين، فقد أراد أن يخرب قرميد منزل لو شو يي.

كانت المطحنة أعلى السطح مساعدًا له، فدحرجها قليلًا، وأصدرت قطع القرميد الخضراء صوت تكسرٍ حاد وواضح، فاعترته سورة غضب، إن قطع القرميد تشبه النساء، مهما بكين وأثرن المتاعب فلا فائدة ترجى. ثم جلس بيان جين على السطح وقرع القرميد، حتى أحدث ثقبًا كبيرًا، ثقبًا هائلًا.

صوت رصاصة عابرة نبهه، لم يعلم من أي جاءت تلك الرصاصة، لكن بدت وكأنها موجهة ناحيته. ذُعِر بيان جين، ورمى بالمطحنة وفرَّ، وتعلق بالإفريز وأجال بصره في الأنحاء حيث لمح جيشًا قادمًا من الطريق الشمالي، كان نحو ثلاثمئة جندي، يحملون الأسلحة النارية والذخيرة والمؤونة، ورأى بضعة جنود منحنين نصف انحناءة عند الجدول، وكانت فوهات بندقياتهم بلا شك مصوبة ناحيته، مصوبة ناحية منزل لو شو يي.

أصابه الذعر، وسقط في حظيرة الخنازير، ثم تدحرج على الأرض، طلقة، طلقة، صرخ بيان جين صرختين حادتين وركض إلى زقاق. «لقد جاء الجنود، الحرب هنا!». كان يخبط على أبواب ونوافذ البيوت التي يمر بها راكضًا، إلى أن آلمته يده فتذكر حينها أن أهالي القرية رحلوا، ولم يبقَ سواه.

في تلك اللحظة كان يشعر بالرعب، وانقطع فجأة حزام بنطلونه، فمضى يركض في القرية ممسكًا البنطلون، وخطر بباله أن يذهب إلى حظيرة البط ويجمع بطَّاته، فقطع نصف الطريق إلى شاطئ النهر ثم عاد أدراجه،

وفكر أن هذا الوقت ليس وقت التفكير في البط: «أَلن أكون أحمقَ إن ذهبت باحثًا عن البط؟». وأدرك أنه يجب أن يختبئ، وأن يبحث عن مكان صالح للاختباء متجنبًا الطلقات.

سحب بيان جين قِدرًا حديدية من فتحة في شباك منزل الأرملة وانغ ووضعه على رأسه، ومضى راكضًا إلى منزل عمدة القرية لو شيانغ، وكان اختياره لمنزل العمدة كمكان للاختباء أمرًا طبيعيًا للغاية، فقد فكر بيان جين أن لا مكان أكثر أمانًا من منزل العمدة.

في البداية اندس في كومة قش إلى جانب الموقد، لكن لم تكن لديه فكرة هل سيدخل ذلك الجيش القرية أم لا، ولا يعلم لِمَ صوبوا بنادقهم ناحيته منذ قليل. بالطبع القفز على أسطح الآخرين واقتلاع قرميد منزلهم غير مقبول، لكن هل هذا ما أزعجهم؟ وكيف علموا أن عائلة لو شو يي أكلوا بطَّاته الثلاث؟ أنصت بيان جين للأصوات في القرية، ولكن الحارات كانت ساكنة سكون الموت، وكأن الجنود لم يدخلوا القرية، وجاء من ناحية النهر صوت خافت لسرب بط، وفجأة غمره الانفعال: «البط، بطَّاتي المسكينة، لقد هاجم أحدهم بالتأكيد حظيرة البط، هل سيمسكونها؟ يصطادونها؟». كان صياح البط كسكين يمزق قلبه، وكان يشعر بالألم، وسالت دموعه دمعة بعد دمعة. «امضوا في حربكم، لا يهمني، لكن كيف أخذتم بطَّاتي، إذا هاجمتم البطات لن أرحمكم». واندفع غاضبًا من كومة القش، لكنه سمع صوت خطوات عشوائية قادمة من حارة القرية.

اقتُحِمَت البيوت المجاورة كلها، ودُق شباك منزل العمدة الخشبي بشيء ما فتحطم نصفه، مُدَّت فوهتا بندقيتين سوداوين، ومع كلٍّ منهما يمتد سونكي لامع. تسمَّر بيان جين من الرعب، وفكر أن يعود إلى كومة القش، لكن جسده تصلَّب فجأة، وخطر بباله أنه سيموت هذه المرة، وستنهمر

الطلقات على رأسه. ولكن الأمر الغريب الذي حدث، أن هاتين الفوهتين تراجعتا فجأة، من ثم سمع حوارًا غامضًا يدور بين الجنود.

«لا تبحثوا، تراجعوا بسرعة خارج القرية»، قال جندي.

«أليس هذا الشخص جاسوسًا للفرقة الثالثة عشرة؟»، قال جندي آخر.

«لقد أخبرتكم من قبل أن هذا الشخص ليس جاسوسًا، على الأرجح شخص أحمق، في هذه القرية كثير من الحمقى»، قال جندي ثالث.

وقد أربكه هذا الحوار بين الجنود محاولًا أن يعرف ما معنى جاسوس للفرقة الثالثة عشرة، وكان ممتنًا للجندي الأول. طلقات الجنود ليس لها عينان. والأمر الوحيد الذي كرهه هو كلام الجندي الثالث. «أحمق، أحمق، مَن هو الأحمق؟». سار بيان جين على أطراف أصابعه إلى الباب واسترق السمع، ورآهم يتجهون إلى مدخل القرية. «أحمق؟ أنتَ الأحمق». اندفع بيان جين خارجًا يسب بصوت خافت.

كان لا يزال مرتعبًا. «ما معنى جاسوس للفرقة الثالثة عشرة؟». لم يستطع الفهم رغم محاولاته، إلا أن إحساسًا خفيًا داهمه بأنه أوقع نفسه في ورطة، وكان على ثقة بأن هؤلاء الجنود يبحثون عنه. «ماذا سأفعل لو كانوا يبحثون عني؟»، ولاحت أمام عينيه صورة رأس شخص معلَّق على بوابة المحافظة. «هل سيقطعون رأسي ويعلِّقونه على الملأ؟»، هكذا مضى بيان جين يفكر، ثم شعر بوخز وبرودة في عنقه، فمد يده حيث كانت بضع قشات ملتصقة برقبته، ثم أمسك رأسه وحركها أكثر من مرة، كانت لا تزال في مكانها مثبتة على عنقه، إلا أن إحساسًا بوهن الناجي من كارثة أضعف قدميه، فجلس على تابوت إلى جانب الجدار.

كان التابوت الذي جهزه عمدة القرية لوالدته، أكبر وأفضل تابوت

في القرية، مثل منزل لو فو المشيد من القرميد بالضبط، وكان المسنون جميعًا معجبين إعجابًا بالغًا بهذا التابوت. وإن رأيت كيف يلمسون غطاءه اللامع الأملس، ستعلم كم هو تابوت جيد الصنع. كانت يداه تلمسان الغطاء الآن، وفجأة اكتشف أكثر موضع للاختباء أمانًا وراحة، وقبل أن يرفع الغطاء تذكر يدي عمدة القرية الكبيرتين، كبيرتين كمدمَّة حديدية، إن قرصت أذنك، ستؤلمك ثلاثة أيام. كان عمدة القرية لو شيانغ أكثر رجل يكن له بيان جين احترامًا، لكن بيان جين لا يعير اهتمامًا للكثير من الأمور الآن، وقرر أن يختبئ في التابوت.

(4)

كان التابوت دافئًا للغاية، ولم يخطر بباله أن يكون التابوت بمثل هذا الدفء، وما زاد من فرحته العارمة هو مخزون الأرز والبطاطا الحلوة، فما إن أغلق التابوت حتى غمرته رائحة الطعام والخشب المنعشة، وبثت في بيان جين الشره شعورًا بالنشوة، ولكي يتجنب الاختناق، دس قطعة من الحطب بمهارة تحت الغطاء، وبهذا يمكن أن يتسرب إليه خيط من ضوء خفيف وصاف، وكان في الواقع ضوء شمس ما بعد الظهيرة في الشتاء، وكان يتغلغل من نافذة عمدة القرية الخشبية، وعلى الرغم من خفوته، فقد بعث في نفسه أمانًا لا مثيل له.

تناول بيان جين ست بطاطات حلوة دفعة واحدة، وفي أثناء ذلك تذكر بطَّاته، وأحس بالخزي الشديد. «أملأ بطني هنا، وتلك البطَّات لا أدري ماذا حلَّ بها». وخطر بباله أن بطَّاته بالتأكيد في انتظار أن يضع لها الطعام إذا كانت

حية، لكنه لا يجرؤ على العودة. كيف ستعلم البطَّات بالخطر المحدق به؟ الجنود، الطلقات، الحرب، كيف ستفهم البطَّات ما يحدث؟ لا تعلم سوى الصياح بسببٍ أو دون سبب». مضى يفكر في بطَّاته، لكن جفونه كانت ترتخي متثاقلة، فأمسكها بأصابعه محاولًا فتحها، وكان يذكِّر نفسه أن الوقت الآن ليس وقت النوم، ربما أكل كثيرًا، ربما رائحة الطعام والخشب المنعشة تبعث النعاس في المرء. وغطَّ بيان جين في نوم عميق.

غطَّ بيان جين عشيةِ الحملة على القرية في نوم لذيذ، وخلال نومه تسلل فأر إلى التابوت ولعق بشجاعة بقايا البطاطا من جانب فمه، لكن بيان جين لم يشعر بشيء.

أفاق بعدها على صوت النافذة الشمالية لبيت عمدة القرية، حين سمع شخصًا يدفعها، وظن أنه أحد الجنود عاد ليقبض عليه، وتعالت ضربات قلبه كمطرقة ثقيلة تدق. وعبر في ذهنه سرب البط، فإن كان الموت ليس أفضل من عودته إلى النهر، إذن فليعد وليمت مع بطَّاته. أصدر الشباك صريرًا، وبدا ذلك الشخص خائفًا، لم يكن ذلك الشخص كجندي يتنكب بندقية محشوة، وفكر بيان جين أنه لو كان جنديًا، لما كان سيدفع الشباك ببطء كلص وضيع. «لص وضيع، قطعًا هو لص». رفع بيان جين غطاء التابوت بروية، فانكشف على الفور وجه ملتصق بالشباك، وكما قال وجه نصفه محجوب بوشاح أخضر، لا يظهر منهما سوى عينينِ سوداوين لامعتين ومذعورتين.

كانت فتاة المركب. لم يعرف سبب مجيئها إلى بيت العمدة، ووقف فاغرًا فمه وهو يرى لسان الشباك يُكسَر أخيرًا. دخلت الفتاة، ثم خرجت مرة أخرى، ورمت شيئًا إلى الداخل استطاع تمييزه، كانت السمكة السوداء الكبيرة، ثم سمع صوت خبطة، فكانت الصفيحة التي رمتها الفتاة إلى

الداخل ووقعت إلى جانب التابوت.

لم يدرِ لِمَ اقتحمت الفتاة شباك العمدة، ويعلم بيان جين أن المنزل خال، وأن القرية خاوية، فيجب عليه أن يُخرج هؤلاء اللصوص منها. لهذا نهض فجأة من التابوت، وكان يعلم أن هذا مخيف لأي شخص، لكنه لا يهتم لتلك الأمور، فما إن دخلت الفتاة من الشباك، حتى أصابها الذعر الشديد بسببه.

استندت الفتاة إلى الجدار، ويدها تمسك غصنَ شجرة وترتجف، قالت: «هل أنت عفريت؟» وعيناها السوداوان تحدِّقان إليه. ثم صاحت بحدة: «لا تقترب، سأضربك إن اقتربت».

ابتسم بيان جين، وفتح فمه وزرَّ عينيه ومثَّل أنه عفريت وقال: «نعم أنا عفريت، وأنتِ لصة، أنت لصة صغيرة بالفعل!».

«لستَ عفريتًا، بل أنت ذلك الأحمق». تعرفته الفتاة فجأة، وتنفست الصعداء، وألقت بالغصن بعيدًا وقالت: «أَلم تكن ترعى البط عند النهر؟ ما الذي جاء بك إلى التابوت؟ لقد أخفتني».

أحس بيان جين أنها سرقت منه السؤال، فتملكه شيء من الغضب، وجحظت عيناه وقال: «ماذا عنكِ؟ أَلم تكوني على المركب؟ ما الذي جاء بكِ إلى منزل العمدة؟ تريدين السرقة».

«أنت الذي تسرق، أنا أبحث عن كيروسين» انحنت الفتاة والتقطت السمكة وقالت: «أنا لا أسرق، إن وجدت كيروسين فسأترك السمكة في بيت مَن أجده عنده. هل تعلم أين يضعون الكيروسين هنا؟».

«لا أدري. نحن في حرب، وأنتِ تبحثين عن الكيروسين؟ لماذا؟».

«لن أخبرك إلا إذا ساعدتني في العثور عليه».

«لن أساعدك، هل تريدين أن أصبح لصًا مثلك؟».

«أنا لستُ لصة، أنا فتاة المركب شياو وان!». ثم التقطت صحنًا مكسورًا من على الموقد وقالت: «هل ترى، هذا اسمي».

«هل اسمك صحن؟». ضحك بيان جين.

«اسمي ليس صحنًا، بل اسمي شياو وان، هكذا تناديني أمي».

«أنت تخدعينني، كيف يمكن أن يُسمَّى شخصٌ بالصحن الكبير أو الصغير؟ هل تظنينني أحمقَ، إن ظننتِ ذلك فلن تفلتي مني». اقترب بيان جين منها وهو يلوِّح لها بقبضته، ثم قال: «لا تخدعيني، ما اسمك الحقيقي؟».

«أكون كلبة صغيرة لو خدعتك». حنت الفتاة ظهرها وفرَّت من تحت ذراعه، ثم انخرطت في بكاء حاد. «إنك تزعجني، لا مزاج لي لأتحدث إليك، إن لم أجد الكيروسين، ستموت والدتي».

«أعلم أن يوضع الكيروسين». تبعها بيان جين قائلًا: «سأساعدك في العثور عليه، لكن يجب أن تخبريني لماذا تريدينه، أَلن تموت والدتك إذا شربته؟».

«ليس للشرب، بل لإضاءة قناديل، إضاءة ثلاثة قناديل». اندفعت نحوه زاعقة. «أخبرتك وأنت لا تفهم، أنت تتصرف كأحمق، ولا تساعدني في البحث، بل تسأل عن هذا وذلك فحسب، إن لم تكن أحمقَ فماذا أنت؟».

حدَّق إليها بيان جين تقدح عينيه شررًا، وحدَّقت إليه هي الأخرى بعنادٍ وإصرار، ولكنها أدارت وجهها فجأة وأجهشت بالبكاء: «إنك تغضبني، ساعدني أرجوك. ساعدني وسأعد لك حساء السمك، ولن أنعتك بالحمق مرة أخرى»، قالت الفتاة وهي تذرف الدموع.

«لا أحب حساء السمك، البط فقط مَن يحب هذه الرائحة الزنخة. قال

بيان جين لاهثًا. «من غير المسموح أن تشتميني بأحمق، إن شتمتِ الآخرين بالحمقى تكونين أنتِ الحمقاء».

لم يكن بيان جين يتحمل دموع الآخرين، فما إن يبكي أحدهم حتى يوخزه أنفه، ويشعر بالضيق والغم يعتريان قلبه. لهذا بحث عن الكيروسين في منزل العمدة. ويذكر أن قناديل منزله تومض بشدة في الليل، لذلك لا شك أن في منزله كيروسين. نزل بيان جين تحت سرير الزوجين بجرأة، ووجد تحته الكيروسين. يذكر بيان جين أن الفتاة مدت إبهامها وغمسته في الغطاء ثم أدخلته في فمها. «إنه كيروسين، ستتوهج القناديل!». هتفت الفتاة مبتهجة، ثم صبَّت من الكيروسين في صفيحتها، ملأتها إلى المنتصف ثم قالت مترددة: «كم أصب مقابل السمكة ويكون عادلًا؟ لا يجب أن أصب أكثر من ذلك، ما رأيك؟».

هزَّ بيان جين رأسه معترضًا وقال: «العمدة رجل طيب، وهو ليس في المنزل على كلِّ حال، صبِّي كما تشائين».

بعدها حملت الفتاة الصفيحة وخرجت مسرعة من منزل العمدة، ولم تبتعد كثيرًا، وتبعها بيان جين وهو يغطي رأسه بقدر نحاسية بالية وجده في حارة القرية، متطلعًا حوله بحذر. استدرات الفتاة ووقع نظرها على رأسه المغطَّى بالقدر فانفجرت ضاحكة.

«لِمَ تتبعني؟» توقفت الفتاة. «أنا ذاهبة لتعليق القناديل. سأعلق ثلاثة قناديل».

«مَن يتعبك؟ أنا ذاهب إلى بطَّاتي»، قال بيان جين. «أَلم تسمعي صياحها منذ قليل؟ بالتأكيد تشعر بالجوع القاتل، هل لديكم في المركب أسماك صغيرة أو روبيان؟ أو حلزون سيكون جيدًا كذلك».

«لدي سمك لوتش، ولكن يجب أن أطعم طائري العقاب أيضًا». حنت

الفتاة رأسها وفكرت ثم قالت: «يجب أن أساعدك كما ساعدتني، سأعطيك نصفها، تعالَ معي».

«لا يمكن أن نتحرك عبثًا». كان لا يزال يتطلع حوله. ثم قال: «ألَا تعلمين أن هناك حربًا؟ ليس للطلقات عينان، إلا إذا كنتِ مثلي ولكِ عينان في قفاكِ، حينها فقط ستكتبُ لكِ النجاة من الطلقات» ثم تذكر بيان جين فجأة حديث الجنود وقال: «هل تعلمين شيئًا عن جاسوس الفرقة الثالثة عشرة؟» سألها بيان جين: «ما معنى جاسوس؟ هل أنا جاسوس الفرقة الثالثة عشرة؟».

لم تسمع الفتاة ما قاله، بل حملت الصفيحة وركضت بسرعة كأرنب، ثم ما لبثت أن اختفت في حُمرة الشفق. تأمل بيان جين ذاك الظل الصغير المبتعد، إلى أن تلاشى وشاحها الأخضر في النور المنعكس على صفحة مياه النهر. شمَّ بيان جين رائحة الفتاة الفريدة التي فاحت منها أثناء سيرها؛ رائحة كيروسين وسمك زنخة ورائحة أخرى منعشة ممتزجة، ومُعلَّقة في الهواء البِكر بعد سقوط الثلج لم تتبدد بعد. شعر حينها فجأة بأن وجوده مع الفتاة أفضل من وجوده بمفرده ومن أن يكون شخصًا وحيدًا يجوب القرية الخاوية، فبعث هذا الأمر في نفسه وحشة غريبة.

كان هذا في مغربِ ما، قبلَ أن تُشَنَ الحملةُ الشهيرة على قرية شيوي. وعلى بعد خمسة لي في قرية هوا، وفي برج المراقبة هناك، كان هناك جندي يراقب التحركات في المنطقة. وعبر المنظار رأى الجندي شخصًا غريبًا، شخصًا يغطي رأسه بطاسة نحاسية ويتطلع صوب النهر، ثم يختفي بين سرب بط كبير، ورأى بالطبع في مكان أبعد مركب صيد طاف.

وكان جليًا، أن ذاك الشخص، وذاك المركب، يثيران الريبة.

(5)

حمل بيان جين بطة وجلس في حظيرة البط غاضبًا. انظر إلى هذه البطة المسكينة، لقد التوى عنقها كزلابية مجدولة وارتخى على جناحها، وأصبحت ككائن عجيب بلا رأس. وقد لمحها بيان جين على الفور بين البطَّات تسير مترنحة صوبه، لم يسمع صياحها، بل صدر منها صوت أنين، هكذا كانت البطة المذعورة تبكي لراعيها. بسط بيان جين عنقها بسرعة، لكنها لم تفرده باستقامة، وبدت كغصن شجرة مقطوع متهدل، ومنقارها ملتصق بوهن براحته. انفطر قلبه، وشعر أن عنقه أيضًا قد التوى عدة مرات كزلابية مجدولة، وأنه لا يستطيع بسطه كذلك.

أطرق بيان جين رأسه وجلس في حظيرة البط غاضبًا، ويحمل في نفسه كرهًا لهؤلاء الجنود. «هل لأنهم مسلحون بالبنادق والسكاكين يهينون الناس كما يشاؤون، يهينون الناس والبط كذلك. لم أضايقهم، ولم تضايقهم بطَّاتي أيضًا، أَلا يشبهون كلابًا برية بإهانتهم الناس هكذا؟ الكلاب البرية وحدها من تعض وتنبح بعشوائية، الكلاب البرية مَن تلاحق البط بهذا الشكل». وخطر بباله أن يبحث عن هذا الجندي اللعين. «إن سألت البطة لن ترد لأنها لا تستطيع الكلام، ولو كان باستطاعتها الإجابة، فليس بيدي حيلة كذلك. فالجنود لديهم بنادق، والبنادق محشوة بالرصاص، والرصاصة إن استقرت في دماغك ستموت، لا مفر».

لم يكن بيده حيلة، ولذلك تملكه الغضب. ولم تكن البطَّات تعي أنه غاضب، وعلى الأرجح كانت جائعة، فتحلقت حوله وظلت تصيح إلى أن ضجر بيان جين، فانفجر فيها غاضبًا: «لا زلت تصيحين ــ لا زلت تصيحين

ـــ ماذا؟ لا زلت تصيحين؟ أتعلمون أن هناك حربًا؟».

إلا أن البطَّات لم تسمع كلامه، فاستشاط غضبه، وأراد أن يجعلها تندم على فعلتها. ركض خارجًا مسافة قصيرة، لكنه كان لا يزال يسمع صوت صياحها، فضرب بقدمه على الأرض مغتاظًا وقال: «أأنتِ كلاب برية أيضًا؟ الكلاب البرية وحدها تصيح هكذا، لا تفهمين أي شيء، لِمَ أرافقك وأنتِ في قلق وفي خوف، صيحي كيفما شئتِ، لا أهتم إن متِ من الجوع، لن أهتم بعد اليوم».

أراد بيان جين أن يثير خوفها، لكن صراخه الغاضب أثار خوفه أولًا. «أَلن ينتبه الجنود إلى صوت عالٍ كهذا؟». خاف بيان جين واستشاط غضبًا، فقرص شفتيه وركض باتجاه النهر. لم تدرِ البطات لِمَ يركض راعيها هناك، لم يعلم السبب إلا بيان جين وحده، إذ تذكر وعد فتاة المركب، كان ذاهبًا ليعود بنصف سلة سمك اللوتش طعامًا للبطَّات التي لا تطيعه.

كانت ضفتا النهر غارقتين في شفق الشتاء، وقد نفضت الرياح الثلج المتجمع على أعواد القصب، ونفضت عسيل القصب الجاف، حتى لا تكاد تميز إن كان ما يملأ السماء ثلج أم عسيل قصب متطاير، وبدت الشمس الغاربة في نهاية النهر مضببة، تراها تغيب على مهل، لكن هل تعلم إلى أين تغرب الشمس؟ هل تعلم أن بيان جين مربي البط لا يجب عليه أن يركض بمحاذاة النهر الآن، لكن مَن يدري لماذا يركض؟

رأى مركب الصيد، ورأى القناديل الثلاثة المعلَّقة، ثلاثة قناديل معلَّقة، كل قنديل أعلى من الآخر، يومض أكثر من الآخر. هتف بيان جين بجذل: «ثلاثة قناديل!». وتذكر الفتاة حين قالت إنها ستعلِّق ثلاثة على المركب، إلا أنه اعتبر تلك القناديل أعجوبة حين رآها.

انعكس ضوء القناديل على وجه الفتاة حين ظهرت من المقصورة، وأنار ابتسامتَها ووجهها المزيت. قالت له: «كنت أعلم أنك قادم، لقد جهزت لك نصف سلة سمك اللوتش، هل ترى تلك السلة؟ لقد وضعتها لك في الماء».

رفع بيان جين السلة، وعيناه معلَّقتان على القناديل الثلاثة وقال: «كل قنديل أشد سطوعًا من الآخر، ليست مشرقة كالشمس، لكنها مضيئة أكثر من القمر» أدار وجهه ونظر إلى القمر في الجهة الغربية، حيث كانت السحب الحمراء المشرقة تتدفق هناك، ولم يظهر القمر من بينها. «لم يظهر القمر بعد، ولم يخيم الظلامُ بعد، لِمَ تضيئين القناديل باكرًا؟ ألن تهدري الكيروسين؟»، قال بيان جين.

«أرادت والدتي أن أضيء القناديل، لا تتدخل في أمور عائلتي، لن يفهمها أحدكم».

«حسن حسن، لماذا ثلاثة قناديل؟ لماذا لا توفر والدتك الكيروسين؟ هل لديها الكثير منه؟».

«طلبت مني والدتي أن أضيء ثلاثة قناديل، ولذلك معنى، لكني لن أخبرك، لأنك لن تفهم». وابتسمت، ثم عضَّت إصبعها وقالت: «خمِّن، حتى لو خمَّنت فلن يكون صحيحًا».

«السمك، بالتأكيد، القناديل الثلاثة تجذب الأسماك»، قال بيان جين. «أنا أفهم أساليبكم أيها الصياديون، الفراشات تنجذب إلى الضوء، السمك كذلك، أينما يكون الضوء يسبح ناحيته».

«كنت متأكدة من أن تخمينك خاطئ. حاول مرة أخرى لنرى إن كنت أحمقَ أم لا» ضحكت الفتاة ثم أردفت قائلة: «تقول أمي إنك أحمق أيضًا».

«أنتِ الحمقاء». تغيرت ملامح وجهه فجأة ثم قال: «الأحمق مَن يهدر الكيروسين، الأحمق مَن يشعل ثلاثة قناديل دفعة واحدة». قفز بيان جين إلى المركب فجأة، ثم أدار وجهه وقال للفتاة: «إن شتمتني بالأحمق مرة أخرى، سأنزل القناديل، وأعيد الكيروسين إلى منزل العمدة».

ذعرت الفتاة، وكادت أن تقفز إلى المركب وتمسك بذراعه: «لا تغضب، لن أمزح معك مرة أخرى. لا تُنزل القناديل، إن أنزلتها ستموت والدتي». صرخت الفتاة.

أنزل يده، وجلس على مقدمة المركب مزهوًا بنفسه، وقال: «هل تمزحين معي مرة أخرى؟ هل القناديل الثلاثة دواء عجائبي أم ماذا؟ إن شطب ملك الجحيم اسم والدتك في دفتره الصغير، ستموت، وحين تموت ستوضع في تابوت، وحين توضع في التابوت لن تخرج مرة أخرى، فما فائدة القناديل حينها؟ لا فائدة حتى لو كانت تسعة قناديل».

«ليس منكم مَن يفهم شؤون عائلتنا». وقفت الفتاة على أطراف أصابعها وعدَّلت وضع القناديل المعلَّقة. وقالت: «بدون القناديل الثلاثة، لن يستطيع والدي الوصول إلى مركبنا، إن لم يعثر على مركبنا هذه المرة ستموت والدتي، هذا قَدَر، أمر لا تفهمه أنت».

«أين والدك؟ في النهر؟ لعل والدك سمكة؟».

«ليس سمكة، يا لك من أحمق!». نسيت الفتاة ما وعدته به منذ قليل، مركزة عينيها السوداوين بغضب عليه. «إن والدي جندي في الفرقة الثالثة عشرة، لديه الكثير من البنادق، إن لم تتوقف عن تصرفاتك الطائشة سأجعله يقتلك!».

«الفرقة الثالثة عشرة؟» لم يغضب بيان جين هذه المرة وهو يسمع كلمة

الفرقة الثالثة عشرة تقفز من فمها. «الفرقة الثالثة عشرة؟ هل قلتِ الفرقة الثالثة عشرة؟ هل هو جاسوس؟» قال بيان جين. «لا تخيفيني، أنا أعلم ماذا يعني جاسوس للفرقة الثالثة عشرة، إن والدك ليس جنديًا، هو مثلي، بالطبع متخصص في تسلق سطوح بيوت الناس، من أين له بالبنادق، إن كان يقضي أيامه بأكلمها في تسلق السطوح، بالتأكيد سيتعرض لإطلاق النار».

«أنت مَن يتسلق السطوح، أنت مَن ستتعرض لطلقات الرصاص». احمرت وجنتاها وأمسكت بعصا خيزران ولوحت بها باتجاهه، وظن بيان جين أنها ستضربه فابتعد عن طريقها، لكن الفتاة ضربت على المياه بالعصا، ولم يفهم الأخير ما هي فاعلة إلى أن ظهر طائرا العقاب من الماء، وإلى أن أطلقت الفتاة صفيرًا واضحًا، حينها فقط أدرك بيان جين الخطر الذي سيتعرض له. وهو يعلم أن الفتاة في أوج غضبها هذه المرة.

«عُضَّاه، عُضَّا ذلك الأحمق، عُضَّاه، مرتين، ثلاث مرات». كان اللطف والخوف قد تلاشيا من صوت الفتاة، وامتلأت عيناها بدموع لؤلؤية. وتأثر بيان جين بتلك الدموع وخفق قلبه، وبعد أن غادر المكان لم يمنع نفسه من الالتفات والنظر إلى تلك الدموع: «ما بكِ؟ لم أهنك، أنت دعوتني بالأحمق، وجعلت الطائرين يَعَضَّاني»، قال بيان جين هاربًا من المكان. «أنا لم أبكِ فلِمَ تبكين؟».

لا يعلم بيان جين ما سبب سورة الغضب التي اعترتها، ولا عجب أن اسمها صحن صغير، فوجهها يشبه طقس شهر يوليو، يتغير بسرعة. وفكَّر ما الخطأ الذي اقترفه، جاسوس الفرقة الثالثة عشرة يتسلق السطوح، وسيتعرض لطلقات النيران، وإلا فلماذا يبحث الجنود عنه في كل منازل القرية؟ ركض بيان جين فترة طويلة، وتذكر فجأة أنه نسي سلة السمك، ولن يستطيع أن يعود خاوي اليدين، ولا يجرؤ على النزول إلى النهر وجمع

الحلزون، وإن لم يطعم البط يومًا آخر فلن يبيض، ولذلك من أجل البط، عاد أدراجه مكرهًا، وفكر أنه ليس خائفًا من الطائرين، الأسماك فقط تخاف، ألا يستطيع الشخص أن يعض تلك الطيور طالما تعض الأشخاص؟»

«أعطني نصف السلة التي وعدتني بها، لا ينبغي أن تخلفي وعدك». وقف بيان جين عند المركب وهتف: «إن جعلتِ الطيور تعضُّني، سأعضُّها أنا أيضًا، ونرى مَن سيتغلب على الآخر!»

تحرك ستار السقيفة وظهر وشاح الفتاة الأخضر ثم اختفى مرة أخرى، لم تكترث به الفتاة، ولهذا بحث بيان جين بنفسه عن السلة، وهو يعلم أنه لن يعثر على شيء، وظلَّت نظراته معلَّقة على القناديل الثلاثة، وإذ كانت العتمة على وشك الانتشار، اكتشف بيان جين أن القناديل تتوهج أكثر فأكثر.

«أعطني سلة السمك، إن هذا السمك يخصني، لا يمكن أن تخبئيه». أمسك حافة المركب وظل يؤرجحه قليلًا. «السمك مقابل الكيروسين، لا تخلفي وعدك».

ومن داخل المقصورة تهادى صوت المرأة التي تشرف على الموت: «شياو وان، شياو وان». لكن الفتاة ظلت مختبئة في الداخل وصامتة، ولم يخمِّن بيان جين ما في يدور في بالها. «ألم تسمعي والدتك تناديك وتطلب منك أن تعيدي لي السمك؟». خبط بيان جين على جانب المركب متطلعًا إلى القناديل الثلاثة المعلَّقة، ثم قال: «لم تكوني لتعثري على الكيروسين بدوني، وإلا كيف أشعلتِ القناديل؟». عقد بيان جين العزم على استخدام نبرة التهديد في الخطوة القادمة، لكن سلة السمك طارت فجأة من المقصورة، واستقرت عند قدمه، التقطها بيان جين. «لكني لم أقل إنني سوف أنزل القناديل». رفع رأسه ونظر إليها، ثم غمغم قائلًا: «فلتعلِّقوها، وأهدروا الكيروسين، افعلوا ما يحلو لكم، ليس لي دخل».

تذكَّر بيان جين أن إطلاق النار المفاجئ جاء من بين الأحراج، واستطاع أن يشعر بالرصاصات الكثيفة تعبر النهر، وتتغلغل داخل الريح والضباب. وإذ ذهب بيان جين باحثًا عن قِدره النحاسية البالية التي كانت تبعد عنه ست أو سبع خطوات، باغتته طلقات النيران المفاجئة، فأحجم عن التقدم، وقرفص بفزع وألم محتضنًا سلة السمك. «لا تقرفص، انبطح، يا أحمق، انبطح بسرعة!».

سمع الفتاة تهتف من المركب بصوت عالٍ، فانبطح. في البداية أغلق عينيه بشدة، وسمع بشكل مشوش صوتًا صافًا لزجاج يتكسَّر، وخمَّن أن بضع طلقات جاءت في القناديل الثلاثة. وبعد مرور فترة، أحس بيان جين أن إطلاق النار توقف فجأة، فمد رأسه مستكشفًا الوضع، كان السكون يخيم على الأحراج عند ضفتي النهر، ففتح عينيه، وألقى نظرة سريعة على القناديل الثلاث المعلَّقة عند مقدمة المركب التي كانت لا تزال تتوهج مشرقة في عتمة الليل. لكنه اكتشف أن القنديل الأعلى لم يكن معلَّقًا، بل كانت الفتاة تحمله.

كانت تقف عند مقدمة المركب، تحمل المصباح بيد، ومنديلًا أبيضَ في اليد الأخرى. ثم قالت له: «انهض، كل شيء على ما يرام الآن، هم يعرفون أننا مدنيون، لن يطلقوا علينا الرصاص مجددًا».

جلس بيان جين عند ضفة النهر ناظرًا بتفحص إلى الأحراج المقابلة، وقال وقد ثقلت نفسه: «فهمت، الرصاص لن يُطلق علينا، بل على القناديل الثلاثة تلك، الحرب تهاب النور، هل تفهمين ذلك؟ طلبت منك ألا تضيئي قناديل كثيرة لكنك لم تستجيبي».

«لقد حطَّموا غطاء القنديل». رفعته الفتاة وتفحصته بدقة، ثم تنهدت قائلة: «لو كنت لوحت لهم بالمنديل الأبيض في وقت أبكر لكان الوضع

أفضل، لكنني لم أجد المنديل إلا منذ قليل، لو كنت وجدته لم تكن رصاصاتهم لتحطِّم غطاء القنديل».

«ها أنت مخادعة من جديد. ما فائدة المنديل الأبيض؟ عشرة مناديل لن تكون حاجزًا أمام طلقة رصاص واحدة».

«يعرفونني حالما ألوِّح بالمنديل الأبيض، يميزون مركب عائلتي فلا يطلقون الرصاص. إنني لا أخدعك، أينما تحارب الفرقة الثالثة عشرة يذهب مركبنا، إنهم يعرفونني، ويعرفون أني مدنية، وأني في انتظار عودة والدي».

فغر بيان جين فاهه، وأراد بشدة أن يكذِّبها، لكنه ولفترة لم يتحدث بكلمة. وكان واثقًا بأن الفتاة هي التي أوقفت سيل الرصاص منذ قليل، المشكلة أنه لم يكن قادرًا على تصديق هذا الأمر العجيب: منديل أبيض، هذا المنديل الأبيض؟، سار بيان جين في اتجاهها مدفوعًا برغبة في رؤية هذا المنديل الأبيض عن قرب، وقال للفتاة: «دعيني ألقي نظرة على هذا المنديل، من أي شيء صُنَع هذا المنديل؟».

«ما هو إلَّا منديل أبيض»، بسطت الفتاة المنديل، وأمسكت طرفه ولوحت به يمينًا ويسارًا، ثم قالت: «سأعلمك كيف تلوِّح بالمنديل. في البداية كنت خائفة، لكن لم أخف بعد ذلك. حين تلوِّح بالمنديل يعرفون أنك لست مسلحًا، وأنك مدني، فلا يطلقون عليك النار. هيا، سأعلمك أمسكت الفتاة بيده ودست فيها المنديل ثم قالت: «هيا لوِّح به، لوِّح به ولن تخاف».

يد صغيرة دافئة وخشنة قبضت على يده. «لا تعلميني، مَن لا يستطيع التلويح بمنديل؟». لكني لا أصدق، هل يحمي منديل أبيض الشخص من طلقات الرصاص»، قال بيان جين.

كان هذا في ليلةٍ ما، قبلَ الحملةِ الشهيرة على قرية شيوي. علم مربي البط بيان جين فائدة المنديل الأبيض في الحرب. ولمَّا حمل سلة السمك مغادرًا المركب، كانت الفتاة المدعوة شياو وان لا تزال تحمل القنديل وتقف عند مقدمة المركب. تذكَّر ضحكتها عبر نور المصباح وهي تقول: «أنا أعلم أن والدي في أحراج الضفة المقابلة، وما إن يرى القناديلَ الثلاثة، سيعود إلى المركب!».

(6)

عدة ديوك تركها أصحابها على كومة تبن تراقبُ سماءَ الفجر، إلى أن صاحت صياحًا عاليًا تارة ومنخفضًا تارة أخرى، وظهرت تحركات أشخاص عند أحراج ومقابر ومنازل ضفتي النهر. وكما نعرف فقد اشتهرت الحملة على قرية شيوي بصياح الديوك، فإذا ما صاحت الديوك في الصباح الباكر قرب النهر، تبدأ الحملة.

سمع بيان جين دويًا هائلا وثقيلًا يرج النهر، وتفرقت البطَّات هنا وهناك، فاندفع من الحظيرة ممسكًا بالمنديل بالأبيض، وكان يعلم أن الحرب اندلعت بالفعل هذه المرة. أمَّا ماء النهر فقد توقف عن التدفق تجاه المصب، وتفسخت سماء الفجر، حتى أحس بيان جين أنهم أحدثوا فجوات فيها، وسال دم وقيح بلونين أسود وأحمر، كانت الحرب قد اندلعت بالفعل، لكنك لا ترى الرصاصَ المُتَبَادَل، ولا تسمع هجوم الجنود، لا ترى إلا دفقات من دخان البارود، كضبابٍ هائل يغمر الأرجاء، ترى أسراب العصافير تعبر النهر بفزع، وتفقد طريقها مرتبكة. كانت هذه الحرب حقًّا، ولم يتوقع بيان جين أن دمار الحرب يسفر عن دخان أسود هائل كهذا، ولم

يتوقع أن طلقات الرصاص ستدوي أكثر من دوي الألعاب النارية في بلدة ما تشياو عشية عيد الربيع.

كان موقع الهجوم على شكل حرف T بمحاذاة النهر، حيث كان إطلاق النار على أشده هناك، ومن بعيد يمكنك رؤية احتراق أعواد القصب الجاف، حيث غيرت الريح مسار القذائف المشتعلة ناحية القرية، وشاهد بيان جين تلك القذائف تطير بسرعة إلى أعواد القصب الجافة التي تمتصُّها متفجرة.

لم يكن قادرًا على حساب المسافة بينه وبين الجنود، لكنه حين رأى القش يحترق في لمح البصر من قذيفة وقعت في حظيرة البط، لم يكن متأكدًا من أن الطلقات ستصيبه أم لا، بل كان يريد جمع تلك البطَّات المذعورة بسرعة، ليرحل بها عن ضفة النهر المكشوفة، ويمضي إلى القرية.

هَشَّ بيان جين البط ناحية القرية، وفجأة ارتجت القِدر التي يضعها على رأسه، وأدرك أن رصاصةً أصابته. لم يكن بيان جين خائفًا من طلقات الرصاص كما كان من قبل، وحاول بكل جهده أن يلوح بالمنديل الأبيض. «أنا مدني، وأعزل!». هكذا كان يهتف لكل شجرة وكومة قش، لكنه لم يرَ سواها، وبدا أن لا خطرَ يهدده داخل القرية. شهد بيان جين بعينيه الأعيرة النارية والطلقات المتبادلة، لكنه لم يلمح جنديًا واحدًا، وخمَّن أن الجنود ربما محجوبين بسبب النيران والدخان الأسود.

وإذ وصل بيان جين إلى المعبد، ولمح شخصًا هناك تجمَّد من الرعب. فقد حطم الجنود نصف بابه، وكان أمام البوابة عربة كبيرة ذات عجلات، وجنديان يُنزلان من العربة شيئًا ما. لكن بيان جين ميَّز هذا الشيء على الفور، لم يكن شيئًا، بل كان شخصًا، لكن هذا الشخص لم يكن يشبه إنسانًا، ووجهه لم يبدُ كوجه إنسان، بل كان كتلةً من اللحم والدم، وكشف بنطاله الذي احترق جزء كبير منه عن قدم مكسورة، كان أشبه بغصن شجرة قُطع

نصفه وتُرك معلَّقًا مترنحًا هناك.

تجمَّد بيان جين من الرعب، وكان في الأصل يود أن يسوق بطَّاته إلى المعبد، إلا أن ذلك أصبح أمرًا بعيد المنال. أصابته الحيرة، ورأى كومة قش إلى جانب الطريق فأسرع بالاختباء خلفها، إلا أن حركة اختبائه كانت بطيئة بعض الشيء، والبط لا يعرف كيف يختبئ، وبدأ يصيح بصوت أعلى، حتى إن تحولت إلى إنسان ذي قدرات خارقة فلن تستطيع إسكاته وتخبئته، لذا سمع بيان جين شخصًا يندفع إلى الخارج، وشخصًا يزعق بقوة: «أحدهم وراء كومة القش!».

أدرك بيان جين أن مخبأه انكشف، وتذكَّر مشهد الفتاة ملوحة بالمنديل الأبيض عند المركب، فاتخذ قراره وخرج من وراء الكومة، لكنه بالطبع لم ينسَ الحركة التي علمته إياها الفتاة، فخرج ملوحًا بالمنديل للجنود وقال: «أنا مدني، وأعزل، ولست جاسوس الفرقة الثالثة عشرة!».

سحب الجنود بنادقهم، وصاحوا في الوقت ذاته: «كلمة السر، كلمة السر!».

«كلمة السر! أين كلمة السر؟». نظر بيان جين خلفه، لكن القِدر النحاسية حجبت رؤيته. «لا أحمل أي كلمة سر، ليس معي إلا هذه البطَّات، أنا مدني يربي البط».

«أنزلْ القدرَ النحاسية من على رأسك»، صرخ الجندي.

وإذ خلع بيان جين القِدر، تراءت أمامه خمس أو ست فوهات بنادق سوداء مصوبة إليه، واتجه ناحيته جندي وجعل يده وراء ظهره، ثم فتشه من أعلى رأسه إلى قدميه. «حسنٌ قد فتشتني» ظلَّ بيان جين واقفًا بانصياع وسكون هناك، وقال: «إذن فلتظلَّوا في المعبد، سأسوق البط إلى مكان آخر».

في النهاية ضربه هذا الجندي بالبندقية في ضلعه وقال: «هل أنت أحمق؟ أَهذا وقت الخروج هنا وهناك؟ هل تريد الموت؟». نظر الجندي إلى بيان جين الذي كان يقف في مكانه مذهولًا، فركله على مؤخرته قائلًا: «يا أحمق، ألن ترحل من هنا؟».

فهم بيان جين أن عليه أن يغادر المكان، ولوهلة لم يدرِ إلى أن يسوق البط، وكان منزل العمدة لو شيانغ هو أكثر الأماكن المطبوعة في ذاكرته أمانًا وهدوءًا. لذا ساق بيان جين بطّاته وسط الحرب المتأججة في القرية إلى منزل العمدة.

لم يُدخِل البط إلى المنزل، فهو يعلم أن زوجة العمدة مولعة بالنظافة. وشم بيان جين رائحة الحبوب والخشب المنعشة لدى دخوله، وكان ذلك التابوت لا يزال مفتوحًا، وحبات القمح منثورة على غطائه كذرات نور ذهبية، حين هدأ قلبه المضطرب كأرنب مذعور الآن، مع أنه لا يعلم سبب اطمئنانه حينما يدخل منزل العمدة، اتجه إلى مبولة موضوعة في زاوية، وتبول براحة بال، ثم قفز إلى التابوت.

لا يمكنك أن تنكر فائدة ذاك التابوت العجيبة في الحرب. كان دافئًا. هل تعلم أن الشخص الذي يعاني من الجوع والبرد حالما يشعر بالدفء يغط في نوم عميق بسرعة؟ في البداية ظل بيان جين مركزًا سمعه على طلقات النار خارج القرية، ولما كان يفصله عنها خشب التابوت السميك، بدت تلك الطلقات كحبات فول تُقلى في قدر، تبتعد شيئًا فشيئًا، وتخفت شيئًا فشيئًا.

كان الدم يفترش الأرض الشاسعة عند ضفتي النهر الممتدتين في تلك اللحظة، ودخلت الحملة على القرية مرحلةَ القتال بالسلاح الأبيض الضارية، وقد فوَّت بيان جين النائم على نفسه رؤيةَ ذلك المشهد الذي قلَّما يتكرر. ورأى بشكل مشوش شباك عمدة القرية يُدفع، وفتاة بوشاح أخضر تضع صفيحة زيت على إفريز الشباك: «هل جئتِ مرة أخرى؟»، غمغم بيان

جين. «ثلاثة قناديل، أَما زلتِ تريدين أن تضيئي ثلاثة قناديل؟». سمع بيان جين نفسه يتحدث، وسمع أيضًا صوت شخيره الحلو.

في الحقيقة لم تكن الفتاة من رآها بيان جين، بل كانت بطة دفعت الشباك. ليست سوى بطة.

(7)

كانت الحرب الواقعة أعلى التلة كزهرة هائلة بلون الدم، ولا بأس أن ترى الحملة التي شنت على القرية في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني للسنة القمرية كبرعم في تلك الزهرة، وإذ تلاشى دخان البارود وعاد الطرفان مُكفَّنين بدمائهما متشربين ما يكفيهما منه، أضحت تلك الزهرة أكثر احمرارًا، ومن رآها ستتولد بداخله ذكرى دافئة وحلوة لتلك الحرب.

كان السكون يخيم على النهر فترة ما بعد الظهيرة، وبضع جثث تطفو على سطحه كسمكات تعوم مع التيار، وتلك الجثث التي تطفو على المياه كسمكات تعوم مع التيار تعني أن إطلاق النار توقف مؤقتًا، وكان تلك معرفة بديهية يدركها مربي البط بيان جيان أيضًا، الذي ما إن خرج من القرية حتى ألقى بالقِدر النحاسية من على رأسه، وألقى بالمنديل الأبيض الذي يقبض عليه بيديه.

وما حمله على التيقن من أن هذه الحرب قد توقفت، أن العصافير عادت إلى أعشاشها على أغصان الشجر، وأن الدخان الأسود الذي يحجب السماء قد انقشع، وأن شمس الشتاء الدافئة عادت فانعكست على الثلج أعلى أسطح البيوت، والأهم من ذلك كله، أن مجموعة الجنود التي كانت في المعبد

غادرت، ولم يتبقَ في الأرض الموحلة أمام بوابته سوى آثار عربات مطبوعة بعمق تمتد حتى الطريق الرئيس البعيد. لم يتمالك بيان جين نفسه فدخل إلى المعبد، ورأى الجدران ملطخة بآثار دماء، ووقع نظره على شيء بلون أبيض وأحمر غارق في بقعة دم يشبه نصفَ ساق، فاقترب مدفوعًا بفضوله، ثم انتفض مذعورًا، فقد كانت بالفعل نصف ساق إنسان. صرخ بيان جين: «ساق، نصف ساق!». ولم يكن صراخه نابعًا من الرعب، بل كان شيئًا من الحيرة، حيث لم يكن بيان جين يعلم أن المعبد كان مستشفى ميدانيًا في الحملة على القرية، ولم يكن يعلم أن هناك ساق إنسان مقطوعة ومرمية على الأرض.

جعلته مخلفات الحرب والحرب ذاتها مليئًا بالحيرة. فسار أولا في الطريق قرب آثار أقدام عربات، وفي طريقه التقط العديد من الأشياء الجديدة: مشط طلقات وبضع أغلفة خرطوش، وفردة حذاء قماشي بلون أصفر ذا نعل مطاطي، ونصف علبة سجائر (لاو داو)، وصندوقين خشبيين مكسورين. جرب أن يلبس فردة الحذاء، وكان مقاسه مناسبًا تمامًا، ولكنه شعر أن نعله لزج، فخلعه وألقى نظرة ليرى بقعة دماء لم تجف بعد تفترش النعل. وضع الفردة في الصندوق، وفكر أن يترك الحذاء ليجف ثم يرتديه لكي لا تصبح قدمه لزجة. كبر إلى هذه السن ولم يرتدِ حذاء ذا نعل مطاطي قط. سحب بيان جين الصندوق وسار عدة خطوات، لكن الطريق الشاسع والأرض البرية جعلاه يشعر بشيء من الخطر، وأراد أن يعود إلى النهر ليرى الوضع، فقد انتهت الحرب، ومَن يدري ما الوضع عند النهر الآن؟.

فاحت رائحة مسكرة من أعواد القصب المحترقة، وفيما عدا تلك الرائحة، كانت هناك رائحة غريبة تنتشر مع النسيم، ولم يستطع بيان جين أن يميز ما إذا كانت زنخة أو مسكرة، فسار متتبعًا الرائحة، وفي الواقع كان يسير باتجاه النهر، وشيئًا فشيئًا لم يعد منتبهًا إلى الجثث التي تطفو مع

التيار، فقد بدأت الجثث تظهر مبعثرة على الأرض الخالية، وما تبقى من ثلوج تبقَّع بدماء قاتمة أو فاتحة. لم يكن بيان جين يخاف الموتى، والتقط من إحدى الجثث في طريقه مسدسًا رشاشًا، وبدا فخمًا بسبطانته الفولاذية ومقبضه اللامع، فرفعه بيان جين ولوح به، لكنه ضغط على الزناد بطريقة ما، فاندفعت رصاصة مُطلقة شرارة باتجاه السماء، فذعر وألقى به، ثم تطلع إلى الأرجاء التي كانت لا تزال غارقة في السكون، ولحسن حظه لم يرَه أحدًا، فتنفس بيان جين الصعداء وقال لنفسه: «مات الجميع ولم يتبقَ غيري!».

وصل بيان جين إلى حقل البطاطا الحلوة، وإذ به يرى حينها أكبرَ تلٍّ جثثٍ خلَّفته الحملة، قلَّما تسفر عنه الحروب بالسلاح الأبيض، ذهل بيان جين، لأنه حتى لم يرَ من قبل بشرًا أحياء بمثل هذا العدد الكبير. كانت الجثث تبدو كأحزمة حطب، ومكومة في حقل البطاطا التي أصبحت أوراقها كما أصبحت تربته حمراء قاتمًا. أحس بيان جين بالاختناق، وأدرك الآن أن تلك الرائحة الزنخة والحلوة قادمة من حقل البطاطا هذا. كان هناك العديد من الناس، يرتدون سترات وبناطيل قطنية صفراء أو رمادية، وقبعات وأحذية قطنية، يحملون سكاكين وبنادق، لا يدرون من أين جاؤوا، وكأنهم ما إن ظهروا حتى قُتِلوا. وكانت إحدى الجثث تصوب بندقيتها باتجاه بيان جين، وأخرى بيدها سكين حاد، ولكن بيان جين يعلم أن الأموات ليس بإمكانهم إطلاق النار، ولا داعي للخوف من أن يطلق أحدهم النار على رأسه.

وقف بيان جين في مكانه مفكرًا لبضع دقائق، ثم بدأ بعدها في جمع القبعات القطنية المتناثرة من تل الجثث، كانت القبعات بواقيات للأذن تقيها البرد حتى لا تتجمد، جمع بيان جين أكثر من عشرين قبعة مرة واحدة،

ووضعها في صندوق من الصندوقين. وقد تلوثت يده بالدماء بسرعة وأصبحت لزجة بشكل لا يُحتمل، فهرول إلى النهر ليغسل يده، ولكن الماء كانت مشبَّعًا بالدم، فاكتفى بشطفها على عجل.

سحب صندوق القبعات وتجول ذهابًا وإيابًا بين الجثث، وأراد أن يعود بسرعة إلى القرية، ولكن الأحذية المطاطية التي ترتديها الجثث خطفت عينه، كانت أحذية جيدة، أفضل وتدفئ أكثر من أحذية لو فو الجديدة، لم يعز عليه أن يترك الأحذية، فخلعها عن الموتى، وجمع ستة أزواج دفعة واحدة. وإذ كان يخلع الزوج السابع عن جثة انتفض مذعورًا إزاء رفسة في بطنه، واكتشف أن ذلك الجندي ذا الموجه المدمى كان مراهقًا، وربما كان أصغر من بيان جين سنًّا. كانت عينا المراهق تحدقان فيه بغضب، ومالت رأسه جانبًا بوهن. وكان بيان جين واثقًا بموته، وأنه على الأرجح لفظ أنفاسه الأخيرة حالًا. «هل مت؟»، سأله بيان جين. «إن كنت حيًا فلن آخذ حذاءك».

لكنه لم يتمالك نفسه وخلع عن الجندي زوج الأحذية السابع، يملؤه الاضطراب بسبب عيني المراهق الغاضبتين. رتب بيان جين القبعات والأحذية جيدًا في الصندوق، وسار عبر أكوام الجثث راغبًا في العودة إلى القرية، وفكر أن هذه القبعات وهذه الأحذية ستكفيه إلى الأبد، ولن يخشى الثلج ورياح الشمال الباردة.

وإذ خرج بيان جين من الحقل، تذكَّر فجأة مركب الصيد، وتذكر الفتاة المدعوة شياو وان (الصحن الصغير) وأمها التي توشك على الموت حيث كان مركبهما يرسو على مقربة من النهر، ويمكن رؤيته من السهل. تطلع بيان جين حوله، ولمح ثلاثة أضواء ذهبية صغيرة خلف أعواد القصب المحترقة. القناديل الثلاثة! ميزها بيان جين، ثلاثة قناديل مضيئة تحت شمس الشتاء الغاربة، ولم تكن متوهجة كالليلة السابقة. وما دامت القناديل مضاءة،

فالمركب هناك، إذن فالفتاة شياو وان تنتظر هناك.

سحب بيان جين الصندوق متجهًا إلى المركب.

صادف بيان جين ذاك الجندي الجريح في منتصف الطريق. كان يزحف على شاطئ النهر الموحل ويسيل منه خط طويل ومتعرج من الدماء، كان الشخص الوحيد الحي الذي صادفه بيان جين منذ انتهاء الحملة. في البداية أحس بيان جين بشيء من الخوف، لكنه ما لبث أن انتبه إلى أنه لا يحمل سلاحًا، ومن المؤكد أن قدميه مبتورتان، وإلا فلِمَ يزحف على الأرض؟ وإلا فلِمَ يزحف أبطأ من الحلزون؟

حبس بيان جين أنفاسه وتبع الجندي الجريح بهدوء، وكانت قدمه تطأ بين حين وآخر سيل الدم، ولم يعرف أكان النزيف من صدره أم قدمه. وشعر أن الجندي قد اكتشف أن ثمة أحدًا يتبعه، فقد أدار رأسه إلى الجانب في محاولة منه لأن يلقي نظرة على الشخص الذي يتبعه، ولكنه كان ضعيفًا وواهنًا للدرجة التي تمنعه من ذلك. وأدرك بيان جين أن الجندي تلاشى إحساسه بالخطر تجاهه، فهرول إليه الأخير على الفور.

«إلى أين تذهب زاحفًا؟». نكزه بيان جين بخفة في كتفه. ثم قال: «إنك أبطأ من حلزون، إلى أين تذهب؟».

أدار الجندي الجريح رأسه بصعوبة، وبدت أنفاسه سريعة وثقيلة. «إلى هناك». قال بصوتٍ مبهم، لكن بيان جين سمعه بوضوح. «القناديل الثلاثة». أشار الجندي بإصبعه إلى جهة أحراج القصب «القناديل الثلاثة».

«هل ترى القناديل الثلاثة؟ هل تريد الذهاب إلى مركب الصيد؟ لماذا؟ إنك جندي».

«القناديل الثلاثة»، ردَّد الجندي.

«أعلم أن هناك ثلاثة قناديل فلستُ أعمى. كما أنه ليس بإمكانك الذهاب إلى هناك، فهذا منزل شياو وان، ليس منزلك».

«أريد العودة إلى المنزل»، قال الجندي الجريح.

«هل أنت والد شياو وان؟»». قرفص بيان جين وأمسك بوجه الجندي الجريح وتفصحه بتركيز، ثم قال: «لا، لا، لست والدها، أنت عجوز، وقبيح، أما شياو وان نشيطة وجميلة، لا يمكن أن تكون والدها».

«شياو وان......يا صغيرتي......شياو وان......يا صغيرتي»، نادى الجندي الجريح.

كان الجندي واهنًا لدرجة منعته من الكلام، وكان لا يزال يزحف على الأرض الموحلة، وكان زحفه يتباطأ شيئًا فشيئًا، ورأى بيان جين بوضوح مصدر النزيف: كان ينزف من بطنه وكتفه ورجله، ورأى عيني الجندي، تلك العينين ذات الشعيرات الدموية النازفة، وأحس أنه شخص عجيب، لأنه على وشك الموت، ولكن عينيه ما زالتا مضيئتين.

«إن كنت والدها، سأحملك إلى المركب. ولكن كيف تثبت أنك والدها؟»، قال بيان جين.

«القناديل - الثلاثة»، قال الجندي.

لم يقل الجندي كلمة أخرى بعدها. وخمَّن بيان جين أنه من الضعف بحيث لا يمكنه الحديث. وفكر أن الحقيقة على وشك أن تنجلي فيما إذا كان هذا الشخص والدها أم لا. كان يفصلهما عن مركب الصيد ذاك بضع خطوات فقط، كانا قريبين للغاية.

نادى بيان جين الفتاة، لكنها لم ترد، فلم تكن على المركب، أو داخل المقصورة. ورأى كذلك المركب الذي اسودَّ بفعل البارود، وسقيفته

المصنوعة من المشمع والتي دمرت في يوم واحد، ولم يتبقَ غير بضعة ألواح من الخشب تنتصب بشكل مائل، وكانت السارية الأكثر غرابة، فقد كانت السارية والثلاثة قناديل المعلَّقة أعلاها سليمة لم تُمَسْ خلال ليلة من إطلاق النيران، كانت المصابيح تتوهج على الرغم من خفوت نورها، وجعلته يتذكر الكيروسين وكل ما حدث مع الفتاة شياو وان.

«شياو وان، اذهبي إلى حقل البطاطا واجمعي القبعات، هناك الكثير من القبعات الجيدة».

السكون والصمت يخيمان على المركب، ولم يعرف إلى أين ذهبت الفتاة.

«شياو وان، اذهبي إلى حقل البطاطا واجمعي بعض الأشياء، سيأخذها الآخرون لو ذهبتِ متأخرة».

فجأة، سكت بيان جين، ورأى يدًا صغيرة سوداء تظهر من المقصورة، ومنديل صغير يتدلى من بين أصابعها الصغيرة تلمس حافته الماء. ميز بيان جين يد الفتاة، لم تغادر الفتاة المركب، كانت مختبئة في المقصورة الخربة.

«شياو وان، لا تخافي، اخرجي، لقد انتهت الحرب».

وبخطوات سريعة قفز بيان جين إلى المركب، ووقع نظره في البداية على صفيحة الزيت النحاسية المقلوبة والكيروسين المُراق على الأرض. «لِمَ دلقتِ الكيروسين؟ كيف ستضيئين القناديل دونه؟». رفع بيان جين الصفيحة، ثم شاهد المقصورة المدمرة بفعل طلقات الرصاص، ولم يعد هناك شيء يغطي المركب. ثم رأى الطفلة وأمها، كانتا تحتضنان بعضهما بعضًا بشدة، ولكن إحدى يدي الفتاة كانت تنفلت من حضن أمها، وتمتد بعزم خارج المقصورة ملوحة بالمنديل الأبيض، بالطبع تلك اليد هدأت الآن، وغاص المنديل الأبيض في الماء. لم يوجه بيان جين كلمة أخرى إلى الفتاة، فقد رأى

خلال يوم الكثير من الأموات، لذا لم يكن من الصعب عليه التمييز بين الحي والميت، وكان يعلم أن الفتاة شياو وان وأمها قد أصبحتا في عداد الأموات.

لكن طائري العقاب كانا لا يزالان على قيد الحياة، طائر في مقدمة المركب، والآخر عند مؤخرته كجنديين يحرسان المركب.

«أَليست تحمل منديلًا أبيض؟ أَلم تلوح به؟ لِمَ ماتت إذن؟». وجه بيان جين أسئلته إلى طائري العقاب.

ويعلم بيان جيان أنه لا ينبغي عليه أن يسأل الطائرين، فهي مثل البطَّات، مهما اعتنى بها صاحبها فلن تتحدث معك. فجأة، أحس ببرودة في طرف عينيه، كانت دمعة، كان يبكي. الدموع سبب تألم الفؤاد. وكان فؤاده يحمل ألمًا لا يمكن وصفه، وتذكر أنها كانت فرحة نشيطة بالأمس، ولم يكن يتمنى أن يُطلَق عليها الرصاص، أما الآن فيتمنى أن يقايض حياتها بمئة بطة. أمسك بيان جين بيدها وسحب منها المنديل الأبيض بعد جهد كبير، وصب جام غضبه على هذا المنديل، كوَّره بشراسة، وقذفه في النهر. «لا فائدة منك، ما فائدة منديل أبيض؟» غُصَّ بدموعه بغتة، وقال: «لا زلتِ صغيرة، ولا تفهمين شيئًا، ليس للرصاص عينان».

زحف الجندي حتى وصل إلى المركب، وكان جسده يرتجف بشدة، ويمد ذراعة اليمنى بصعوبة في محاولة لإمساك شيء ما، ورأى بيان جين أنه يحاول الإمساك باليد الصغيرة القابضة على حافة المركب، يد شياو وان، لكنه لم يشأ أن يتركه يمسكها، فغطى يدها بيده وقال باكيًا: «لا تلمسها، لقد ماتت، لقد ماتتا».

لن ينسى بيان جين عيني ذاك الجندي الجريح اللتين خمدتا فجأة بعدما كانتا مضيئتين، وكأن في عينيه قنديلًا أيضًا، وأحس بيان جين أن الهواء الذي

نفخه بشدة من فمه أطفأ القناديل، وأوقف ارتجاف ذراع الجندي اليمنى، التي سقطت بثقلها في المياه ناشرةً الرذاذ، وداعب وجهه ضوء أبيض يائس، إلى أن سقط وجهه ثقيلًا في المياه وغاص في النهر.

صرخ بيان جين، وحتى هذه اللحظة لم يكن واثقًا ما إذا كان ثمة علاقة بين الجندي الجريح ومركب الصيد، لكنه أدرك أن يده لم تكن ممسكة بيد الفتاة، بل كانت تخنق أنفاس الجندي الحارة الأخيرة، وباغته إحساس الرعب الذي يداهم القاتل، فقفز من المركب، وحمل الجندي من المياه وقال: «ألم تقل إنك والدها؟ أَلم تكن راغبًا في العودة إلى بيتك؟». هز بيان جين الجسد الثقيل اللزج وقال: «لِمَ مت؟ هل أنت أحمق؟ كيف ستعود إلى بيتك وأنت ميت؟». انخرط بيان جين في بكاء حاد، وسحب الجندي إلى المركب. «لقد قلت إنك والدها، حسن إذن، أردت أن تعود إلى بيتك وعدت الآن، فلِمَ مِت؟ على الأرجح أنا الذي قتلتكم، لكني لا أملك بندقية، أنا مدني، أنا مربي البط بيان جين».

نقل بيان جين الجندي الميت إلى المركب تغمره الدموع، ورأى الجثث الثلاث مستلقية إلى جانب بعضها البعض، ووجوه الأموات تحمل التعابير الحزينة المهيبة ذاتها؛ رجل، امرأة، وفتاة تدعى شياو وان، وبدوا كأنهم عائلة بالفعل.

غدا قلبه خاويًا الآن، وانتبه إلى القناديل الثلاثة التي يخمد وهجها قنديلًا تلو الآخر، وارتفع الغسق بهدوء من النهر، إلى أن خمدت القناديل تمامًا.

ضفتا النهر شاسعتان ممتدتان، وإن نظرت إلى أبعد نقطة جهة الغرب، بإمكانك أن ترى شمس المغيب معلقة في نهاية النهر، ومسحة ذهبية من ظلال سحب تشوب حافة السماء، خمد وهج القناديل، وفُطِر قلب بيان جين، وغرقت روحه الشابة الساذجة وجسده المتعب في العتمة.

قام بيان جين بأمر لا يمكن تصوره. لن يمكنكَ أن تتصور أنه دفع مركبَ صيدٍ من الضفة إلى وسط النهر، مرتجفًا من البرد وغاطسًا في الماء المتجمد، دفع بيان جين المركب بكل جهده إلى قلب النهر. «ارحلوا من هنا، هنا ليس مكانًا طيبًا». موجهًا حديثه إلى طائر العقاب الواقف على مقدمة المركب الذي ظل ساكنًا. ثم وجه كلامه إلى الطائر الواقف على مؤخرة المركب: «ارحل بهم بعيدًا عن هنا، إلى مكان ليس به حرب».

أبحر المركب مع التيار وقت المغيب، ولم يعلم الطائران إلى أين يبحر مركبهم. «إلى أي مكان آمن سنذهب؟». حتى بيان جين لم يكن يعلم.

كان هذا في مغربٍ ما، بعد انتهاء الحملة على قرية شيوي، حين عاد جنود المعركة في عرباتهم متأخرين، وأثناء مرورهم بالقرية رأوا شخصًا يثير الريبة، كان هذا الشخص يسحب صندوقًا ويسير قرب النهر، ضاربًا بكل التحذيرات عرض الحائط، ولم يرَ الجنود بوضوح ما في الصندوق، وأراد أحدهم أن يذهب ويستجوبه، لكن بضعة جنود ميزوا بيان جين وقالوا: «لا تلقِ له بالًا، فهذا الأحمق من قرية شيوي».

(8)

أحرقت نيران الحرب في القرية الكثير من الأشياء وغطت كثيرًا من المعالم بلون أسود، وأشرقت الشمس لعدة أيام متتالية، وذوَّبت الثلج المتراكم وأصبحت الأرض موحلة جافة بفعل أشعة الشمس الحارقة، وظهر لون الأرض، وكان البيدر الأصفر ممتزجًا بلون أحمر، وأزقة القرية رمادية تكشف عن مسحة لون أصفر، أما النهر فكان أسود، وسواد حقل البطاطا

الحلوة الشاسع الممتد خارج القرية تحول إلى اللون الأحمر.

أما المواشي التي ذُعِرَت بسبب إطلاق النيران فقد أفاقت من ذعرها، وكانت تتضور جوعًا، وتشكلت مجموعات تركض إلى البيدر للبحث عن الطعام. وكان البيدر لا يحوي غير رصاصات مبعثرة هنا وهناك، ولم يكن هناك أي شيء صالح للأكل، لذا بدأت الدجاجات والخنازير والخراف والبط تتبع بيان جين، وتصدر مختلف أنواع الصياح من أجل إطعامها. ولم يكن ذلك ذنب الحيوانات، فلم يبق في القرية الواسعة سوى بيان جين، فإن لم يطعمها فمَن سيطعمها؟

إلا أن بيان جين لا يمكنه أن يهتم بمواشي الآخرين، فسرب بطّاته يتضور جوعًا، وما اصطاده من حلزونات وأسماك صغيرة لا يكفي إلا لإطعام البطّات، لذا مضى يسوق تلك المواشي المزعجة طوال طريقه، كان مشغولًا للغاية، ويريد أن يغسل الأشياء التي في الصندوق مستغلًا الجو الصافي: بضع عشرات من القبعات، والكثير من الأحذية القماشية الملطخة ببقع الدماء. كيف ترتدي قبعة أو حذاء غير نظيف؟ ولم يكن أمر تنظيفها سهلًا، فقد جثا بيان جين عند النهر يغسل بجهد حتى آلمه خصره.

فرش بيان جين الأشياء المغسولة على الأرض قرب الشاطئ لتجف، كانت تفوح من تلك القبعات، وتلك الأحذية رائحة زنخة، حلوة دافئة، رائحة دم الشخص حين يتغلغل في دفء القطن. شم بيان جين القبعات والأحذية قطعة تلو الآخرى، وأدرك أن هذه الرائحة لا يمكن إزالتها بسهولة. حسن، وماذا في ذلك؟ هل تعلم أن تلك الأحذية أفضل مئة مرة من أحذية لو فو، وتلك القبعات أفضل مئة مرة من قبعات لو شو يي اللعينة. تسلَّق بيان جين كومة قش وجلس يحرس أشياءه، متأملًا النهر الممتد المتدفق أمام عينيه. ولم يرَ بيان جين في حياته نهرًا ملوثًا تطفو على

سطحه الأوساخ بهذا الشكل؛ أكوام من المواشي النافقة والأخشاب المحترقة والملابس وأشياء بالية تطفو مع تيار النهر في كتل كبيرة، أما ضحايا الحرب فقد نُقلوا في عربات، إلا أن هناك بعض الجثث لا تزال تنجرف مع التيار.

رأى بيان جين ما لم يكن راغبًا في رؤيته، وما كان راغبًا في رؤيته لم يستطع تذكره لوهلة. لكن حالما لمح منديلًا أبيض يطفو عند حافة الماء، تذكر على الفور، فقد أراد أن يلمح هذا المنديل، لا، أراد أن يرى الفتاة شياو وان الملوحة بالمنديل، ومركب الصيد والقناديل الثلاثة.

لكن وهج القناديل خمد، ومن الصعب العثور على المركب، فالنهر طويل، ويمر بثلاث محافظات وسبعة مراكز محافظات بمسافة تبلغ أكثر من مائتي لي، مَن يعرف أين يطفو ذاك المركب الآن؟ كانت ذكرى الفتاة شياو وان تصاحبها دائمًا أصوات نيران صامة للأذن، تحزنه ما إن يتذكرها. ثم اخترقت جسده رصاصات متتابعة، تحسسها بيده وكأنَّ مسًّا من جنونٍ أصابه، كان راغبًا في إخراج تلك الطلقات اللعينة، لكن كل محاولاته ذهب أدراج الرياح، فقد أصاب الرصاص جسدهِ بالكامل حتى عظامه، وانكمش في ألم، ولم يفهم ما سبب تلك الرصاصات التي أصابت جسده، وهو الذي نجح في تجنب سيل نيران الحملة على القرية؟!

وبغتة غرق الناجي من الحملة في ألم بالغ لا يمكن تصوره، وقد أحدث بيان جين في عنقه وذراعيه وصدره جروحًا وندوبًا جديدة في محاولة لإخراج الرصاصات التي اخترقت جسده. ثم اكتشف بعدها أن الطريقة الوحيدة لتخفيف ألمه، هي أن يغلق عينيه ويسد أذنيه ويتخيل، يتخيل وشاح الفتاة الأخضر، يتخيل قناديل المركب الثلاثة، وحين يتخيل تلك الأشياء يسترخي جسده، وتسكن الرصاصات داخله شيئًا فشيئًا.

هل تعلم أن حياة بيان جين سوف تتغير حتمًا؟ ليس في حياته شيء إلا تلك البطَّات، إلا أنه لا يمكن مقارنتها بما أحدثته الفتاة شياو وان من أثر في نفسه. وفي يوم من الأيام اكتشف بيان جين أن القبعات والأحذية المتروكة لتجف في الشمس مليئة بزرق البط، فاجتاحته سورة من الغضب ولاحق البط هائجًا: «أَلا تجيد سوى الزرق والصياح؟». لوح بيان جين بقبضته مسعورًا: «لِمَ لم تصبكم الطلقات؟ لن تعوض مئة منكم شياو وان!».

بدأت عربات السكان النازحين عن القرية تظهر على الطريق الرئيسي في اليوم الثامن والعشرين من الشهر الثاني عشر للسنة القمرية. وقد أسرع الناس في العودة لأجل عيد الربيع، على الرغم من أنه لم يبدُ أي أثر لانتهاء الحرب المستعرة عند التلة، حيث كان عشرات الآلاف من الجنود يتقدمون من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي كالأمواج الهائجة، حتى إن آثار الغبار الأصفر التي تثيرها عرباتهم تُرى بوضوح. لكن فلتفكر، كم عائلة سترضى أن تحتفل بعيد الربيع وتطلق الألعاب النارية في أرض غريبة؟ لذا عاد عمدة القرية لو شيانغ في البداية بسبع أو ثمان عائلات تحن إلى مسقط رأسها.

رأى بيان جين من بعيد عدة عربات تتجه ناحية القرية، فأطلق صرخة فرحة، وترك حذاء قطنيًا كان في يده ومضى ليرحب بأهل قريته، ولكنه ما إن خطا بضع خطوات حتى توقف على الفور، لأنه تذكر على الفور الأفعال التي ارتكبها حين لمح عمدة القرية، وتذكر أنه قد نام في تابوت والدته، وبما أن عمدة قرية شخص معروف ببر والديه، فمن المؤكد أنه سيقرص أذنه، وستُلقى بطَّاته في قِدر تغلي، وقد لوثت بطَّاته منزله المرتب النظيف، كما أن أكثر ما لا تطيقه زوجة العمدة هو روث الحيوانات، والعمدة يخاف من زوجته، ولن يغفر له ما فعله. حينها أطلق بيان جين ساقيه للريح متجهًا إلى

منزل العمدة ليمحو آثار فعلته.

اندفع بيان جين إلى المنزل، وكان تابوت والدة العمدة أول ما بدأ به: أراد أن يعيد عشرة أو أكثر من حبات البطاطا، لكن أين سيعثر على حبات بطاطا وهو في عجلة من أمره؟ لوهلة لم تسعفه أي أفكار، فاتجه إلى الموقد والتقطت بضع قطع حطب ووضعها في التابوت، ولأن الحطب والبطاطا ليسا متشابهين، فغطى الحطب مسرعًا بحزمة من القش، ومدركًا أنه لن يستطيع أن يعيد التابوت إلى ما كان عليه، وما لبث أن أغلق التابوت وهو يعرف أنه لا يملك حيلة. أما إعادة الكيروسين فكان الأمر الثاني الذي أراد بيان جين فعله، وهذا كان سهلًا بعض الشيء؛ فتح بنطلونه بسرعة وتبول في صفيحة الكيروسين من ثم أعادها تحت سرير العمدة. أما زرق البط المتبقي فكان سهلًا التخلص منه: التقط مكنسة مكسورة وكنس الأرض بكل جهده، فتطاير الزرق الجاف خارج الفناء إلى الحارة.

تنفس بيان جين الصعداء ما إن خرج من منزل العمدة، وتسلق شجرة متأملًا الأهالي القادمين من بعيد، إلى أن وصلت العربات إلى مدخل القرية، جلس بيان جين على الشجرة لأنه رأى أن هذه طريقة جيدة لاستقبالهم، حتى اكتشف أنه يجلس على شجرة توت عتيقة في منزل لو شو يي، والمنزل المسقف بالقرميد كان منزل لو شو يي.

فجأة خفق قلبه بشدة وكأن الرعب سيسقطه من الشجرة ويخلع قلبه، وقد انتبه إلى وقوعه في ورطة هائلة حين لمح الفجوة في قرميد السطح، فأراد أن يتسلقه، لكنه يعلم أنه حتى القش لن يحجب تلك الفجوة. «كيف أصلح سطحًا من القرميد يا تُرى؟». اعترته نوبة من القلق فتعرَّق بشدة، وتذكَّر أن لو شو يي لديه خمسة أبناء أشداء، وثلاث بنت شريرات لن يرحمنه، وإن ركل كلٌّ منهم بيان جين ركلة، سيفقد حياته بالتأكيد، فرفض على الشجرة يعتريه

الاضطراب وانعدام الحيلة، وداهمه إحساسٌ ثقيلٌ بالرعب لم يستطع على إثره أن يفرد جسده، فغطى وجهه، وسمع الطلقات تدمدمُ متسارعة داخل جسده، وبدأ الألم يباغت جسده بالكامل حتى عظامه.

وحين رأى العمدة بيان جين ابتهج ونزل من العربة فاتحًا ذراعيه، وأمسك به كنسر يقبض على دجاجة صغيرة.

«يا لكَ من أحمق، أَما زلتَ حيًا؟ يقال إنه ليس للطلقات عيون، ومن قال إنه ليس للطلقات عيون وإنها لا تصيب الحمقى؟».

«أنا لست أحمق».

قال لو شيانغ: «ومَن قال إنك أحمق؟ هل ينجو أحمق من الرصاص؟ من قال إنك أحمق فهو الأحمق».

ردَّ بيان جين: «لقد أصابتي الطلقات، لكنني لا أستطيع إخراجها، يؤلمني جسدي، يؤلمني للغاية».

قرصه لو شيانغ بضع قرصات ثم قال: «أين أُصبت؟ إن جسدك أقوى من جسد ثور». ثم قبض على أذنه وأردف: «أنت يا أحمق، هل تمزح معي؟».

«لا تقرص أذني» ألقى بيان جين نظرة مذعورة على يد العمدة الضخمة وقال صارخًا فجأة: «لم أذهب إلى منزلك، ولم تلوث البطَّات منزلك بزرقها».

«لم تذهب إلى منزلي؟ ولم تلوثه بطَّاتك؟ تخشى ألا أقرص أذنك؟».

«لا تقرص أذني!»، قال صارخًا محاولًا تجنب يد العمدة الضخمة: «لم آخذ الكيروسين من منزلك، ولم تأخذه شياو وان كذلك، وصفيحة الكيروسين لا تزال تحت سريرك».

صمت لو شيانغ فجأة، ثم اقترب بجبهته من بيان جين وحدجه بنظرةٍ

حادة، ألهبت خديه، وقال مبتسمًا ابتسامة فاترة: «حسن يا أحمق، أخمِّن أنك قد فعلت أمرًا خاطئًا، أخبرني بالحقيقة، ماذا فعلت؟».

خفض بيان جين رأسه، وقبض على أذنه بقوة وقال: «لم أنم في التابوت، الأموات فقط ينامون في التوابيت، لم أنم فيه. والبطاطا في التابوت ممتزجة برائحة الطلاء، لم آكل البطاطا في التابوت».

شتمه العمدة شتيمة نابية، وفرَّق أصابعه بيده، وفي الوقت ذاته عصرت يداه الضخمتان أذني بيان جين وقرصتهما بشدة، ثم أسرع إلى منزله.

غطَّى بيان جين أذنيه ونهض، وأحس أنهما على وشك السقوط، لكنه تحمَّل ألمه وبصوت عال قال لظل العمدة الراكض إلى المنزل: «يا عمدة، لقد أحدثت الطلقات فجوة في سطح لو شو يي».

تجمع العديد من أهالي القرية حول بيان جين محدثين جلبة، وراغبين في سماع تفاصيل الحملة التي شُنَّت على القرية، لكنه لم يسمع شيئًا مما يقولون، وأبعدهم بفظاظة مغادرًا وقال: «لقد غادرتم كالفئران، ولم تُحرق منازلكم، أما أنا فظللت أحرس بطَّاتي، وأحرق الجنود حظيرتها. هل تعلمون؟ لقد نمت عدة أيام في المعبد». حينها شد أحد الأطفال طرف ملابسه وقال: «بيان جين، كيف لم تصبك الرصاصات؟». فأبعد بيان جين يد الطفل واختنق بدموعه، أراد البكاء لكنه سيطر على نفسه: «ماذا تعرفون أنتم؟ الرصاصات مختبئة في جسدي، أنا على وشك الموت من شدة الألم».

ومن وجهة نظر أهل القرية فإن كلام بيان جين كان دائمًا كلامًا أخرقَ غيرَ مترابط، إلا أنه أثار الضحك والسخرية على الرغم من أن روايته لوقائع الحملة كانت مبهمة. وما أصابهم بالحيرة هو صرخة بيان جين الأخيرة: «إنكم شريرون». صرخ ملء حنجرته واقفًا عند مدخل القرية: «إن مئة

منكم لن يكونوا في مرتبة شياو وان!».

حينها لم يعلموا أنها الصرخة الأولى التي صرخها بيان جين في القرية، والصرخة الأخيرة كذلك.

(9)

غادر مربي البط بيان جين القرية مساء اليوم الثامن والعشرين من الشهر الثاني عشر من السنة القمرية، أو ربما غادر فجر اليوم التاسع والعشرين، إلا أن ذلك ليس ذا أهمية. وفي ذلك اليوم أيضًا، اندفع عمدة القرية لو شيانغ مأخوذًا بسورة غضب محمومة باحثًا عنه في كل زاوية من زوايا القرية، لكنه لم يلمح له أثرًا. وكان ابن الأرملة وانغ يجمع السلطعون قرب النهر وأخبر لو شيانغ أنه رأى بيان جين يمر قرب النهر ويسوق بطَّاته، وقال إنه كان يسير باكيًا.

وظن العمدة أنه سيعود قبل حلول الليل، لكن بيان جين لم يعد إلى المنزل، وفي واقع الأمر، فليس لبيان جين منزل، فأينما يذهب مع بطَّاته يكون هذا المكان منزله. بعد ذلك، عادت عائلة لوفو ولوشو يي إلى القرية، وبالطبع كان لا بد أن يعودوا، فمَن سيقضي السنة الجديدة من أهل القرية بعيدًا عن منزله؟ اكتشف لو شيانغ على كومة الحطب في منزله قبعة قطنية وزوج أحذية في اليوم الذي رحل فيه بيان جين عن القرية، ولأن لو شيانغ تاجر خبير بأمور الحياة، فقد استطاع بنظرة واحدة أن يعلم أن الأحذية والقبعات من لوازم الجيش، وعرف بسرعة أنها أُخذت من على جسد ميت، فمضى يسب ويلعن ورمى القبعة والحذاء، إلا أنه التقطهما مرة أخرى، كان رجلًا يميز بين

البضاعة الجيدة عن الرديئة، لم يشأ أن يرمي قبعة قطنية دافئة وجيدة كهذه، ولم يشأ أن يتخلص من حذاء ذي نعل مطاطي متين كهذا، كما أنه كان يعلم أنها هدية تركها له بيان جين كتعويض.

حصلت عائلة لوشو يي على قبعات وأحذية أيضًا. في البداية طار لو شو يي فرحًا، لكنه سرعان ما فهم أن تلك القبعات والأحذية لها علاقة بالفجوة على سطح منزله، فشحب وجهه وكزَّ على أسنانه وقال بغضب: «هل ستعوضني قبعات وأحذية مهترئة تافهة عن سطح منزلي؟ أنت يا أحمق، كيف لم تصبك الطلقات؟ وحتى لو أحدثت فيك ثقوبًا فلن يشفي ذلك غليلي!».

إلا أن العمدة لو شيانغ ولو شو يي عزَّ عليهما أن يتخلصا من هدية بيان جين. وفي صباح اليوم الأول من السنة الجديدة، ذهب لوشو يي إلى منزل العمدة لتهنئته ورآه يرتدي القبعة ذاتها، والحذاء ذاته، فنظر الاثنان بذهول إلى بعضهما البعض فترة، من ثم ابتسما ابتسامةً ذات مغزى.

فقال لو شو يي: «هذه القبعة جيدة للغاية، ولها واقيات للأذن تحمي من البرد».

وقال العمدة: «الأحذية جيدة للغاية أيضا، متينة وتدفيء القدم، لم أرتدِ أحذية جيدة مثلها من قبل».

كان العمدة يتذكر بيان جين دائما أثناء الاحتفال بالسنة الجديدة، ولا يعلم السبب وراء رحيله عن القرية كالفأر. «لقد عاد الجميع إلى ديارهم، لكنه هرب كالفأر». تذكر أن بيان جين قد ارتكب الكثير من الأشياء التي كانت تثير غضبه، حتى إنه في مرة أوشك على سحب خنزيره إلى النهر، لكنه لم يخف من قبل، ولم يهرب، لمَ خاف هذه المرة ورحل؟ بعدها تذكر العمدة

سيل الطلقات والنيران التي انهمرت على القرية أثناء الحملة، وخمَّن أن بيان جين ربما هرب لأنه ذعر من الطلقات والنيران.

ولم يرَ أحد من أهل القرية مربي البط بيان جين حتى حلول فصل الصيف، حينها كان لوفو ذاهبًا مع مركب محمل بالأرز لبيعه قرب مصب النهر، وإذ عبر المركب محافظة «تياو»، لمح لوفو بيان جين يسير قرب ضفة النهر ويسوق سربًا من البط، فسأله لوفو إلى أين يذهب، فقال بيان جين إنه ليس ذاهبًا إلى أي مكان، وإنه يبحث عن مركب صيد. فسأله لوفو عن أي مركب صيد يبحث، فقال بيان جين إنه يبحث عن مركب يحمل ثلاثة قناديل معلَّقة. فأخبره لوفو أنه لم يشاهد مركب صيد يحمل ثلاثة قناديل من قبل، وسأله لِمَ يبحث عن هذا المركب، لكن بيان جين لم يرد، وتابع سيره كشخص أخرس يسوق بطَّاته، وظلَّ هكذا مستغرقًا فيما يفعله: يسير قرب النهر كأخرس ويسوق بطَّاته.

«أي مركب صيد؟ وأي ثلاثة قناديل؟». ذكر لوفو الأمر لأهل القرية ضاحكًا، وقال لهم: «لقد أخبرتكم من قبل أنه أحمق لكن لم يصدقني أحد، هل تصدقونني الآن؟».

نعم، الآن نصدق. وقد ظل بيان جين يسير مع بطَّاته بطول النهر، ومن المرجح أنه سار حتى مصب النهر، إلى منطقة جبلية عند نقطة التقاء نهر شو مع نهر آخر، وهذه في الحقيقة مسيرة أشد ما تكون خطورة، لأننا نعلم أن الحرب على التلة جمرة هائلة مشتعلة، يمكن أن تتدحرج هنا وهناك، وفي فصل الخريف ذاك، تدحرجت جمرة الحرب ناحية المنطقة الجبلية.

يارا المصري

مترجمة مصرية درست اللغة الصينية في كلية الألسن جامعة عين شمس في القاهرة وفي جامعة شاندونغ للمعلين في مدينة جينان بالصين، نشرت قصصاً ونصوصاً شعرية ودراسات مترجمة عن اللغة الصينية إلى اللغة العربية في مجلات وصحف منها «مجلة العربي، جريدة الأهرام، المحلق الثقافي لجريدة الاتحاد، أخبار الأدب» وغيرها من الدوريات الثقافية العربية. شاركت في مؤتمر المترجمين لترجمة الأعمال الأدبية الصينية الذي عقد في الصين أغسطس 2016، وشاركت في «الملتقى الدولي للترجمة - الترجمة مشروعٌ للتنمية الثقافية» في القاهرة في الفترة 23 – 24 نوفمبر 2016، كما شاركت في ورشة الكتابة والترجمة في أكاديمية لوشون للأدب في بكين نوفمبر - ديسمبر 2017. تجيد اللغات العربية والصينية والإنجليزية.

فائزة بالمركز الأول في مسابقة جريدة أخبار الأدب للشباب في الترجمة 2016 عن ترجمتها لرواية «الذوّاقة» للكاتب الصيني «لو وين فو».

أعمال منشورة:

- «**العظام الراكضة**» المؤلفة: «آشه»، مجموعة قصصية، بيت الحكمة والإعلام في الصين 2015.

- «**الفرار في عام 1934**» المؤلف: سوتونغ، رواية. دار الصدى/ مجلة دبي الثقافية، الطبعة الأولى 2015. مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2017.

- «**رياح الشمال**» المؤلفة: بينغ يوان، مجموعة قصصية. دار الحكمة للإعلام والنشر 2016.

- «**الذوَّاقة**» المؤلف: الكاتب الراحل لو وين فو، رواية. سلسلة الجوائز التابعة للهيئة المصرية العامة للكتاب 2016.

- «**أحتضن نمراً أبيضَ وأعبرُ المحيط**» المؤلف: الشاعر الراحل خاي زي، مختارات شعرية. دار النسيم بالتعاون مع مجموعة النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين 2017.

- «**زوجات ومحظيات**» المؤلف: سوتونغ، رواية. مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2017.

SU TONG

ANOTHER LIFE FOR WOMEN

& 2 OTHER NOVELLAS

سُوتونغ

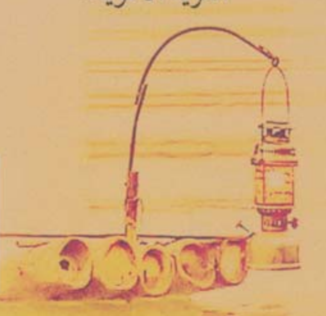
حَياة أُخرى للنسَاء

تنتهي روايات سوتونغ الثلاث القصيرة هذه «بوقائع موت» أو «الموت» هو الملمح الرئيس منظورًا إليه من المصير الإنساني بتعدد مستوياته، الطموح، الوحدة، الحرب، وحتى هذا «الموت» يأتي كذلك بتعدد المصير الإنساني، الموت نتيجةَ حدثٍ عارض، أو الموت كجريمة قتل، والموت الطبيعي، والموت نتيجةَ الحرب.

لكن كيف يعالج سوتونغ وقائع الموتِ هذه في ارتباطها بالمصير الإنساني؟ إنه يعالجها بالفرار الدائم نحو أمرٍ ما، نحو الطموح في الرواية الأولى «الربيع في مصنع تعليب اللحوم» ونحو الإقلاع عن حياةٍ رتيبة ونحو مكائد النساء في الرواية الثانية «حياة أخرى للنساء» ونحو البحث عن مركب ضائعٍ في النهر حتى وإن كان يحمل موتى أو قتلى حرب في الرواية الثالثة «القناديل الثلاثة».

والفرار المقصود ليس قضية أخلاقية مقابل المواجهة مثلًا، إذ تبدو جميع الشخصيات في الروايات الثلاث، كما لو كانت مجبولة من الضعف الإنساني المُحاط بأقدار تكاد تكون وجودية، إذ ما الذي يمكن أن يفعله مُربٍّ بط فقير وأمّي في مواجهة «حرب» رغم أنه، وهذه مفارقة، لم يهرب كما سكان القرية الأقوياء.

يارا المصري




ISBN: 978-1-988483-72-6



